جامعـــــــــــة الجزائـــــــــــر
كليـــــة الآداب و اللغـــــات
قسم اللغة العربية و آدابها

تفسير السلــوك الإنســـاني فـــي روايــات " نجيب محفوظ"

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في النقد الأدبي الحديث .

إعـــداد الطـــالب
محمد مسبـــاعي

الأستـــاذ الدكتـــور :
عبد القادر بوزيده

أعضاء اللجنة المناقشة

أ.د .... رئيســـــا
أ.د عبـــد القـــادر بوزيـــده مشرفا و مقررا
أ.د .... مناقشـــــا
أ.د .... مناقشـــــا
أ.د .... مناقشـــــا

إهـــــداء

أهدي إلى أبي ثمرة غرستها يــــداه
لعلهـــــا تحقق ذاته و مناه ...

مقدمة

عرف الفكر الإنساني مراحل تاريخية متعاقبة حينا، و متداخلة أحيانا، تدرج فيها من مرحلة التفكير السحري، فمرحلة التفكير الأسطوري، فمرحلة التفكير الديني، حتى بلغ مرحلة التفكير الفلسفي؛ بوصفها تمهيدا لظهور إرهاصات التفكير العلمي، و ليد التراكم المعرفي، و تجارب التأمل العقلي، مما أفضى إلى الاستدلال، و التجارب العلمية، و الدقة الموضوعية، و جرّد التفكير الإنساني من الرواسب الميتافيزيقية و المثالية.

يعتبر تفسير السلوك الإنساني؛ موضوع العلوم الاجتماعية كلها، فضلا عن الفلسفة في حد ذاتها؛ باعتبارها الرحم المعرفي الذي انحدرت منه، لأن مفاهيم الحق، و الواجب، و الحرية، والمسئولية، و الأخلاق، لا وجود لها خارج السلوك؛ بحكم ارتباط أكثر المفاهيم الفلسفية تجريدا بالأنماط السلوكية الحاملة لها، و المحمولة بها أيضا، و إذا كانت هذه هي طبيعة علاقة المفاهيم الفلسفية بالسلوك الإنساني؛ فلا مدعاة للتدليل على كونه ميدان بحث علوم النفس، و التربية، و الاجتماع، والسياسة، و التاريخ، و الإعلام، و علوم الإنسان، و الأديان، فضلا عن الفنون الجميلة الزمانية والمكانية، مما ينم عن أهمية تناوله في الأدب عموما، و الرواية على وجه الخصوص، لكونها من أكثر الأنواع الأدبية تصويراً دراميا لكل عناصر السلوك، صغيرها و كبيرها، بسيطها ومعقدها، ظاهرها، وباطنها، سويها، و منحرفها، ثابتها و متغيرها معا، لأن الإنسان أبدع الفنون و الآداب، و العلوم الاجتماعية كلها لتكون جوانب شخصيته المختلفة محورا لها، بوصفه فردا، و جماعة، و حضارة، وباعتباره مصدر المعرفة العلمية، و موضوعها على حدّ سواء.

يقوم اختيار روايات نجيب محفوظ على جملة من الاعتبارات، منها كونها تشكل عالما روائيا قائما بذاته تتسم أشكاله بالتنوع، و مضامينه بالخصوبة بحكم تعدد مستوياته، ودلالاته، و أبعاده الاجتماعية، و النفسية، و التاريخية، و الفنية، مما استقطب اهتمام الأوساط النقدية و الأكاديمية التي واكبت مساره الإبداعي الممتد من مرحلة تأسيس الرواية الواقعية إلى مرحلة التجنيس، حيث بلغت أعلى مراحل النضج الفني..

إن أصالة نجيب محفوظ الفنية حملت النقاد، و الباحثين على متابعة إبداعه الروائي لكونه حقق التوافق بينهم، على الرغم من الطابع الجدلي السجالي لاتجاهاتهم النقدية المختلفة من الوجهة النظرية، والمتكاملة من الوجهة التطبيقية في نقدها لأدبه الروائي، لأن خصوبته الفنية أتاحت لهم إجراء قراءات نقدية مختلفة لجوانب إبداعه المتعددة تعدد المناهج النقدية؛ لأن الأصالة الفنية تجعل الأعمال الإبداعية حمالة أوجه؛ قابلة لشتى القراءات النقدية.

لم يكن احتيار تلك العينة من الأعمال الروائية عشوائيا، بل مقصودا بحكم إجماع النقاد على كونها تمثل في مسار نجيب محفوظ الإبداعي المرحلة الرومانسية التاريخية، و المرحلة الواقعية الاجتماعية، لكونهما تستندان في تصوير السلوك الإنساني، و تفسيره على حقائق العلوم الاجتماعية ونتائجها، لذلك استبعدت روايات المرحلة الفلسفية ما عدا رواية الطريق لكونها أقل رواياته الفلسفية إغراقا في الرمزية، و التجريد .

تتمثل مشكلة البحث في رصد المظاهر الجسمية، و الانفعالية، و العقلية و الاجتماعية لأنماط السلوك السياسي، و الاجتماعي، و الجنسي، و الإجرامي، و تحليل جذورها النفسية ، و الثقافية، والاجتماعية المبثوثة في مستويات النصوص الروائية العميقة، النابعة من طوايا شخصية مبدعها الشعورية و اللاشعورية، و سمات مجتمعه الثقافية، و الحضارية بحكم ارتباط شخصية الروائي بالطابع العام لشخصيته القومية التي ينتمي إليها .

يلتزم البحث في تناوله للنصوص الروائية المنهج النفسي الاجتماعي الذي يهدف إلى تحليل الديناميات النفسية الكامنة في البناء النفسي و العقلي للشخصيات الروائية، و الديناميات الاجتماعية السائدة في محيطها الاجتماعي بكل قيمه، و مؤسساته، و طبقاته بغية الاهتداء إلى اتجاهات التفسير التي يتبناها الخطاب الروائي على ضوء ملامحه الضمنية و الصريحة الساكنة و الدينامية، الخاصة والعامة؛ لذلك اقتضت طبيعة الموضوع الاقتصار على تناول المسائل المتعلقة بتفسير السلوك الإنساني، و استبعد تماما مالا يتصل به شأن الأبعاد الفنية و الجمالية، بحكم أهميتها المحدودة في إضاءة جوانب الموضوع.

قسم البحث إلى خمسة فصول حيث يتناول الفصل الأول الاتجاهات الفلسفية و العلمية المفسرة للسلوك الإنساني، و يستعرض أهم نظرياتها المعرفية، التي تدرجت عبر مراحل تطور الفكر الإنساني من العصر اليوناني إلى العصر الحديث، حيث حاولت كل نظرية تحديد الأسس التي يقوم عليها السلوك الإنساني سواء أكانت فطرية، أم غريزية، أم بيئية، أم نفسية، أم اجتماعية، أم ثقافية، وارتأت بعض الاتجاهات الانتربولوجية الحديثة التوفيق بين بعض الأسس في سياق رؤية علمية منفتحة على حقائق البحث العلمي؛ و نتائجه تلافيا لضيق الرؤية المعرفية التي تدمغ بعض الاتجاهات الفكرية السائدة .

أفرد الفصل الثاني لتفسير السلوك السياسي على ضوء الروايات التاريخية الثلاث؛ و هي عبث الأقدار، و رادوبيس، و كفاح طيبة. و يراد بالسلوك السياسي كل ما يصدر عن القائد من تصرفات في جماعته الأسرية، أو وسطه السياسي، و علاقته بشتى مؤسسات الدولة و المجتمع التي يشرف على

قيادتها بصورة استبدادية، أو فوضوية؛ لأن القائد يستمد خصائصه من موقع قيادته، و خصائص شخصيته أيضا، و يفرض مركزه السياسي على الآخرين طاعته، و الخضوع له، و كلما عجز عن الاضطلاع بدوره السياسي، تفكك تماسك الجماعة التي يستعين بها على ممارسة السلطة، و انقطع بينه و بينها الاتصال مما يفضي إلى تغيير القيادة عن طريق العزل، أو التمرد، أو الاغتيال .

يعالج الفصل الثالث تفسير السلوك الاجتماعي في ثلاثية بين القصرين التي تتناول السلطة الأبوية، و أشكال التفاعل معها في بنية الأسرة النووية، و يتطرق جزؤها الثاني الموسوم بعنوان قصر الشوق إلى نزعة توكيد الذات، و ديناميات الجماعة في تفاعلها مع حاجة الفرد إلى تحقيق ذاته إما بتقبلها أو رفضها، أو تجاهلها تماما أما رواية السكرية - آخر أجزاء الثلاثية - فمحورها التغير النفسي، و الثقافي، و الاجتماعي الذي تألقت بعض مظاهره في أنماط التفكير، و السلوك و أشكال التفاعل مع الذات، و الآخر، و أثر التغير الثقافي و الاجتماعي في زوال سمات معينة، و ظهور أخرى في سياق التكيف الاجتماعي مع الواقع المتغير .

يتطرق الفصل الرابع إلى تفسير السلوك الجنسي في رواية القاهرة الجديدة التي تصور أثر السلوك السيكوباتي على الوساطة الجنسية، أما رواية زقاق المدق، فتتطرق للانحراف الجنسي بوصفه انعكاسا لانهيار انساق القيم الاجتماعية، بينما تصور رواية السراب أثر التربية الخاطئة، و عقدة أوديب على العجز الجنسي في الزواج.

أما الفصل الخامس، فيتناول تفسير السلوك الإجرامي في ثلاث روايات، هي رواية بداية ونهاية، التي تستعرض أثر التفكك الأسرى على الانحراف، و يتمثل ذلك في كل أشكال السلوك الإجرامي، كالبغاء، الاتجار بالمخدرات، السلوك العدواني، السلوك الانتحاري، أما رواية اللص والكلاب، فتتناول أثر التربية الخاطئة، و التغير الاجتماعي السريع في سوق الفرد العاجز عن التكيف الاجتماعي إلى الإجرام كوسيلة دفاع عن الذات اتجاه تهديدات الآخرين. أما رواية الطريق، فتستعرض أثر التفكك الأسري، وتأثير صورة الأم الآثمة على جنوح ابنها للسلوك الإجرامي.

لا يسعني في الختام إلا أن أزجي موفور تقديري، و أعمق امتناني **لأستاذي الكريم الدكتور عبد القادر بوزيده** على تعهده هذا البحث بالرعاية العلمية الضافية التي واكبت مراحل إعداده المتعثرة العسيرة منذ أن كان مجرد عنوان حتى استوى على هذا النحو جامعا في ثنايا فصوله مواطن القوة و الضعف شأن جل الأبحاث العلمية، بحكم قصور المعرفة الإنسانية عن بلوغ الحقيقية في أعلى مستويات الشمول و الكمال .

الفصل الأول

الاتجاهات الفلسفية و العلمية

في

تفسير السلوك الإنساني

الاتجاهات الفلسفية و العلمية

في

تفسير السلوك الإنساني

ظلت الدراسات النقدية، و الجمالية، تتسم ببعض القصور في فهمها للجانب النفسي، والاجتماعي الكامن في مضامين الأعمال الروائية، فضلا عن معرفتها التجزيئية بشخصية الإنسان، وبنية المجتمع التحتية و الفوقية؛ حتى تداركت قصورها باستعانتها بالعلوم الاجتماعية التي أثرت أطرها المعرفية و المنهجية، و أدواتها البحثية؛ وغدت ذات تأسيس معرفي، على الرغم مما شابها من معايب من جراء ملابسات تجارب التأسيس.

يعزى فضل إثراء الدراسات النقدية و الجمالية بالمناهج العلمية إلى علماء النفس، والاجتماع، لا إلى النقاد، لكونهم استعانوا بالأعمال الأدبية؛ لإثبات صحة فروضهم، و نتائجهم كما فعل فرويد في تحليله النفسي لبعض النصوص الروائية و المسرحية؛ للتدليل على كون الروائي، يخضع في تناوله للسلوك الإنساني لمنطق التحليل النفسي عن طريق الحدس الفني، لا المعرفة العلمية(1).

ينطلق النقد السوسيولوجي من كون النص الروائي -على سبيل المثال- بمثابة مؤسسة اجتماعية يعكس البناء الاجتماعي، و أنساق القيم الثقافية السائدة فيه. و تتمثل وظيفته في كونه وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي، فضلا عن أنه وسيلة إعلامية مرتبطة بالرأي العام، وتؤثر في الاتجاهات الاجتماعية، و أنماط التفكير، و السلوك الفردي، و الجماعي على السواء(2). و لعل استقطاب الرواية لاهتمام علماء الاجتماع ناجم عن كونها من أكثر الأنواع الأدبية تصويرا للإنسان في علاقته بالمجتمع؛ كما أنها الشكل الذي به يخاطب المجتمع نفسه؛ مما يسوّغ للمدخل السوسيولوجي أن يكون أقرب المناهج النقدية إلى طبيعة الرواية(3).

---

(1) PAMELA TY TELL: « **La plume sur le divain** » : Psychanalyse et Littérature en France . Editions Aubier Montagne. Paris . 1982. PP 63 - 64.

(2) محمد حافظ دياب: **النقد الأدبي و علم الاجتماع** مجلة "فصول"، المجلد الرابع، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، مصر، 1983 ص 63.

(3) دياب، محمد حافظ : **النقد الأدبي و علم الاجتماع**، ص 63.

هكذا؛ فقد استطاع علماء النفس، و الاجتماع وضع الإبداع الأدبي في الإطار النظري للمعرفة العلمية، و وفقا لمناهجها التي أتاحت لهم الوقوف على أسس الإبداع النفسية، والاجتماعية، و مكنتهم من رصد أنماط السلوك الإنساني، و الظواهر الثقافية و الاجتماعية التي تنطوي عليها مضامينه. و أثرى التحليل النفسي، و التحليل الاجتماعي معرفة الإنسان بذاته، و سلوكه، و دوره الاجتماعي، و موقعه في شبكة العلاقات الاجتماعية، و أفضى إلى تعميق وعي الناقد، و المبدع بالعملية الإبداعية، و آليات ممارستها، و تلقيها، و قنوات انتشارها الاجتماعية، و وضع لها مبادئ، ومناهج، و روائز، و جداول إحصائية، و رسوما بيانية، لم تأت إلغاء لدور الأدب، و لا تشكيكا في صحة معرفته بالإنسان، و المجتمع، بل لتكشف خطوط التوازي، و التقاطع بينهما، و مظاهر التكامل بين الحدس الفني، و المعرفة العلمية في تعاملهما مع ظاهرة السلوك الإنساني. و من ثمة؛ فالعلاقة بين العلوم الاجتماعية، والنقد الأدبي، و العمل الإبداعي، لا تعززها المبادئ، و لا الأطر المعرفية، بل يعززها السلوك الإنساني في حد ذاته باعتباره موضوعا مشتركا بينها معا، على الرغم من كونها مجالات معرفية مختلفة إلا أنها تسهم في إثر المعرفة الإنسانية في إطار استقلالية كل مجال معرفي بخصوصياته التي يمتاز بها على حدة.

السلوك الإنساني بين النص الروائي و البحث العلمي

إذا كان هدف البحث النفسي الاجتماعي هو الدراسة العلمية لسلوك الإنسان ككائن اجتماعي، يعيش في مجتمع، يتشكل من أفراد، يتفاعل معهم، و يتأثر بهم، و يؤثر فيهم، فهدف النص الروائي تصوير السلوك الإنساني للفرد بكل عناصره الجسمية، و الانفعالية، و العقلية، و الاجتماعية في سياق تفاعله مع محيطه الاجتماعي، سواء أكان ذلك في جماعة أسرية، أو جماعة دراسية، أو جماعة مهنية، أو غيرها من الجماعات العضوية، أو المرجعية، أو الهامشية، التي يتصل بها اتصالا طويلا، أوعرضيا..

يتوخى البحث النفسي الاجتماعي اكتشاف العوامل المؤثرة في تغيير سلوك الفرد، واستجاباته للمؤثرات الاجتماعية سواء أكانت هذه العوامل عوامل شخصية، أو عوامل المجال الاجتماعي؛ بينما النص الروائي يستعرض العوامل نفسها دون أن يدعي اكتشافها، لأن الاكتشاف ليس مهمته. و أهم أهداف البحث النفسي الاجتماعي هي فهم السلوك، و صياغة نظريات تفسره، و تمكن من التنبؤ به، و تطبيق مناهجه، و أدواته عمليا على شتى مجالات السلوك الاجتماعي بغية حل المشكلات الاجتماعية عن طريق السيطرة على ديناميات السلوك لحماية الشخصية من الانحراف

بالتخطيط العلمي الكفيل بالتحكم في المحيط الاجتماعي(1)؛ بينما غاية النص الروائي التي يطمح إليها من تصوير السلوك الإنساني هي إطلاع المجتمع عليه بغرض تغييره، أو الارتقاء به إلى مستوى القيم والمعايير السلوكية الإيجابية، فضلا عما يتغياه من تحقيق المتعة الناجمة عن تصويره.

معظم الموضوعات التي يتناولها البحث النفسي الاجتماعي هي من أهم موضوعات النص الروائي كالجماعات، و العلاقات المتبادلة بين أفرادها، و الإدمان، و الجنس، والإجرام، و إذا كان البحث النفسي الاجتماعي ينطلق من مفاهيم علم النفس، و علم الاجتماع بوصفهما علمين بالكميات شأن كل العلوم، فالنص الروائي يرتكز على المعرفة بالمفردات كسائر الفنون. و يراد بالمعرفة الكلية تناول علم النفس، و علم الاجتماع -على سبيل المثال- التكوين النفسي للإنسان بصورة تجريدية عامة نمطية بحيث ينضوي تحت هذا المفهوم أكبر عدد ممكن من الناس. و من ثمة؛ فهو يتناول فعاليات السلوك الإنساني كالإدراك، و التذكر، والعواطف، و الانفعالات المختلفة كحالات سيكولوجية مجردة، لا تنطبق على فرد بعينه، بحيث يفصل الشعور عمن شعر به، و التفكير عمن فكر به؛ لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة، و الموضوعية، و التجريد، بينما يجنح النص الروائي إلى تناول شتى مظاهر السلوك الإنساني، كما تتجسد في سلوك شخصية بعينها؛ في مواقف اجتماعية معينة لأن الفن ينطلق من كون العواطف، و الذكريات، و الثقافة لا وجود تجريدي لها خارج النشاط الجسمي، والانفعالي، و العقلي، و الاجتماعي لفرد، أو مجموعة من الأفراد؛ في موقف اجتماعي له أبعاده الزمانية، و المكانية (2).

قد يستفيد النص الروائي من المعرفة العلمية بالعلوم الاجتماعية في تصوير الشخصيات الروائية، و تفسير أنماط سلوكها، و أشكال تفاعلها الإنساني في سياق شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة، و تكون المعرفة العلمية إثراء للعملية الإبداعية، و ليست قيدا يعوقها عن حرية الإبداع لكون العملية الإبداعية لا تخضع لمقتضيات المنهج العلمي .

إذا كانت المدرسة السلوكية، تتبنى في تفسيرها للسلوك الإنساني المبادئ الثلاثة مبدأ السببية، و مبدأ العلية، و مبدأ الهدف باعتبارها أسسا لتفسيره و فهمه ، فإن الفرويدية اتخذت اتجاها آخر، يتمثل في اعتبار طاقة الليبدو هي المحرك الأساس لكل سلوك إنساني، أما النص الروائي قد يتبنى أحد هذه المبادئ الأساسية للسلوكية، أو الفرويدية عن حدس فني، أو معرفة علمية، دون أن يكشف عن اتجاهه المعرفي، بل يستشف على ضوء الومضات الروائية، وتصوير الشخصيات، و تحليل بنائها النفسي، و العقلي معا.

---

(1) حامد عبد السلام زهران: **علم النفس الاجتماعي**. عالم الكتب، مصر 1984، ص5، 8، 9.

(2) عثمان بدري : **بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ،** ط1، دار الحداثة ،بيروت ،1986،ص20

تعتمد العلوم الاجتماعية في تناولها للسلوك الإنساني على المنهج العلمي بعناصره المتمثلـــة في الملاحظة، و الفرضية، و التجربة، و النظرية، بينما يقوم التناول الروائي على خبرة الكـــاتب الذاتيـــة بالناس و الحياة، و من ثمة؛ فهو يرصد السلوك الإنساني كما ينعكس على وجدانه، و يدركه بفكـــره، و يعيد استدعاءه بذاكرته، و يشكله بخياله، و يفسره بحدسه الفني، واستبطانه الذاتي، أو على ضـــوء اتجاهه المعرفي، أو التصورات السائدة في بعض الفئات الاجتماعية، أو المستمدة من الـــتراث الشـــعبي لمجتمعه، إذ يمكنه –على سبيل المثال– تصوير علاقة رجل يتسم بالاتزان الانفعالي بامرأة متقلبة المـــزاج من أجل تأكيد التصور السائد في مجتمعه الذي يدمغ سلوك المرأة بالتقلب، و الغموض، بينما يقتضـــي الطرح العلمي من الباحث الالتزام بإجراء التجربة لإثبات صحة فروضه، حيـــث يســـتوجب منـــه إخضاع مجموعات من النساء، و الرجال لمواقف مثيرة للتقلب الوجداني ليكون بمقدوره الانتـــهاء إلى نتائج سليمة بشأن حقيقة تقلب المرأة الوجداني، أو بطلانه؛ بعد فحص هذه العينات، و المقارنة بينها، ومعاودة التجربة مرارا[1]. أما الروائي؛ فليس ملزما بإجراء التجارب نفسها، بل يضطلـــع بـــالتصوير الروائي لمظاهر التقلب الوجداني، كما يظهر في المواقف الاجتماعية التي يستعرضها سير الأحـــداث في النص الروائي متوخيا التأثير الوجداني دون أن يهتم بامتحان أفكاره لأنه لا ينشد بلوغ الحقيقة العلمية بقدر ما يهتم بالتعبير عن التجربة الإنسانية كما يدركها بصدق وجداني، وفني معا.

كما أن التناول الروائي للسلوك الإنساني يمكن أن يربط بين فقر المرأة الجميلة وانحرافها؛ على سبيل المثال؛ لا سيما و أن هذه الظاهرة الاجتماعية من أبرز الموضوعات الـــتي شـــاعت في بعـــض الروايات الرومانسية و الواقعية، خلال القرن التاسع عشر في أوروبا، و على الرغم من كـــون هـــذا الطرح الأدبي؛ قد لا يخلو من واقعية، إلا أنه لا يرقى إلى مستوى تأكيد اقتران جمال المرأة، و فقرهـــا بأسباب انحرافها السلوكي، بينما يمكن للبحث النفسي، والاجتماعي أن يقرر ارتباط البغـــاء بمـــرض السيكوباتية، أو اختلال بناء الشخصية، أو التطلع البرجوازي، أو اختلال أنســـاق القيـــم الثقافيـــة، والاجتماعية الموجهة للسلوك، أو نتيجة التفاعل الاجتماعي مـــع الجماعـــات الســـلبية الهامشـــية، و ما شاكل ذلك من عوامل مختلفة.

يتسم التناول الروائي للسلوك الإنساني بالمرونة مما يجعله يجنح إلى التناقض أحيانا، و يتمثـــل ذلك في تفسيره السلوك، و نقيضه بالسبب نفسه، إذ قد يصور النص الروائي أربع شخصيات تعـــاني من الكبت الجنسي، حيث يدفع الحرمان الجنسي الشخصية الروائية الأولى إلى الإقبال علـــى الجنـــس الآخر بصورة دونجوانية، أما الشخصية الثانية، فتنفر منه في هوس ديني طهراني، أما الشخصية الثالثـــة

[1] محمد فرغلي فراج: **السلوك الإنساني نظرة علمية**، دار المعرفة الجامعية. مصر ، ص 34– 35.

فتجنح إلى الإدمان على الخمر، و المخدرات، و أعمال العنف اللفظي، و الجسدي، أما الشخصية الرابعة فتمارس الفن أو الرياضة أو السياسة. وهكذا يعرض التناول الروائي الأنماط السلوكية الأربعة دون تبرير تفضيلاتها الاجتماعية، و من ثمة تحمله مرونة رؤيته للسلوك على عدم مراعاة العوامل الكامنة وراءه، أو القيم الثقافية الموجهة له، مما يدمغ سلوك شخصياته الروائية بالغرابة، و الغموض أحيانا. أما البحث النفسي والاجتماعي، فيعتمد البرهان العلمي القائم على التجارب المتكررة، والمنظمة بهدف تفسير أشكال السلوك، و صياغة النظريات العامة المتعلقة به.

يركز البحث النفسي الاجتماعي على نسق متكامل من المفاهيم، و المصطلحات العلمية، التي تبرز السمات العامة للسلوك كالانطواء، و الانبساط، و العصبية، و الاتزان الانفعالي، و الفعالية والسلبية، و السواء و الانحراف، و التفاعل الاجتماعي، و ديناميات الجماعة، و التفاعل الرمزي، ويراد بذلك تفسير السلوك و تصنيفه، و دراسته.

أما النص الروائي؛ فيخرق هذه التصنيفات النظرية الدقيقة، و يرصد الشخصية الروائية مع محيطها الاجتماعي، و قد جمعت بين هذه السمات النفسية و السلوكية بعضها، أو كلها بحكم عدم انطباق هذه التصنيفات على أنماط التكوين النفسي انطباقا تاما، و يتمثل ذلك في جنوح الفرد إلى الانطواء في مواقف اجتماعية معينة، و نزوعه إلى الانبساط في مواقف أخرى، و خضوعه للاتجاهات النفسية السائدة في جماعة مرجعية دون غيرها من الجماعات التي ينتمي إليها معا، و هكذا دواليك.

يصدر البحث النفسي الاجتماعي في دراسته للسلوك الإنساني عن مدارس علمية شتى، كالمدرسة الفرويدية، أو السلوكية، أو الفيزيولوجية، أو الأنتربولوجية أو الداروينية، الاجتماعية شأن التناول الروائي في صدروه عن مدارس أدبية معينة، لها أسسها المعرفية كالرومانسية التي تحتفي بالجانب الوجداني و أثره على السلوك، و الواقعية النقدية، و عنايتها بالتناقضات الاجتماعية وانعكاسها على السلوك، و الواقعية الاشتراكية و رصدها للصراع الاجتماعي كأبرز محددات السلوك و الواقعية الطبيعية، و اهتمامها بالعناصر البيئية والوراثية، و أثرهما في تشكيل السلوك. و الواقعية الوجودية، و تركيزها على وجود الإنسان باعتباره صانع وعيه، و وعيه ناجم عن حريته، ومسئوليته، و قدرته على صنع وجوده الإنساني.

لا يتطلب من النص الروائي الالتزام الصارم بالقيم الجمالية و الفكرية لمدرسة معينة يستمد منها طريقة تصويره للشخصيات الروائية، إذ هو في حلّ من ذلك كله، حيث قد يبرز انتماءه الفكري لمدرسة أدبية، و قد يوّفق بين اتجاهين و أكثر، لا سيما في ظل التداخل الذي انصهرت من جرائه

معظم الاتجاهات الأدبية، فيما بينها، و بات من التعسف و الإفتئات التصنيف الدقيق للأعمال الروائية، لكونها تمتاح من شتى المشارب، و تعيد إنتاجها، أو الإضافة إليها.

أما البحث النفسي الاجتماعي، فيستوجب منه مبدئيا؛ تحديد الإطار المعرفي والمنهجي، والأدوات البحثية، و الموضوع حتى يقوم على أسس علمية دقيقة بحيث لا تختلط الأطر المعرفية والمناهج، لأن دقة المنهج من دقة النتائج التي ينتهي إليها .

إذا كان البحث النفسي الاجتماعي يتناول أنماطا سلوكية واقعية بالملاحظة والتصنيف، والوصف، و التفسير، فالنص الروائي يتعامل بالطرق نفسها مع السلوك الواقعي، و الممكن الوقوع، والخيالي، و الرمزي باعتباره حاملا لقضية تعلو عليه، و لا تتجسد فيه، مما يتيح له تشكيله وفق عنصر الإيهام بواقعيته.

يستخدم البحث النفسي الاجتماعي لغة علمية دقيقة ذات مصطلحات، و مفاهيم تحقق العلم بالشيء بغية الدراسة، و التشخيص، و العلاج بينما يجنح النص الروائي إلى تصوير السلوك الإنساني بلغة موحية، و رمزية، و مكثفة، و مباشرة أحيانا.

الاتجاهات الكلاسيكية في تفسير السلوك الإنساني

تعددت النظريات الفلسفية التي حاولت تفسير طبيعة السلوك الإنساني منذ العصر اليوناني حتى عهدنا الحالي، و لعل اختلافها يعكس اختلاف مراحل تطور الفكر الإنساني، وطبيعة تعقيد ظاهرة السلوك في حد ذاتها.

أ-نظرية الأخلاط (الطباع)

هي اقدم النظريات الفلسفية التي قال بها الحكيم اليوناني أبو قراط (366 - 460 ق.م) وترى أن هناك علاقة بين الآداء الجسمي، و المزاج الانفعالي، و يتحدد بالتالي نمط الشخصية تبعا لسيادة الاخلاط الأربعة (الإفرازات الجسمية) و هي : الدم، والبلغم، و الصفراء، و السوداء[1]. و إذا طغت الإفرازات الدموية، نتج عنها النمط الدموي، الذي يتسم بالنشاط، و الحيوية، و المرح، وتقلب الأهواء. و إذا طغت الإفرازات البلغمية، كان صاحبها ذا نمط بلغمي، كسول، جامد، سلبي .أما

(1) أحمد عبد السلام زهران: **علم النفس الاجتماعي**، ص 14.

النمط الصفراوي، فهو انفعالي، عصبي، قلق، عدواني. أما النمط السوداوي، فيظهر مزاجه في اكتئابه، و انطوائه، وتشاؤمه[1].

طوّر هذه النظرية علماء الطباع في مطالع القرن العشرين، و صنفوا الناس إلى سبعة طباع مختلفة، هي العصبي، و العاطفي، و الغضبي، و الجموح، و الدموي، و اللمفاوي، الهلامي، أو الخلمل. و هم يختلفون في فعاليتهم الانفعالية، و ردود أفعالهم اتجاه المؤثرات الخارجية.

هكذا يتبين لنا أن علم الطباع يهدف إلى اكتشاف الأفراد، و يبني تصورات ذهنية حول سلوكهم ، و يزوّدنا بالنماذج العامة للشخصيات تمهيدا للتعرف عليها، دون أن يدّعي معرفته الحقة بها، لأن تلك النماذج بكل سماتها، هي مجرد وسيط يراد به تسهيل التعامل مع الناس، و السيطرة على عوائق الاتصال الإنساني الفعال. و لم يقتصر علم الطباع على وصف السمات الانفعالية، والسلوكية، بل صنف الطباع حسب بعض الملامح الجسمية، كشكل الوجه، و القوام، و الوزن، و الطول، وماشاكل ذلك. و نظر بالتالي إلى الأفراد بكل أخلاقهم، وأمزجتهم، و انحرافاتهم باعتبارها نتاج طباعهم التي جبلوا عليها جبلة فطرية، لا علاقة لها بالبناء الاجتماعي، و الأنساق الثقافية، و الشروط التاريخية، و الأبعاد الحضارية، والخصائص القومية، و قد سادت هذه النظرية طيلة سبعة عشر قرنا من الزمان حتى حل محلها ما أبطل أثرها من نظريات تتعلق بأنماط الشخصية و السلوك.

ب-اتجاه اللذة و الألم

تعد هذه النظرية من أول النظريات التي حاولت التطرق إلى الطبيعة البشرية والقوى المتحكمة في السلوك الإنساني في سوائه، و انحرافه، و قد دعا إليها الفيلسوف الإنجليزي جيرمي بنتام (1784 - 1832) حيث رأى أن القوة الأساسية التي تدفع سلوك الإنسان هي الرغبة في تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة النفسية و المادية، و تجنب كل أنواع الألم؛ دون اعتبارات أخرى كالقيم الاجتماعية، و الثقافية، مما يدلل على كونه يعتبر السلوك تجسيدا للإرادة الحرة المطلقة على نقيض الاعتقاد السائد عهدئذ في كون السلوك خاضعا للحتمية القدرية[2].

---

[1] سامي الدروبي: **علم النفس و الأدب**، دار المعارف بمصر، 1971، ص 220.

[2] سمير نعيم أحمد: **الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي**، مطبعة دار التأليف، مصر، 1969، ص87

جـ-الطبيعة البشرية

تعرض لمسألة الطبيعة البشرية؛ فيلسوفان ذهبا في بيان جوهرها مذهبين مختلفين تماما، هما "توماس هوبز" و "جان جاك روسو". فأما أولهما؛ فقد رأى أن السلوك الإنساني، هو نتاج الطبيعة البشرية القائمة على النزعة الحيوانية و الأنانية، و الحاجات الجسمية الغريزية التي تتحكم في سلوكه اتجاه ذاته، و غيره. و تحمله على بناء مؤسسات المجتمع؛ لأنه لا يستطيع إشباع غرائزه إلا في ظل تنظيم اجتماعي، يقوم بحماية كيانه، و مصالحه مما يتهددها من أخطار اجتماعية أو بيئية.

هكذا يبدو هذا المنظور الفكري للطبيعة البشرية قاتما، سلبيا، لكونه يراها شريرة، عدوانية؛ ما دامت دينامية سلوكه قوامها الغرائز العدوانية البدائية التي تتوخى قهر الآخرين، و استغلالهم، والقضاء عليهم تحقيقا للمبدأ الأساس الذي تقوم عليه نظريته، و هو أن الإنسان عدو لأخيه الإنسان. و قد أسهمت بعض العوامل السياسية و الاجتماعية، و الدينية في صياغة منظوره للطبيعة البشرية، منها انتماؤه للبلاط الملكي، مما جعل نظريته المعرفية تبريرا إيديولوجيا للنظام السياسي القائم، الذي كان يواجه الفتن الدينية، و التناحر العرقي.و هي في نظره لا تعدو كونها نتاج الطبيعة البشرية الشريرة؛ التي تستوجب سلطة قاهرة كفيلة بقمع دوافع الانحراف، و إشاعة الاستقرار، و الأمن في المجتمع. وكان للقيم الدينية المسيحية دورها الفعال في بلورة منظوره بحكم كونها ترى الإنسان آثما بطبعه، ولا خلاص له من مصيره المأساوي إلا بالرضوخ لسلطة الكنيسة مانحة الصفح، و الغفران [1].

أما جان جاك روسو، فقد دحض هذه النظرية لكونها تكرس الأنظمة الاجتماعية والسياسية السائدة، و لا تدعو إلى تغييرها، لأنها امتداد طبيعي للقيم الدينية و الثقافية السائدة عهدئذ. و اعتبر الطبيعة البشرية خيرة، مسالمة، بريئة، لكن النظم الاجتماعية الفاسدة، هي التي جردتها من عناصر الخير الكامنة فيها، و زودتها بعناصر الشر الدخيلة عليها. و من ثمة فلو ترك الإنسان للطبيعة لنماانموا سليما، و غدا بالتالي خيرا. و لذلك يبدو السلوك الإنساني في نظره محكوما بدوافع داخلية، تحدوه للسلوك الاجتماعي الإيجابي، الذي يتبنى قيم الحب، والخير، و التعاون، بينما تدفعه العوامل الخارجية إلى السلوك السلبي القائم على الأنانية، والعدوان.

على الرغم من الطابع المثالي لهذه النظرية، إلا أنها تنطوي على الاعتقاد بمرونة الطبيعة البشرية، و قابليتها للتكيف مع الواقع الاجتماعي، فضلا عن إقرارها بأهمية التنشئة الاجتماعية في

---

(1) نجيب إبراهيم إسكندر و آخرون : **الدراسة العلمية للسلوك الإجتماعي**، مؤسسة المطبوعات الحديثة، مصر 1961،ص 2.3

صياغة الشخصية، و السلوك الإنساني وفق أنماط معينة. و تبدو بمثابة بيان دفاع عن الذات، و تبرير لا شعوري للآثام التي بدرت من روسو منذ إيداعه في الكنيسة، وما كابده فيها من تجارب أليمة، فضلا عن معاشرته الجنسية لمربيته، و تخليه عن أبنائه الأربعة، و إيداعه إياهم في ملاجئ الأيتام. و من ثمة؛ فهو بقوله بالطبيعة البشرية الخيّرة يمجد ذاته، وينفي عنها الشعور بالذنب، و العار، و الاستهجان الاجتماعي، و يسقط صورة ذاته الآثمة على المجتمع، باعتباره مصدر الشرور، و الانحراف، و الإجرام.

الاتجاهات الحديثة في تفسير السلوك الإنساني

أ-التفسير البيولوجي: (قانون النشوء و الارتقاء)

كان ظهور كتاب "أصل الأنواع" لتشار لزداروين(1809 -1882) بمثابة تأسيس لنظرية معرفية في السلوك الإنساني، قوامها التطور البيولوجي، الخاضع لقانون النشوء والارتقاء، الذي حلول تفسير أصل الإنسان، و مراحل تطوره المعقدة التي توجت ببلوغه المستوى العضوي الذي انتهى إليه، و اعتبر داروين أنه من المتعذر فهم السلوك الإنساني، إلا بإجراء مقارنة بينه و بين سلوك الحيوانات الثديية الأخرى؛ بحكم تجانس الغرائز بين الإنسان و الحيوان؛ كغريزة المحافظة على الذات، و الحب الجنسي، و حب الأم لذريتها، و غريزة مص ثدي الأم، و غريزة العدوان ..الخ..

هكذا فسر داروين سلوك الإنسان على أساس الغرائز القائمة على الاتصال التطوري في المملكة الحيوانية، و أن أنماط السلوك الإنساني، هي امتداد لأنماط السلوك الحيواني، و"أصبح ينظر إلى الأخلاق مثلا على أنها أنماط سلوكية بدلا من كونها قيما اجتماعية، كما صار التغير، أو النمو في القيم الخلقية، يفسر على أنه وسيلة تساعد الإنسان فعلا في صراعه في سبيل البقاء[1]".

ظهرت الداروينية الاجتماعية بعدئذ، و قوامها التوفيق بين المفاهيم البيولوجية التطورية، ومفاهيم علم الاجتماع، و تناولت آليات السلوك الإنساني، و دوافعه، التي تتمثل في الصراع من أجل البقاء، و التطور القائم على الانتقاء الطبيعي، و غدا السلوك الإنساني دينامية بيولوجية اجتماعية قابلة للتغير، و التطور شأن الظواهر الإجتماعية نفسها. و ترى الداروينية الاجتماعية أن حركات الصراع الإنساني؛ هي القوة الاجتماعية المتحكمة في سلوك الإنسان، و تاريخه على السواء، و هما نوعان من الصراع، أحدهما هو الصراع الخارجي بين الشعوب، و الآخر هو الصراع الداخلي بين الغالبين والمغلوبين سواء أكانوا أفرادا، أم جماعات، و يتكيف هذا الصراع عند اشتراك أطراف

---

[1] نجيب ابراهيم اسكندر و آخرون : **المرجع السابق** ،ص 10.

الصراع في المصالح، و غاية الصراع تحقيق المصالح التي تنجم عن تعارضها اشتداد وتيرته، و يستمد قوته من الأنانية، و النزعة العدوانية [1].

ب–قانون الوراثة في السلوك الإنساني

دعا سيزار لومبروزو (1835 - 1909) إلى اتجاه بيولوجي؛ قوامه قانون الوراثة، وأثرها على الخصائص الجسمية، و أنماط السلوك الإجرامي، و الأمراض و الجنون، و ربط بالتالي بين الأنماط الجسمية، و السمات العقلية، و المزاجية، و السلوكية.

و فسرت هذه النظرية المعرفية سلوك الانطواء، و الانبساط، و النشاط، و الخمول، والذكاء والبلادة، و السواء، و الانحراف على ضوء البنية الجسمية المتمثلة في البدانة والنحافة، و الطول والقصر، و بنية الوجه، و الجمجمة، وماشاكل ذلك من سمات جسمية باطنية كالغدد الصماء، وصبغيات الوراثة باعتبارها من العوامل المؤثرة في بناء الشخصية، و أشكال تفاعلها مع محيطها البيئي، و الاجتماعي معا.

ذهبت نظرية الوراثة إلى القول بأن قوانين الوراثة البيولوجية؛ هي التي تحدد الفروق الفردية بين الناس سواء أكانت جسمية، أم عقلية، أو سلوكية. بحكم الفروق الكامنة في استعداداتهم الطبيعية، التي زودتهم الوراثة بها، و لم تكن نظرية الوراثة مجرد فرضية علمية قائمة على الملاحظة، إنما هي محصلة سلسلة طويلة من الملاحظات، و التجارب، التي أجراها الباحثون في شتى مجالات البحث المتعلقة بمظاهر الوراثة؛ مما جعلها تصمد أمام النقد، رغم ما وصمت به من معايب، بحكم تأسيسها النظري، و المنهجي، و الأمبريقي على حد سواء.

جـ–نظرية الغرائز

صاغ وليم ماكدوجل (1908) نظرية الغرائز لبيان الأسس الأولى التي تحكم السلوك الإنساني، و كان يتوخى الكشف عن الرغبات الكامنة وراء أنماط السلوك، و الغايات التي يستهدف بلوغها أيضا. و حمله اعتقاده باشتراك الإنسان، و الحيوان في الرغبات، و الغرائز على إجراء تجاربه الميدانية على سلوك الحيوان للوقوف على غرائز الإنسان، باعتبارها امتدادا طبيعيا لغرائز الحيوان [2].

---

[1] السيد محمد بدوي: **التطور في الحياة و في المجتمع**، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية ، 1988، ص179

[2] نجيب إبراهيم إسكندر :**الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي**،ص 16- 17.

يبدو تأثره بالنظرية الداروينية واضحا في سياق مقارنته بين غرائز الحيوان والإنسان مما جعلـه يصنف غرائز الإنسان إلى اثنتي عشر غريزة هي:

1-البحث عن الطعام عند الجوع .

2-التقزز عند النفور من أشياء معينة

3-الرغبة في الاستطلاع عند الإقبال على أشياء معينة.

4-الهرب بسبب الخوف

5-المقاتلة عند الغضب.

6-الحب و الإعجاب عند الرغبة الجنسية.

7- الحب و الحنو و الرعاية بسبب غريزة الأبوة و الأمومة.

8-التجمع و هي نتيجة الغريزة القطيعية.

9-السيطرة و هي الرغبة في تأكيد الذات اتجاه الآخرين.

10-الخنوع و هو قبول الرضوخ للآخرين.

11-اقتناء الأشياء و حفظها بسبب غريزة التملك.

12-التعب بسبب غريزة النوم [1]

هكذا يربط وليم مكدوجل بين الدوافع الغريزية، و الانفعالات المصاحبة لها، و يكون السلوك الإنساني بالتالي مجرد استجابات انفعالية لفعاليات غريزية، تتحكم في السلوك الاجتماعي، والعاطفي، و الإجرامي، و سائر ضروب النشاط الإنساني، التي تتوخى نشدان أهداف معينة، مما يجعل الغرائز بمثابة محركات أساسية للسلوك "كله سواء أكان هذا بطريق مباشر، أو غير مباشر، فالغرائز تحدد الغاية من كافة ألوان النشاط، و هي التي تعطي الطاقة الدافعة للسلوك ...و ليس الجهاز العقلي المعقد لأكثر العقول نموا إلا الأداة التي تفضي بتلك النزاعات إلى تحقيق إشباعها [2]".

يرى بعض الدارسين أن نظرية الغرائز، هي بمثابة تأسيس لنظرية في السلوك الإنساني باعتباره نشاطا غرضيا، يخلو من العبث، و الاعتباط لأنه ذو معنى، و قصد معين على خلاف الاعتقاد السائد عهدئذ.

---

[1] روبرت و دورث : **مدارس علم النفس المتعاصرة**، ترجمة كمال دسوقي، دار النهضة العربية، بيروت ص 290.

[2] نجيب إبراهيم إسكندر: **الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي**، ص 19.

أ- سيكولوجيا الاستبطان أو علم النفس الوجودي

ساد هذا الاتجاه النفسي خلال القرن التاسع عشر، و من رواده الأول فونت، و ماخ، واقينا ريوس (1843 - 1896) و هو يقوم على التأمل الباطني في سلوك الفرد كما ينعكس على ذات شخص آخر، لأن الاستبطان هو الملاحظة الذاتية للآخر في شتى المواقف، واتجاه المؤثرات الخارجية، التي تؤثر فيه؛ لكون الملاحظة الذاتية لا تختلف جوهريا عن الموضوعية، و من ثمة؛ فالذات المتأملة هي المعول عليها في الوقوف على الخبرة الشعورية الخاضعة للبحث.

لم يستمد علماء النفس هذا الاتجاه المعرفي من الفلسفة، بل من الفيزياء، والفيزيولوجيا، التي تدرس استجابات الحواس للألوان، و الأصوات، حيث تجرى التجارب على بعض الأفراد، و هم يتلقون أصواتا، و تعرض عليهم ألوان، و يطلب منهم تسجيل التأثير الذي وقع لهم، و هذا الضرب من المنهج الذاتي للحصول على هذه الحقائق يمكن أن يسمى طريقة التأثر، و هو ذاتي لأن الشخص الذي يقع عليه، أو فيه التأثير يلاحظه، و يسجله، و في العادة كان الفيزيولوجي يجرب على نفسه أولا، فيجرى تنبيها معينا على أحد أعضاء جسمه، و يدوّن التأثير الذي لقي. و لكي يتحقق من ملاحظاته كان له أشخاص آخرون يقومون بنفس التجربة كموضوعات، فإذا سجل كل واحد عين التأثير عن نفس المنبه، قبل الأمر على أنه حقيقة قائمة [1] .

من ثمة، فعلم النفس الوجودي؛ يعني بالخبرة الشعورية التي يعيشها الفرد، و طالما أنه من المتعذر الوقوف عليها بالمناهج الموضوعية، فلا بد من استخدام الاستبطان، و قوامه توفير الظروف المناسبة لمعاودة التجربة عددا كافيا من المرات بحيث يمكن إجراء تشخيص دقيق للظواهر موضوع البحث، و ذلك شرط أساسي، لأن ما يستبطن في الواقع هو الخبرة الشعورية في حد ذاتها.

يرى علم النفس الوجودي أن السلوك الإنساني يستند على بعض الأسس المستمدة من مفاهيم الفلسفة الوجودية نفسها المتمثلة في الركائز الآتية: أن الإنسان قطب الوجود، و ذاتيته هي المرآة العاكسة لما في هذا الوجود، كما أن الأمراض التي يعاني منها لا وجود لها خارج ذاته، و هو حر لا تقيد حريته قيود، كما أنه واع بوجوده، مدرك لكونه مهددا بالموت والعدم، وأن القلق والخوف، و الاشمئزاز هي نتيجة وعيه بالفناء، أو بوجوده المجرد من المعني والغائية. فضلا عن كونه

[1] روبرت و دوروث: **مدارس علم النفس المتعاصرة**، ص 71 - 72.

يرزح تحت شعور حاد بالذنب من جراء إحباطه، و عجزه عن تحقيق تطلعاتـــــه، و تـــأكيد ذاتـــه، ووجوده. أما قلقه، فهو سر فضوله العلمي، و بحثه في ذاته، ووجوده، ومصيره، و هكذا يغدو انفعالــه من مظاهر وجوده التي يعيشها، و أسلوب حياته؛ مما يجعل منه شكلا من أشكال وجوده الإنســـاني، ودلالة سلوكه الواعي في ظاهريته، و واقعيته معا [1].

يرى علم النفس الوجودي أن أمراض الإنسان النفسية؛ لا تعدو كونها ظاهرة وجوديــــة، لا تلائم حياته، و عصره، تمخضت عن إملاء وجوده عليه أشياء، و حوادث، لا يمكنه تحقيقها، مما يجعلـه يشعر بالإخفاق، و العجز عن تحقيق وجوده، و يضفي على اتصاله بالواقع اضطرابـــا مدلــــلا علــى وجوده المخفق.

هكذا يغدو المرض مجرد ظاهرة وجودية، يعيشها الفرد، و ليس اضطرابا في عقله ووجدانـــه، ولذلك يتعامل المحلل النفسي الوجودي مع أقوال مريضه كحقيقة قائمة بذاتها، و لا يخضعها للتــأويل، و التفسير بإحالتها إلى أصول أخرى كما تفعل مدارس التحليل النفسي المختلفة. كما يـــــرى علـــم النفس الوجودي أن المشاركة الوجدانية هي " أنجع السبل لمشاركة المريض، و فهم شعوره الــذاتي، أي أن يضع المعالج النفسي ذاته محل مريضه[2].

هكذا؛ فقد ربط علم النفس الوجودي كل الحالات الشعورية بأشكال الوجـــود المختلفـــة، فالوجود مع الآخر هو أساس الحب، و الاكتئاب النفسي شعور بتوقف الزمن، و الملل نتيجة توقـــف الوجود عن مدنا بالإشباع النفسي و المادي، و السرور إقبال على الوجود الواعد بالإشباع والإمتاع، و الشعور بالغيرة نتيجة إدراك الآخر كمنافس في الوجود، و الشعور بالوحشة نتـــاج الوجـــود دون الآخر المحبوب ...

من ثمة يغدو أسلوب الوجود هو الذي يحدد الحالة الشعورية للفرد، لكـــن هـــذه الظـــاهرة الشعورية، ليست سلبية، تابعة لأشكال الوجود فحسب، بل هي أصل الوجود، و القوة المشكلة لـــه، بحكم إقرار علم النفس الوجودي بحرية الإنسان، و إرادته، و مسئوليته، التي تنيط به دورا فعــــالا في صياغة موقفه من ذاته، و وجوده، و تاريخه؛ باعتباره طرفا هاما في سيرورته.

---

[1] فخرى الدباغ: **علم النفس الوجودي** مجلة "الفكر المعاصر"، العدد20، أكتوبر 1966، مصر، ص 56.

[2] م.ن: ص 58.

ب- التحليل النفسي الفرويدي

شرع سيجموند فرويد في إجراء أبحاثه على مرضاه (عام 1895) و استخلص أن الإنسان يولد مزودا بطاقة نفسية، سماها "الليبدو" التي هي المحرك الأساس للسلوك الإنساني، و هو المستوى اللاشعوري للشخصية، الذي ينطوي على الرغبات، و الغرائز البدائية، التي تكبتها الضغوط الاجتماعية بحكم تعارضها، و قيم المجتمع، و أخلاقياته، و آدابه العامة. وينجم عن احتكاك الإنسان بالآخرين تطهير جزء من "الهو"، حيث تحل فيه القيم و المعايير الأخلاقية، و يطلق على هذا الجزء الأنا، و هو المستوى الشعوري الواعي من الشخصية الذي يتيح القدرة على التعامل مع المحيط الاجتماعي، و يتعرض الأنا لضغوط الحياة الاجتماعية من ناحية، و لضغوط الغرائز البدائية من ناحية أخرى، إذ يضطلع الآباء و المشرفون على تربية الطفل بتزويده بالقيم الاجتماعية المقبولة، و نهيه عن القيم المستهجنة، و عقابه على انحرافه، و إثابته على سوائه، و تمتص الأنا هذه التوجيهات الأخلاقية، مما يفضي إلى تكوين جزء ثالث هو الأنا الأعلى بطريق لا شعوري بطبيعة الحال [1].

يفسر فرويد الانحرافات السلوكية، و العقد النفسية، باعتبارها نتاج خبرات مؤلمة، وصدمات نفسية، تصيب الفرد، لا يقوى أناه على تحملها، فيقوم اللاشعور بكبتها، لكنها تظل تمارس أثرها في سلوكه بصورة لا يعيها، مما يسوقه إلى الانحراف، و الشذوذ المتمثل في الوساوس، و المخاوف المرضية.

هكذا تغدو أحلام الفرد، و فلتات لسانه، و نزواته، و أخطاؤه غير المقصودة بمثابة أعراض نفسية، تنم عما ينطوي عليه اللاشعور من خبرات نفسية، مما يدلل على خضوع سلوك الإنسان للحتمية النفسية، كما يعزو فرويد جذور الاضطرابات النفسية إلى مرحلة الطفولة الأولى، حيث يكون خاضعا إلى هيمنة السلطة الأبوية بحكم أهمية علاقته بأبويه في هذه المرحلة، لا سيما علاقته الأوديبية بأمه، و أبيه التي تحمله على تقمص دور الوالد، الذي هو من جنسه، و يحب الوالده من الجنس الآخر، إذ يحب الولد أمه، و البنت أباها، و يصبح الموقف الأوديبي مدعاة للتنافس بين الطفل، و الوالد من الجنس نفسه، و يشكل حب الطفل للوالد من الجنس الآخر النواة الانفعالية المركزية الأولى لحبه للجنس الآخر في الكبر[2].

---

[1] ج .ل. فلوجل: **علم النفس في مائة عام**، ترجمة لطفي فطيم، ط4، دار الطليعة، بيروت، 1988، ص 197.

[2] م.ن : ص 196.

قسم فرويد تطور الحياة النفسية عند الإنسان إلى ثلاث مراحل تبدأ بالمرحلة الفمية التي تتمثل في استمتاع الطفل بأحاسيس جنسية عن طريق رضاعته ثدي أمه، و بعد فطامه تبدأ المرحلة الشرجية التي تجعله يستمتع بأحاسيس جنسية عن طريق طرح فضلاته، و العبث بها.و تبدأ المرحلة التناسلية القضيبية ببلوغه سن المراهقة حيث تنبع الأحاسيس الجنسية من أعضائه التناسلية، و تدفعه إلى الاتجاه نحو الجنس الآخر، أو نحو الاستنماء، أو أحلام اليقظة الجنسية.

هكذا يتكشف أن نظرية التحليل النفسي، ترتكز على أساس غريزي، حيث جمع فرويد الغرائز الأولية كلها ضمن الغريزة الجنسية، ولكنه ما لبث أن أجرى تعديلا، و تنقيحا على نظريته في مرحلة متأخرة، تمثل في اعتباره الحياة النفسية قوامها غريزتين، هما غريزة الحياة، و غريزة الموت، إذ تحدو غريزة الحياة سلوك الإنسان إلى ممارسة الحب، و الإبداع، و الإنتاج، بينما تدفعه غريزة الموت إلى الكراهية، و العدوان، و الحرب، و الإجرام، والتعصب.

ترتكز نظرية التحليل النفسي على مرحلة الطفولة الأولى، لا سيما على علاقة الطفل بأمه باعتبارها المهاد الذي يشكل سمات نفسيته لأن أنماط سلوك الأم في تعاملها مع ابنها، وطريقة إشباعها لحاجاته النفسية و الجسمية، و أسلوب ترويضها لدوافعه الغريزية، تكشف الجذور النفسية المكونة لسلوكه الإنساني إذ "أن تربية الطفل على أن يتوافق في سلوكه مع مبدإ الواقع تبدأ غالبا منذ الولادة[1]."، و "تعديل الغرائز، و النمو الانفعالي الملاحق لها إنما يتأثران إلى مدى بعيد بالوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل"[2].

يبدو أن تعديل الدوافع الغريزية من أهم عوامل اكتساب السلوك الإنساني للطابع الاجتماعي " و يكمن العامل الفعال في حدوث تعديل الدوافع الغريزية في علاقة الطفل الوجدانية بأمه[3]" لا سيما و أن "الرغبة في دوام حب الأم و عطفها، و الخوف من ضياع هذا الحب، هو الدافع في تعديل الطفل لسلوكه، و تعويده النظام في بدء حياته[4]"، في الوقت الذي لا يستطيع فيه فهم معنى السلوك الاجتماعي بحكم عدم اكتمال نضجه، و غلبة دوافعه الغريزية.

---

(1) كمال الدين عبد الحميد نايل: **الغرضية في السلوك الإنساني**، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958، ص153 ، 154.

(2) م.ن : ص 154.

(3) م.ن: ص 163.

(4) م.ن: ص 163 .

يكون لطرق التربية المتعلقة بعادات الرضاعة، و الفطام، و النظافة، و طرح الفضلات، وعلاقته بأبويه أثر بالغ العمق في بناء شخصيته، و أنماط سلوكه، و علاقته بذاته، و الآخرين.

يبدو أن التحليل النفسي قد كشف عن الجانب اللاشعوري في حياة الإنسان النفسية، وتجلياته في سلوكه الاجتماعي، و ربط بين ماضيه، و حاضره، و مستقبله، و دحض بالتالي المقولات، و المفاهيم التي سادت عصر النزعة العقلية؛ التي كانت تقتصر على دراسة الشعور، و الحالات الشعورية؛ فحسب .

كان فرويد ممن قالوا بوجوب تطبيق قانون السببية في تفسير السلوك الإنساني، ودراسته باعتبار أن كل ظاهرة سلوكية لها أسباب تاريخية في حياة الفرد يمكن التعرف عليها[1]، عن طريق التحليل النفسي المباشر للأفراد كما اهتم التحليل النفسي بدراسة الحالات النفسية المرضية، و السوية، و بعض الظواهر الثقافية .و ركز اهتماماته العلمية النظرية، والتطبيقية على دراسة العصاب باعتباره من أبرز موضوعات بحثه. و يتمثل في مشاعر القلق و الإثم و الخوف، و الكوابيس المزعجة، والوساوس المتسلطة، و الأفعال القهرية، والشكوى من الأعراض الجسمية ذات الجذور النفسية لا العضوية[2].

تعرض التحليل النفسي لتفسير شتى أنواع السلوك الإنساني، كالسلوك الجنسي، والإجرامي، و الديني، و الإبداعي، و اتخذ من اللاشعور و العصاب، و عقدة أوديب، ومراحل تطور الغريزة الجنسية في الطفولة أسسا يستند عليها في ذلك. و هو ينفي إمكانية فهم السلوك ما لم يتوفر فهم العمليات العقلية المتضمنة في حالات السواء النفسي، و أن هذا الفهم لا يتأتى إلا بالبحث المتعمق في الطبقات اللاشعورية للعقل التي تحتوي على أغلب هذه العمليات [3].

يصطبغ التحليل النفسي بالطابع البيولوجي بحكم ارتكازه على الحياة الغريزية، ودوافع الليبدو التي يحكمها مبدأ اللذة، و تتوخى الإشباع، و كلما حاولت ذلك واجهتها المقاومة اللاشعورية التي ينجم عنها الشعور بالقلق، و التوتر.

---

[1] نجيب ابراهيم اسكندر : **الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي**: ص 36.

[2] م.ن :ص 128 - 129.

[3] م.ن : ص 131.

-علم النفس الفردي

أسس ألفريد أدلر (1870 - 1937) هذا الاتجاه النفسي بعد انشقاقه عن جمعية التحليل النفسي التي كان فرويد من أقطابها المؤسسين، و نقد مواطن القصور في نظريته المتمثلة في تضخيم أهمية اللاشعور، و الجنس باعتبارهما من دوافع السلوك الأساسية. و تناول مظاهر القصور العضوي، و أثرها على الجهاز العصبي الذي يعمد إلى التعويض عن القصور، و لاحظ بالتالي ارتباطا وثيقا بين قصور الأعضاء، و التعويض النفسي الزائد، مما جعله يستنتج "أن الشعور بالقصور الذي يوحي به إلى الفرد أحد أعضاء بدنه، يصير على الدوام عاملا فعالا في نموه النفسي [1]".

رأى على ضوء ملاحظته لسلوك الأطفال، ودراسته لذكريات الكبار" أن وجود الأعضاء القاصرة يؤثر دائما على حياة الشخص النفسية؛ لأنه يحقره في نظر نفسه، و يزيد شعوره بعدم الأمن. لكن هذا الشعور بعينه، هو الذي يلهب الجهاد لإقرار الشخصية، و يثير في المرء عراكا رائعا، كثيرا ما يتخذ أشكالا من العنف تبلغ حدا متطرفا لا تنتظره منه، ويزيد تبعا لزيادة مقدرة العضو القاصر على التعويض [2].

تتشكل القوة الدافعة للسلوك من الرغبة في توكيد الذات، و إبراز عظمتها، وهي رغبة قوية متغلغلة في طوايا الطبيعة البشرية، تحدو الفرد للتعويض واعيا بذلك؛ أم غير واع للحصول على أسباب القوة، و الجاه، و النفوذ لتحقيق الأمن الداخلي الذي يعوّزه بسبب شعوره بالدونية و النقص.

يرى أدلر أن الشخص العصابي ليس هو العاجز عن إشباع ميوله الجنسية كما ذهب إلى ذلك زميله "فرويد"، بل الشخص الذي يعيش في جوّ نفسي خال من الأمن و الطمأنينة بحكم ضغط الشعور بالدونية الناجم عن قصور عضوي في الجسد، أو انحطاط في المستوى العلمي، و الاجتماعي، لذلك يستولي عليه عصاب القصور، و يستحوذ على إرادته، و تفكيره في كل المواقف، و الحالات بسبب "عدم توافقه مع الوسط الذي يعيش فيه، أو من عجزه عن بلوغ الغاية العليا التي رسمها لنفسه[3] ".

هكذا يبدو الشخص منذ طفولته الأولى في صراع دائم ضد وسطه الأسري والاجتماعي، مما يشحنه بتوتر القصور و الدونية، الذي يحمله على الاستعلاء لتحدي المحيط الاجتماعي؛ الذي فرض

---

(1) أسحق رمزي : **علم النفس الفردي**، ط3، دار المعارف بمصر، 1981، ص 70- 71.

(2) م.ن : ص 71 - 72.

(3) م.ن : ص 73.

عليه مواقف الضعف، و العجز؛ مما يجعله يجنح إلى العناد، والعدوان اللفظي، و الجسدي لإشباع حاجته إلى القوة، و التخلص من الشعور بالضعف، والعجز...

وينفي أدلر سيطرة الغرائز الفطرية على سلوك الفرد، إذ لو كان الأمر كذلك ما كان في مقدور الإنسان تغيير مستويات سلوكه، و طابع شخصيته تحقيقا للتكيف مع المحيط البيئي والاجتماعي. و موقف الإنسان من محيطه الاجتماعي، و الطبيعي هو العامل الحاسم في بناء شخصيته بحكم اتجاهه اتجاها غائيا في سلوكه، وهو التعويض عن شعوره بالدونية لبلوغ مستوى الكمال الذي يتوق إليه، و هو مستمد من ثقافة المجتمع التي تسهم في تشكيل شخصيته، و تزوده بالطاقة النفسية التي تحدوه إلى بلوغ المثل الأعلى.

علم النفس التحليلي

انشق كارل يونج (1875 - 1961) عن جمعية التحليل النفسي، و أسس اتجاها نفسيا قوامه اللاشعور الجمعي، و دحض بذلك مفاهيم الفرويدية، و مقولاتها في الشخصية، والسلوك الإنساني، و يرى هذا الاتجاه أن الإنسان يولد مزودا بمجموعة من القدرات، و الاستعدادات، التي ورثها عن سلالته العرقية التي ينحدر منها، و احتفظ بها لا شعوره الجمعي ليوجه سلوكه توجيها لا شعوريا للقيام باستجابات معينة اتجاه المواقف الاجتماعية، و البيئية، التي تفرضها الحياة عليه، و يظهر ذلك على سبيل المثال في استعداد الإنسان الفطري للخوف من الظلام، و بعض الحيوانات المفترسة بحكم ما ترسب في لا شعوره الجمعي من تجارب أسلافه الغابرين، التي أورثته المخاوف الكامنة، التي تدعمت عن طريق خبرات الواقع، مما كرس هذه المخاوف و نماها .

هكذا تبدو شخصية الإنسان، وكل أنماط سلوكه نتاج اللاشعور الجمعي الموروث، وتتأثر تربيته تأثرا عميقا بذلك بحكم امتداد جذور الخبرات، و المعارف الاجتماعية، و النفسية إلى عهود موغلة في التاريخ، مما يشكل خبرات المرء الراهنة على ضوء خبرات اللاشعور الجمعي الكامنة فيه[1].

و يرى كارل يونج أن شخصية الفرد تتخذ قناعا اجتماعيا؛ كمظهر سلوكي، يكون بمثابة استجابة لمقتضيات الحياة الاجتماعية بكل قيمها، و معاييرها، و تقاليدها. و يكون القناع بالتالي عملية اضطلاع بالدور الاجتماعي المتوقع من الفرد آداؤه، لذلك يسلك سلوكا يخفي حقيقة ذاته؛ التي لا يتقبلها المجتمع، لأحداث تصور اجتماعي إيجابي. و من ثمة؛ فكل فرد له شخصيتان: شخصية اجتماعية ظاهرة للعيان خاضعة لمقتضيات الدور الاجتماعي المنوط بها آداؤه، و شخصية ذاتية تقبع في

---

[1] مصطفى غالب: **السلوك**، دار و مكتبة الهلال، بيروت، 1983، ص 73 - 74.

السر، و الكتمان. كما أن توحد الأنا بالقناع يفضي إلى اغتراب الفرد عن ذاته، لأنه يمارس حياته بسلوك خارجي سطحي؛ يعكس صورة المجتمع، لا صورة ذاته. و هذا السلوك الإنساني المزدوج، هو وليد خبرات الجنس البشري، التي انتقلت عن طريق اللاشعور الجمعي بحكم ما يحققه من غايات مفيدة، تقمع الجانب الحيواني البدائي من شخصية الإنسان، و تزوده بالقدرة على التفاعل الاجتماعي المجرد من العدوانية، والأنانية، و غيرها من الغرائز الفطرية المانعة من الاتصال الاجتماعي، و الإنساني الفعال[1].

يرى كارل يونج أن الإنسان كائن ثنائي الجنسية، يتمثل ذلك في اجتماع عناصر الذكورة، و الأنوثة في كلا الجنسين بدرجات متفاوتة انتقلت إليهما عن طريق خبرات اللاشعور الجمعي بحكم كونهما عاشا معا عصورا تاريخية طويلة، و تزود هذه الاستعدادات النفسية الموروثة كلا الجنسين بالقدرة على التفاعل، و التكيف الاجتماعي لكن أحدهما، أو كليهما إذا أسقط صورة ذاته المثالية على الآخر يقع في خيبة أمل من جراء اصطدامه بصورة الآخر الواقعية بكل عيوبها، و تناقضاتها.

نادى هذه الاتجاه النفسي بنظرية الأنماط في دراسته للشخصية الإنسانية، و قسم الناس إلى نمطين: النمط الانطوائي الميال للانسحاب، و العزلة، و عدم المشاركة في الحياة الاجتماعية، والنمط الانبساطي المنفتح، النشيط، المندمج في علاقاته بالآخرين.

الفرويدية الجديدة

ظهرت إرهاصاتها المعرفية عقب وفاة فرويد 1939 كامتداد طبيعي، و تاريخي للفرويدية الكلاسيكية، و قد حاول روادها الأول الإفادة من الحملات النقدية التي أحاطت بها منذ ظهورها، فنضوجها على يد رائدها المؤسس.

يعد "إريك فروم" أول من أشار إلى أن النظرية الفرويدية ليست مؤهلة لتفسير العلاقة المتبادلة بين الفرد و المجتمع، و كان للاتجاه الاجتماعي لاهتماماته العلمية أثره الكبير[2]، على "عملية إعادة التقييم هذه للفرويدية التقليدية، و ذلك التأكيد على الأهمية الحاسمة للعوامل الاجتماعية يخلقان انطباعا بأن الفرويديين الجدد، قد قاطعوا التناول الميتافيزيقي لسلوك الإنسان، و انهم يحاولون تقديم صورة دقيقة للعلاقة بين الإنسان، و ظروف وجوده الاجتماعي[3].

---

[1] مصطفى غالب : **السلوك** : ص 80.

[2] ف. دوير بنكوف: **الفرويديون الجدد**، ترجمة محمد يونس ، ط1، دار الفارابي، بيروت ، 1988، ص 20.

[3] م. ن : ص 21.

إذا كان الفرويديون الجدد، قد رفضوا التناول البيولوجي الذي تتسم به النظرية الفرويدية، فهم لا ينفون أهمية الغرائز؛ لكنهم يضيفون إليها حاجات الإنسان النفسية التي تتظافر و غرائزه على تشكيل أنماط سلوكه الإنساني.

ليست الحملات النقدية هي التي حملتهم على تطوير مسار اتجاههم، بل اعتقادهم الراسخ بأهمية النقد الذاتي الذي مارسوه من أجل "إعادة تفسير، و إعادة بناء لنظرية التحليل النفسي تمشيا مع مقتضيات المعرفة العلمية، و روح العصر[1]. لذلك عكفوا على الاستفادة من نظريات علم الاجتماع، و الاقتصاد، و الأنتربولوجيا، و التاريخ، و محاولة التوفيق بين معطيات الفكر الماركسي، و الفكر الفرويدي لصياغة نظريات تفسر سلوك الإنسان باعتباره مدفوعا من الداخل بحاجاته النفسية العديدة، و تتحكم فيه من الخارج العوامل الاجتماعية والثقافية، مما جعل أحد مؤسسي الفرويدية الجديدة، يذهب إلى أن فهم السلوك الإنساني لا يقتضي الاهتمام بدينامية العمليات النفسية التي تجري في أعماق الفرد بل لابد لكي نفهم الفرد من أن نراه في سياق الثقافة التي شكلته[2]

هكذا؛ على الرغم من إقرار الفرويدية الجديدة بريادة فرويد لعلم النفس التحليلي، إلا أنها رفضت فلسفته الاجتماعية التشاؤمية السلبية التي تضخم أزمة الفرد النفسية بفك ارتباطها العميق ببنية المجتمع الطبقية بكل انساقها الاجتماعية، و الثقافية، و أطرها المعرفية، والحضارية على حد سواء، ومن ثمة فقد عيب على فرويد أنه "لم تكن لديه سوى فكرة بسيطة عما يجري في المجتمع. و أن معظم تطبيقاته لعلم النفس على القضايا الاجتماعية كانت تأويلات مضللة[3]". لذلك دعت الفرويدية الجديدة في سياق تطورها المعرفي و المنهجي إلى البحث في عصاب الإنسان باعتباره حصيلة جملة من العوامل؛ مما يجعل سلوكه غير قابل للتفسير "في حدود بنيته، و دوافعه دون وضع العوامل الاجتماعية في الاعتبار [4]" فضلا عن الإطار الثقافي باعتباره " العامل الحاسم الأكثر أهمية في تكوين شخصية الفرد النفسية [5]".

رأت الفرويدية الجديدة أن هناك جملة من الحاجات النفسية، التي تتحكم في شتى أنماط السلوك الإنساني كالحاجة إلى تحقيق الذات التي تحمل الفرد على طلب العلم، و العمل، والجنس،

---

(1) المرجع السابق: ص 22.

[2] أريك فروم: **الخوف من الحرية**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1972، ص 236 .

(3) ف.دوير يينكوف :**الفرويديون دبرييكون الجدد**، ص 25

(4) م.ن : ص 25.

(5) م.ن : ص 25.

والمال، و النفوذ ، بغية تحقيق التوافق بين الذات الواقعية المأزومة بعصاب القلق، وصورة الذات المثالية التي زودته بها ثقافة المجتمع، وكلما تقلص الفرق بين مستوى الذات الواقعية، ومستوى الذات المثالية انخفض مستوى القلق، و الاغتراب عن الذات. كما حددت هذه المدرسة جملة من الحاجات النفسية التي لا تقل أهمية عما سبق ذكره كالحاجة إلى الأمن، و الحاجة إلى الانتماء، و الحاجة إلى الحب، والحاجة إلى التقدير الاجتماعي، و الحاجة إلى الإبداع، و الحاجة إلى السيطرة، و الخضوع، مما جعل منظورها للدينامية النفسية للإنسان أرحب، و أعمق فهما للطبيعة البشرية بأبعادها الجسمية، والنفسية، والثقافية، والاجتماعية،والحضارية.

الاتجاه السلوكي

نفى واطسن (1978-1929) رائد المدرسة السلوكية قيمة الاستنباط كمنهج من مناهج البحث في سلوك الإنساني، لذلك دعا إلى نبذ استخدام المفاهيم السائدة في علم النفس كالشعور، والإرادة ، و الذاكرة،و الخيال باعتبارها مفاهيم تجريدية غير قابلة للإثبات، و دعا إلى تفسير كل أنماط السلوك عن طريق آلية "المنبه و الاستجابة"، وتكوين العادة. وأستتبع إنكار واطسن للشعور استبعاده العاطفة و الإحساس، و الانفعال التي كانت تمثل لدى الوجوديين عناصر الخبرة الشعورية،واستبدل استخدام مفهوم الإحساس بمفاهيم أخرى: كالاستجابة للضوء، و الاستجابة للسمع، و الاستجابة للشم....يرى واطسن أن السلوك أيا كان نوعه : إنما هو سلوك حسي حركي مكون من وحدات المنبه الاستجابة، تبدأ كل منها مع تنبيه عضو حس ما، وتنتهي باستجابة عضلية، أو غدية "[1].

هكذا يكون السلوك الإنساني ثمرة احتكاك الفرد بالآخرين أثناء إشباع حاجاته العضوية، ويتشكل باعتباره عادات آلية تحدد علاقته بغيره من الأفراد لكونه يشبع حاجاته الاجتماعية، والعضوية عن طريق التدعيم . و تستمد الدوافع الاجتماعية قوتها من الدوافع البيولوجية الأساسية، ومن ثمة فالسلوك الإنساني هو نتاج جملة من المثيرات في المواقف الاجتماعية التي تنتج استجابات تتدعم عن طريق الإشباع، مما يجعل السلوك بمثابة عادات متأصلة. وتقتصر السلوكية في سياق دراستها للسلوك الإنساني على تناول الفرد كوحدة مستقلة عن انساق القيم الثقافية، و الاجتماعية التي ينتمي إليها، وتبحث في أنماطه الحركية، والعضوية الخاضعة للملاحظة بالارتكاز على الأساس البيولوجي دونما عداه.[2]

---

[1] كمال الدين عبد الحميد نايل : **الغرضية في السلوك الإنساني**، ص 47.48

[2] نجيب ابراهيم اسكندر : **الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي**، ص73.

ينفي الاتجاه الماركسي عن علم النفس كونه علما ناضجا مكتمل المعالم سواء من حيث نظريته، ومنهجه، وأدواته البحثية؛ لكونه يفتقر إلى الدقة العلمية، والموضوعية، والاستدلال. ويعجز في بحثه في الشخصية، والسلوك الإنساني عن صياغة مفاهيم، ونظريات مكتملة، وعن تحديد طبيعة أهدافه العلمية المتوخاة، مما يفضي إلى إضفاء طابع الغموض على مجالاته، ونتائجه على الرغم من وفرة أبحاثه، وتعدد مناهجه، فضلا عن كون مجالاته الواسعة التي اقتحمها مازالت بمثابة أراضٍ بور، مسحها مسحا سطحيا، لكنه لم يتطرق إلى مستوياتها العلمية العميقة، مما جعله يواجه صعوبات جمة في التفسير النظري للسلوك الإنساني، وفي بلورة نظامه المعرفي على الرغم من جهوده التي لا يمكن إنكارها، بحيث غدا عالم النفس أشبه ما يكون ببناء له أدوات رفيعة، لكنه لا يملك خطة هندسية للبناء الذي يزعم أنه يريد تشييده.

يرى الاتجاه الماركسي أن سر عدم النضج النظري لعلم النفس، أنه يتناول في سياق دراسته للشخصية نمطا من أنماط السلوك بصورة تجزيئية تفصله تماما عن بقية جوانب الشخصية، وفعالياتها بينما يعد كل سلوك مرتبطا بشتى أبعاد الشخصية، باعتبارها البوتقة التي تنصهر فيها أعمق مشكلاتها، مما وصم نظريات الشخصية بكونها مجرد آراء عامة لا ترقى إلى مستوى الرؤية العلمية لأنها تتناول الشخصية معزولة عن سياقها الثقافي، والاجتماعي، والتاريخي [1].

ساق هذا التصور التجريدي الميتافيزيقي علماء النفس إلى تناول أنماط السلوك المنحرف والإجرامي باعتبارهما نتاج الصراعات اللاشعورية، وعمليات التكيف، وأغفلوا أثر العوامل الاجتماعية، وأشكال الصراع الطبقي، والأنساق الثقافية، والشروط التاريخية، مما جعل علم النفس شكلا من أشكال المعرفة البرجوازية، التي تبرر البناء الاجتماعي القائم وتدافع عنه، وتزيّف الوعي الاجتماعي، ولا تؤصله لفصمها الشخصية عن جذورها الثقافية والاجتماعية التي تمدها بالسواء والانحراف معا.

لعل ذلك ما جعل أقطاب علم النفس يتساءلون في بعض مؤتمراتهم العلمية عن مدى واقعية موضوع الشخصية، وجواز التطرق إليه من الوجهة العلمية. وقد أبدى بعضهم شكه في ذلك. وأقر دانيال لاجاش أن محاضرته التي قدمها عن أنماط الشخصية كانت تلبية لاقتراح مقرري المؤتمر على

---

(1) Lucien sève: « **Marxisme et Théorie de la Personnalité** », Editions sociales. Paris. 1969. pp : 34.36.37

الرغم من عدم اقتناعه بجدوى الموضوع، وأهميته العلمية، وتساءل عما إذا كانت الأوساط العلمية خاضعة لعبادة الشخصية، كما أنه ينكر وجودها تماما، أما ما يحسبه الناس شخصية، فلا يعدو كونه "خلايا علاقات" فحسب [1].

هكذا تغدو نظريات الشخصية مجرد تصورات إيديولوجية تشكلت انعكاسا للأنماط الثقافية والاجتماعية السائدة.و من ثمة، فليس من العلم أن يزعم علماء النفس، أنهم قد توصلوا إلى حقائق علمية في دراستهم للشخصية، بينما هم لم يتطرقوا للمشكلات الحقيقية برؤية علمية تحيط بكل تعقيداتها.ويتبنى هذا الاتجاه بعض علماء النفس ممن يرون أن علم نفس الشخصية ما عتم يواجه معضلات معرفية معقدة، تتعلق بطبيعة الموضوع في حد ذاته، وبتحديد مجاله أيضا.ومادامت هذه المسائل لم تسلط عليها الأضواء الكافية سيظل علم نفس الشخصية عاجزا عن قطع مراحل تطور أكبر بحكم عدم بلورته لنظام معرفي شامل يضفي الطابع العلمي عليه[2].

هكذا ينفي الاتجاه الماركسي المفاهيم، و المقولات النفسية لعلم النفس الاستبطاني، والوجودي، والسلوكي، والتحليل النفسي، ويدحض فروضه باعتبارها مجرد مقولات إيديولوجية برجوازية أقرب إلى التجريد، والميتافيزيقية، وغير قابلة للإثبات، لعدم قابليتها للملاحظة، والتجربة الموضوعية، ويجردها ذلك بالتالي من مسوغات تناولها في ميدان البحث العلمي.ويتبنى الاتجاه الماركسي نظرية الانعكاس الشرطي التي جاء بها العالم الفيزيولوجي ايفان بافلوف (1849-1936) ومزج بينها وبين معطيات الفكر الماركسي، وصاغ بالتالي نظرية في السلوك الإنساني، قوامها التفاعل الجدلي بين الفاعلية العصبية العليا، ومعطيات الواقع الاجتماعي والتاريخي.

يرى ايفان بافلوف أن السلوك الإنساني شأن السلوك الحيواني خاضع لقانون الانعكاس الشرطي، مما جعله يقول بوجوب تفسيره تفسيرا ماديا باعتبار الدماغ البشري هو المادة الحية الأولى التي تتشكل فيها المشاعر والأفكار "انعكاسا لوجه من وجوه العالم المادي."[3] واعتبر العمليات العقلية كالتفكير، والتخيل، والإدراك نتاج مادة منظمة بطريقة خاصة في الدماغ البشري.ومن ثمة تغدو المادة أولية، والشعور ثانوي، ومشتق.

ظهر علم النفس السوفياتي بعد ئذ يقول بوجوب دراسة السلوك الإنساني من خلال حركته وتغيره، واتصاله الوثيق بغيره من الوقائع التي شكلته، أو أسهم في تشكيلها بحكم عدم فصلها بين

---

(1) Ibid.: p38.

(2) Ibid.: p 38. 39

(3) عبد المنعم الحفني:**موسوعة علم النفس و التحليل النفسي** ج 2،مكتبة مدبولي،مصر، 1978.ص86-87.

المادة، والحركة، وبين المادة، و الزمان لكون الحركة ظاهرة أساسية في المـــادة بأبعادهـــا الزمانيـــة، والمكانية[1] .

كما يولي علم النفس السوفياتي أهمية للمنهج التاريخي في دراسة السلوك الإنساني باعتبـــاره سلسلة من الوقائع؛ قوامها نشاطه الإنساني الأساسي، و هو العمل بوصفه شكلا متغيرا من الفعاليـــة الاجتماعية، انتقل الإنسان عن طريقه من مرحلة الصيد إلى الزراعة، فالتجارة، و الصناعة، و تطـورت به ملكاته، و استعداداته العقلية، و تغيرت في ظله أنماطه الســـلوكية، إذ فرضـــت شـــروط الواقـــع الاجتماعي، و التاريخي على الإنسان العمل كاستجابة سلوكية لتحديات الوجود. و فرض العمـــل، ونظامه، و ظروفه على الإنسان آثاره النفسية، والسلوكية. و هكذا أوجد الإنسان العمل، و شـــكل العمل بدوره سلوك الإنسان، و شخصيته إذ "أوجد الناس بيئاتهم عن طريـــق أعمـــالهم و أفعـــالهم، ولذلك فثمة تفاعل مستمر بين الإنسان ومحيطه. و ليس من الممكن التمييز بين الاثنـــين؛ و التضـــاد بينهما، بل لابد من النظر إلى النمو بوصفه نتيجة لتفاعل داخلي بين الاثنين[2]".

لا يدرس علم النفس السوفياتي الظواهر النفسية، و الأنماط السلوكية التي درجت مـــدارس علم النفس الأخرى على دراستها بقدر اهتمامه بالسلوك اللغوي، و أشكال تطوره، و اضطراباتـه، لا سيما عند الأطفال باعتباره من مظاهر نمو الفعاليات العقلية المتمثلة في الذكاء، و الخيال، والإدراك[3]، أما المسألة الثانية التي كانت محور أبحاثه، فهي مسألة التعلم لكونه المدماك الذي تتشكل على ضوئـــه أنماط السلوك السوية، و المنحرفة. و يقتضي ذلك التركيز بطبيعة الحال على ظروف الحياة الأســـرية، والمدرسية، و الاجتماعية باعتبارها محيطا متغيرا يكشف مضمون حياته في صلته بالآخرين، و أشـكال تفاعله معهم، و مركزه في المجتمع؛ ليس بغرض تحديد طبيعة نفسيته، و شخصيته، أو وصف سـلوكه، بل من أجل الوقوف على العمليات، و القوانين المتحكمة فيها.

التفسير الاجتماعي للسلوك الإنساني

يرى علماء الاجتماع أن السلوك الإنساني نتاج ما تزود به الجماعات الأولية الأفـــراد مـــن سمات، و خصائص سلوكية، كالحب، و التعاون أو التنافس، و غيرها من الســـمات ذات الدلالـــة الاجتماعية. و لذلك تحتل الأسرة باعتبارها أهم الجماعات موقعا متميزا بحكم كونها تشكل شـخصية

---

[1] فاخر عاقل:**مدارس علم النفس**، ط7، دار العلم للملايين،بيروت، 1987 ، ص 268.

[2] م.ن : ص 271 - 272.

[3] م.ن: ص 273

الفرد في مراحل طفولته، و تزوده بأنماط السلوك عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها بصورة مباشرة، أو مواربة. و قد تخفق عملية التنشئة الاجتماعية، و لا تحقق أهدافها، مما يتمخض عنه انحراف سلوك الفرد عن التوقعات الإيجابية التي كانت معلقة عليه، لكن ذلك لا يعني عدم إسهام الفرد في تشكيل شخصيته، و سلوكه على نقيض توقعات ذويه لأن الفرد معرض لاكتساب سمات ثقافية، و أنماط سلوكية، لا تمت بصلة لثقافة أسرته، و طبقته، و مجتمعه أيضا. و يعلل علماء الاجتماع هذه الظاهرة الاجتماعية بكونها نتيجة أخطاء التنشئة الاجتماعية التي قد ينجم عنها اضطراب نفسي، يسوق الفرد إلى الانحراف عن القيم الاجتماعية المقبولة، و الجنوح إلى الشذوذ، والإجرام [1].

كما أن خضوع الفرد لتأثير جماعات أولية مختلفة المشارب؛ قد يكون من عوامل اضطراب شخصيته، و سلوكه، لا سيما إذا كانت قيمها الاجتماعية، و معاييرها السلوكية متناقضة في أهدافها، حيث قد تكون هناك جماعة لها معايير ثقافية تجيز سلوكا معينا، بينما تمنعه تماما الجماعة الأخرى، مما يورث الفرد تمزقا نفسيا بين دواعي الأقدام على ممارسة السلوك، و دواعي الأحجام عنه. و ينتج عن ذلك إما الانحراف، أو التذبذب الوجداني وليد الصراع الثقافي الكامن في أنساق القيم الثقافية التي يخضع لها الفرد.

هكذا يبدو السلوك الإنساني أيا كانت أنماطه نتاج الخبرة الاجتماعية، وليدة التفاعل الاجتماعي بحكم كون الظروف، و العمليات الثقافية الخارجية هي المحدد الأساس للسلوك بوصفه ثمرة التعلم و الاكتساب.

تقوم نظرية التعلم الاجتماعي على مفاهيم التقليد، و الدور الاجتماعي، و التفاعل الاجتماعي، و هي بمثابة عمليات تعلم الفرد الدور الجنسي المنوط به؛ باعتباره ذكرا؛ أم أنثى، مراهقا، أم راشدا، و الدور المهني بوصفه معلما أم عاملا. و يفرق مضمون التعلم الاجتماعي بين أنماط السلوك المختلفة في شتى المواقف الاجتماعية[2].

إذا رصدنا الجذور الاجتماعية للسلوك على ضوء نظرية التعلم الاجتماعي؛ تبين لنا أن قيم الثقافة الاجتماعية سواء أكانت إيجابية، أم سلبية تظل تعيد إنتاج قيمها الاجتماعية في متوالية هندسية متتابعة؛ قوامها التعلم، و التقليد، فانتشار أنماط السلوك في نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية كلها.

---

[1] نجيب ابراهيم اسكندر: **الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي** ، ص 160 – 161.

[2] أحمد ، سمير نعيم : **الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي**، ص 208.

كما يرى بعض علماء الاجتماع أن السلوك الإنساني هو محصلة عوامل التصنيع والتحضر؛التي تعزز قيم التنافس، و المادية، و النفعية، و الميول الاستهلاكية و التطلع للصعود الاجتماعي، التي تسهم في شحذ القدرة على التكيف الاجتماعي عن طريق النشاط، والإبداع لدى فئة من الناس، و قد تسوق أفرادا من فئة اجتماعية أخرى إلى الانحراف الاجتماعي بممارسة السرقة، و السطو، و الإجرام، و البغاء لإشباع الميول الاستهلاكية، والترفيه، و تحقيق التطلع إلى الصعود الاجتماعي[1] .

هناك اتجاه آخر يرى أن السواء في السلوك الإنساني نتاج التجانس بين جهاز القيم الثقافية الموجهة للسلوك، و الإمكانات التي يتيحها البناء الاجتماعي لتحقيق الأهداف. و يتمثل ذلك في تمجيد قيم النجاح المادي على مستوى أنساق القيم الثقافية، و إتاحة المجتمع لإمكانات بلوغ تلك الأهداف لأن تقييده لها مجلبة للسلوك المنحرف المضاد للقيم الثقافية، أو السلوك الإنسحابي السلبي الرافض لها تماما.

كما يولي بعض علماء الاجتماع اهتماما للترابط الأسري باعتباره مدعاة للنمو النفسي، والعقلي الذي يتمثل في أنماط سلوكية بعينها كارتفاع مستوى الذكاء، و مستوى الثقة بالذات، والانفتاح على الآخرين، و تبني القيم السلوكية الإيجابية، بينما يفضي التصدع الأسري الناجم عن غياب أحد الأبوين، أو كليهما بالوفاة، أو الطلاق، أو العجز عن الاضطلاع بدوره الاجتماعي؛ إلى التوتر النفسي الذي يستتبع اضطراب مستوى الثقة بالذات و النزوع إلى الانطواء، و الميل إلى الانحراف الاجتماعي [2] .

تسهم المدرسة، كمؤسسة اجتماعية في إعداد أفراد المجتمع إعدادا تربويا و ثقافيا واجتماعيا؛ يؤهلهم لممارسة أدوارهم الاجتماعية التي يناط بهم أداؤها. و من ثمة؛ فالتكيف الاجتماعي الذي يحققونه في رحابها يهيئهم لاقتحام معترك الحياة مزودين بالمهارات، والقدرات العقلية، و الاجتماعية، التي تمكنهم من تحقيق أعلى مستويات التكيف في شبكة العلاقات الاجتماعية الواسعة.

---

[1] محمد عاطف غيث : **المشاكل الإجتماعية و السلوك الإنحرافي** ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989 ، ص 57.

[2] René RESTEN: « **Caractéristique du Criminel** » , Presses Universitaires de France 1959, p 30.

التفسير الثقافي للسلوك الإنساني

يتوخى علم الاجتماع الثقافي دراسة الأفراد بوصفهم حاملين ثقافة معينة، و التركيز على الشخصية باعتبارها " سوسيو ثقافية" و استتبع ذلك تلازم مصطلحي الشخصية، والثقافة، حيث يقتضي التطرق لأحدهما إيرادهما معا في السياق نفسه، لأنهما يستمدان مناهجهما، وأدواتهما البحثية من ميادين معرفية مشتركة هي علوم النفس، و الاجتماع، و الأنتربولوجيا على حد سواء.

لذلك توصم النظريات المتعلقة بالشخصية بالخواء؛ إن لم تصدر عن الأطر النظرية للعلوم الاجتماعية؛ بحكم كون الشخصية في حد ذاتها مجموعة من الدلالات الكاشفة عن الطبيعة البشرية المرنة، المتغيرة باعتبارها نتاجا اجتماعيا و تاريخيا حيث تتشكل مكونات الشخصية الإنسانية من سيرورة التاريخ و بناء المجتمع، فضلا عن طبيعة الحضارة التي " هي مبعث اتزان الشخصية، و قلقها، و مصدر مخاوفها، و أمراضها[1]".

هكذا يؤثر نمط الثقافة السائدة في سمات الشخصية، فقد يورثها الاضطراب، أو الاتزان، والتغير أو الثبات بحكم عملية التفاعل الثقافي بين الفرد و محيطه الاجتماعي الذي يقتضي منه تكيفا ثقافيا، يتيح له إشباع حاجاته النفسية و الاجتماعية، و كلما تعسر عليه تحقيق التكيف الثقافي، انحل بناء شخصيته، و عانى من القلق الذي يقوده إلى الانحراف السلوكي تحت وطأة أنساق ثقافية لم يهضمها، أو لم يتقبلها، و إذا هو تكيف مع بعضها دون البعض الآخر، جنح سلوكه إلى الإضطراب، أو السلبية، و الهامشية .

كما يتغير السلوك الإنساني من جراء عملية هضم الثقافة، و استيعاب سماتها و قيمها، ومعاييرها عن طريق التربية، و التفاعل، و التعلم، و يغدو بمثابة مظهر حامل لمحتوى ثقافي بعينه.

ثمة اتجاهان مختلفان في دراسة علاقة الثقافة بالشخصية؛ أولهما يرى ضرورة التركيز على طبيعة الثقافة كمدماك سيكولوجي في بنية الشخصية، و يتخذها منطلقا للانتقال إلى دراسة الشخصية، و تكون الثقافة بالتالي مدخلا نظريا يمهد سبيل دراسة الشخصية، و من ثمة يدرس الثقافة في الشخصية. أما الاتجاه الآخر؛ فيهتم بالشخصية باعتبارها حاملة الثقافة، و ينتقل منها إلى الثقافة لكونها أداة فهم الشخصية؛ لأن الثقافة أحد أبعادها الأساسية، و هو بالتالي اتجاه ينتصر لدراسة الشخصية في الثقافة.

---

[1] قباري محمد إسماعيل: **علم الاجتماع الثقافي**، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر 1982، ص 522.

لعل الثقافة كمجموعة من القيم، و السمات، و المعايير، و العادات، و التقاليد، والأعراف لا وجود لها خارج الشخصية الإنسانية، التي تحملها، و تتبناها، و تمارسها، وتطورها و تتطور بها، مثلما لا وجود للشخصية دون محتواها الثقافي الذي يضفي عليها طابعا متميزا.

يرى الاتجاه التكاملي أن البحث في الشخصية الإنسانية، يقتضي التطرق لشتى جوانبها، ومكوناتها العضوية، و الثقافية، و الاجتماعية، و البيئية. و ليس التركيز على الجانب العضوي سوى إقرارا بأسبقية هذا البعد في الوجود قبل غيره من الأبعاد، فضلا عن آثاره السلوكية، و الثقافية التي يفرضها على الفرد، و ثقافته بصورة مباشرة، أو مواربة. و يتم بعدئذ تناول البناء الاجتماعي و تحليل الأنماط الثقافية السائدة فيه، و انعكاسها على أنماط السلوك الإنساني، و رصد عناصر البيئة الطبيعية سواء أكانت مناخية، أم تضاريسية بوصفها تسهم في تشكيل بعض سمات الشخصية. و يغدو تحليل الأبعاد العضوية، و الثقافية، والاجتماعية، و البيئية أداة منهجية نقف على ضوئها على الفروق الفردية بين الناس التي هي محصلة جملة من العوامل تتمثل في الوراثة و التكوين العضوي، و ظروف التكيف الثقافي والاجتماعي و البيئي.

تقف الشخصية الإنسانية اتجاه السمات الثقافية السائدة مواقف شتى تتأرجح بين الرضوخ، والحرية، حيث أنها تخضع للسمات الثقافية العامة لكونها مفروضة عليها تشترك مع أفراد المجتمع في الالتزام بها، أو التظاهر بذلك دفعا للاستهجان الاجتماعي و النبذ، أو غيرها من أشكال العقاب، وتتمثل تلك السمات العامة في الدين، و اللغة، و التقاليد، والقوانين السياسية السائدة .

أما السمات الثقافية الخاصة، فهي عناصر مفروضة على الفرد لأن له مطلق الحرية في انتقاء ما يستهويه، أو يحقق إشباع حاجاته النفسية، و الثقافية كالتخصص العلمي، والمهني. أما السمات الثقافية البديلة، فهامش الحرية فيها أوسع يتيح للفرد مجال المفاضلة بين جملة من أنماط السلوك كالاستقرار أو الهجرة، و الملابس و أزياؤها، و الأحزاب السياسية، و الأندية الثقافية و الرياضية، وهي سمات ثقافية، فيها من الوفرة، و تعدد البدائل ما يفضي إلى أنماط سلوكية، متعددة بحسب المستوى الاجتماعي، و التفضيلات الثقافية التي تتوخى إشباع حاجات نفسية و اجتماعية مشتركة[1].

هكذا؛ يتسم السلوك الإنساني بسمات ثقافية "يتعلمها الإنسان كي تساعده على حل مشكلاته فالثقافة هي سلوك متعلم ...تمتاز بأنها تتراكم، و تزداد بعملية نمو مستمرة خلال حركة

---

(1) Jean Claud FILLOUX: « **La Personnalité** », Presses Universitaires de France ,Que sais je? 10 Editions, 1980, P.53.54

التاريخ[1].." فضلا عن كونه يتسم بخصيصة الانتقال، و الحركة عن طريق التربية، كنسق يضطلع بمهمة نقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل [2].

ليس للسمات الثقافية وجود إلا من خلال السلوك الإنساني بكل أنماطه و مستوياته، لأنه هو الذي ينقل الأنماط الثقافية السائدة من مستوى الكمون إلى مستوى التجسيد المادي الخاضع للملاحظة و التجربة. لذلك يرى بعض علماء الأنتربولوجيا الثقافية أنه من التعذر تفسير السلوك الإنساني بمعزل عن سياقه الاجتماعي، و الثقافي الذي يسهم في تشكيل اتجاهاته، و أنماطه، لكونه المجال الحيوي، الذي يمد دينامية السلوك بالدوافع، و الحوافز، والعوائق، والمعايير التي تشارك في صياغته في الواقع الاجتماعي.

هكذا؛ فقد اصطبغت اتجاهات تفسير السلوك الإنساني في الفكر الغربي بالطابع الفلسفي في القرن الثامن عشر، و اتسمت بالطابع البيولوجي عند انتقالها إلى مرحلة التفكير العلمي التجريبي في القرن التاسع عشر، الذي شهد مرحلة انفصال العلوم الاجتماعية عن رحم الفلسفة، و استقلال كل علم بنظرياته، و أطره المعرفية، و مناهجه، و أدواته البحثية، حيث ظهر الطابع النفسي متميزا عن الطابع الاجتماعي في علم النفس، و علم الاجتماع؛ مما أثرى المعرفة العلمية، و أضفى على اتجاهات التفسير السلوكي رؤية شاملة متكاملة، بحكم ارتكازها على العلوم الاجتماعية كلها؛ لأن السلوك الإنساني موضوع بحثها المشترك.

---

[1] اسماعيل، قباري محمد :**علم الاجتماع الثقافي** ، ص 533.

[2] م.ن: ص533 .

الفصـــل الثـــاني

تفسيـــــر السلــــوك السيـــاســـي

تفسير السلوك السياسي

عقدة بولكراتس

تظهر على الملك خوفوبن خنوم -أثناء بناء الهرم الأكبر- أعراض القلق و التوتـــــر، و هـــو يرى البناءين عاكفين على إنجاز الهرم الذي سيحتوي تابوته، و يخلد ذكره لأن عمليات الإنجاز مــــن المشقة بحيث تهدر فيها سلامة الأجسام، و الأرواح على حد سواء.

يدور في طوايا نفسه حوار مشحون بالشعور بالذنب يجعله يتساءل :"أي مجد و أي جـــلال! أي ذنب و أي جهاد في سبيله هو! هل ينبغي أن تشقى ملايين النفوس الشريفة من اجل مجده! هـــل ينبغي أن يولي ذاك الشعب النبيل وجهه قبلة واحدة هي سعادته هو؟

كان ذلك الوسواس هو القلق الوحيد الذي يضطرب أحيانا في ذلك الصدر الملــــئ بـــالقوة والإيمان [...] و كان يعذبه -إذا اضطرب- فيضيق به صدره و ينغص عليه صفوه و سعادته، و قـــد اشتد به العذاب، فولى الهضبة ظهره، و طالع صحابته بوجه غاضب و هشوا له، و طرح عليهم هــــذا السؤال:

-من الذي ينبغي أن تبذل حياته لصاحبه؟ الشعب لفرعون أو فرعون للشعب!

فوجموا جميعا، و استولى عليهم الارتباك، و كان القائد "أربو" أربطهم جأشا فقال بصوتـــــه القوي النبرات :

-إننا جميعا -شعبا و قادة و كهنة- فداء لفرعون!

و قال الأمير حرسادف أحد أبناء الملك بحماس شديد:

-و الأمراء أيضا.

فابتسم الملك في غموض، و لبث القلق واضحا على وجهه الجليل ..."[1].

هكذا يبدو شعوره بالذنب حادا من جراء تضحية الآخرين في سبيل مجده، و يعكس ذلـــك خوفه اللاشعوري من انهيار مشروعه؛ الناجم عن إحساسه بالدونية، مما جعله يتصور أنه غير جديــــر

---

[1] نجيب محفوظ: **عبث الأقدار**،الطبعة السادسة ، مكتبة مصر، 1969، ص 11، 12، 13.

بالتضحية؛ و بالمجد على حد سواء. هذه الأعراض النفسية مجتمعة تمثل المشاعر التي تتشكل منها عقدة بولكراتس باعتبارها "تعبير عن خوف الأفراد الذين يحققون نجاحا كبيرا أن ينتهي كل ما حققوه وينهار، فكلما زاد نجاحهم زاد خوفهم، و توقعوا شرا يحل بهم، و من ثمة تراهم يهبون أشياء عن طواعية، ليتغلبوا على حاجة لا شعورية عندهم في استجلاب العقاب على أنفسهم، أو لإحساس لا شعوري بالذنب، و ليست محاولة بولكراتس أن ينقذ حياته و ثروته إلا كسلوك المرضى الذين لا يجيزون لأنفسهم أن يحققوا نجاحا؛ أو بعض النجاح بسبب إحساس لاشعوري بالذنب؛يجعلهم يعتقدون أنهم لا يستحقون هذا النجاح "[1] .

لعل ذلك الشعور هو الذي حدا بالملك لسؤال أفراد حاشيته عن مدى جدارته بالتضحية المبذولة من أجل مجده الشخصي؛ بحيث أنه كان يلتمس من جماعته المرجعية تسويغا يلطف توتره النفسي وليد شعوره بالذنب، و الدونية معا.

قد ينم طرحه قضية أيهما أولى بالتضحية بنفسه في سبيل الطرف الآخر عن عدم ثقته في أنساق القيم السياسية السائدة ، التي توجب تضحية الشعب في سبيل الملك؛ بدل تضحية الملك في سبيل الشعب؛ لأن سعادة فرد مهما علت مكانته لا تضاهي سعادة شعب بأكمله.

لعل المديح الذي أزجاه قائده له تعقيبا على تساؤله كان بلسما مخففا لشعوره بالذنب، مما يوحي بالوظيفة النفسية المنوطة به في تخفيف التوترات النفسية، التي يكابدها الحكام المأزومون بعقدة بولكراتس.كما أن المديح يشي بطبيعة الدور المنوط بأتباع الملك باعتبارهم مجرد أدوات تبرير للسلطة الزمنية لتسويغ وجودهم فيها، و انتفاعهم بها، و من ثمة بدا شعور الملك بالذنب مجرد انفعال سطحي عابر، إذ لو كان متجذرا في بنائه النفسي لحمله على تعديل سلوكه بما يتوافق و القيم السياسية التي أثارت فيه هذا الشعور.

عصاب الموت

لعل توتره النفسي الذي تملكه لدى مراقبة تشييد الهرم الأكبر لا يعدو كونه عرضا من أعراض عصاب الموت بحكم ارتباط بناء الهرم بالاستعداد للموت؛ حيث يتم أسجاء جثمانه في تابوت يودع في باطن الهرم. و لهذا يغدو الموت مدعاة للشعور بالخوف بحكم كونه ظاهرة طبيعية غريبة، غامضة أليمة، و مدعاة للشعور بالقلق بحكم غموض أسبابه، و ميقاته، و مكانه، كما أنه يحيل

---

[1] عبد المنعم الحفني: **موسوعة علم النفس و التحليل النفسي**، الجزء الثاني،مكتبة مدبولي بمصر، ، 1978، ص 131.

وجوده إلى "لاشيء"، و يساويه بغيره من البشر، الذين يراهم دونه مركزا و أدوارا. لذلك يحدوه عصاب الموت إلى القيام بالاحتياطات التي تجنبه الموت بصورة رمزية عن طريق بناء الهرم الأكبر كإجراء مادي، و استطلاع الغيب كإجراء معنوي يؤمن بقاء خلفه في السلطة كامتداد طبيعي لذاته.

أما الجذور النفسية الأخرى التي غذت عصاب الموت لديه، فتتمثل في خوفه من الانفصال عن علاقاته و أدواره، فضلا عن كون الموت هو شكل من أشكال العزل عن السلطة لا يقل عن الاغتيال، و الانقلاب مأساوية .و يعزى هذا العصاب أيضا لكون الموت يشعره بالعجز عن تحقيق ذاته، و تأكيد قوته بما يرضى أناه النرجسي.

هكذا يحدوه عصاب الموت لتحقيق الخلود عن طريق بناء الهرم لا يـهام نفسه بإمكانية الإفلات من هذا المصير المأساوي، و لذلك يجد عزاءه النفسي في أنساق القيم الروحية السائدة في الثقافة الفرعونية المتمثلة في الإيمان بالبعث، و الحياة في العالم الآخر؛ لأنها تزوده بالأمن النفسي في مواقف التهديد بالموت، لا سيما و أن قيم البعث، و الخلود في العالم الآخر؛ هي آلية انكار لا واعية لحقيقة الفناء، الذي يهدد الوجود الإنساني.

ما دام الملك يشعر بالعجز عن الإفلات من الموت، فقد عمد إلى سلوك تعويضي لتحقيق الإفلات الرمزي عن طريق تشييد الهرم، بحيث يتوحد نفسيا بصلابة أحجاره، و علو بنائه، و خلود بقائه لإيهام نفسه بالخلود. و يحدوه قلق الموت إلى الإسراف في التعويض عن شعوره بالضعف بتضخيم حجم الهرم الذي يشي بميوله الاستعلائية، و الاستكبارية. كما ينم عن حاجته لتأكيد قوته مداراة لشعوره بالضعف أمام الزمن و المصير.

التنبؤ الأسطوري بالمصير

لم يتحقق الأمن النفسي للملك خوفو على الرغم من تشييده للهرم الأكبر، و ظلت أعراض عقدة بوليكراتس مستولية عليه، مما حداه لاستطلاع الغيب لمعرفة مصير العرش بعد موته. ولذلك استفسر الساحر "ديدي" لإشباع حاجته للاطلاع، لكونها من الحاجات النفسية التي تتطلب الإشباع، لا سيما و أن لها علاقة وثيقة بالسلطة. و يكون جواب الساحر "ديدي" قاسيا محبطا للرغبات إذ "يجيبه قائلا :

مولاي لن يجلس على عرش مصر من بعدك أحد من ذريتك..! [...]

قطب فرعون جبينه، و أربد وجهه فحاكى وجه أسد ضار أجنه الغضب، و أصفر وجه الأمير رعخعوف، و أطبق شفتيه القاسيتين فأنذرت هيئته بالويل و الهلاك .

و كان الساحر أراد أن يخفف من وقع نبوءته فقال:

-سوف تحكم يا مولاي آمنا مطمئنا حتى نهاية عمرك السعيد ...

فهز فرعون كتفيه استهانة، و قال بصوت رهيب:

-إن من يعمل لنفسه فكأنما يعمل للفناء، فدع عنك تغريتي، و خبرني هل تعرف من تدخره الآلهة ليخلفها على عرش مصر؟

فقال الساحر:

-نعم يا مولاي، هو طفل حديث عهد بالوجود، لم ير نور الدنيا إلا صباح اليوم .

-فمن أبوه؟

-أما أبوه فهو " من رع" الكاهن لرع معبود أون، و أما أمه فالسيدة الشابة رده ديديت التي تزوجها الكاهن على كبر لتلد له هذا الطفل الذي كتب في سجل الأقدار من الحاكمين" (1) .

لعل ما حمله على استطلاع الغيب من الساحر "ديدي" إيمانه بقيم التكهن الأسطوري باعتبارها أداة المعرفة الوحيدة، فضلا عن كون السحر، هو منهج التفكير السائد في الثقافة الفرعونية القديمة. كما أن خوفه من ضياع العرش الملكي من خلفه المنحدرين من صلبه؛ كان من الدوافع التي حملته على استطلاع الغيب؛ ليس لمجرد إشباع حاجته إلى المعرفة فحسب، و إنما لاتخاذ المواقف والاتجاهات الكفيلة بالوقاية من التهديدات المتوقعة.

هو يرى في ولي عهده، و وريث عرشه امتدادا طبيعيا لذاته، يكفل له توكيد ذاته بعد موته، لذلك يسعى لتأمين مستقبله، الذي هو في حقيقة أمره مستقبله هو، الذي سيعيشه متجسدا في خلفه.

الشعور بالذنب و الانتحار

يسعى الملك إلى اتخاذ الاحتياطات الكفيلة بأبعاد الخطر الذي يهدد سلطته بإكراه الكاهن "من رع" على قتل ابنه الوليد لكنه يلاحظ تردده فيقول له:

"-إن لنا – معشر الفراعنة- تقاليد موروثة في احترام الكهنوت و رعايته لا أحب أن تضطرني إلى خرقها".

---

(1) **عبث الأقدار** : ص 21 - 22.

يا عجبا! ماذا يريد فرعون بقوله هذا؟ أيريد أن يفهم أنه يحترمه و لا يحب أن يقتل إبنه، وأنه لذلك ينبغي أن يقوم هو بالمهمة التي يحفل منها الملك؟ و كيف يتأتى له أن يذبح طفله بيده؟ حقا إن الإخلاص الذي يكنه لفرعون يقضي عليه بتحقيق رغبته الربانية دون أدنى تردد، و إنه ليعلم علم اليقين أن أي فرد من شعب مصر لا يتوانى عن إزهاق روحه لو أحس بأن موته يلقى رضاء فرعونيا ساميا، فهل يلحق بطفله العزيز، و يغمد خنجره في قلبه؟ و لكن من الذي قضى أن يكون ابنه خليفة خوفو على عرش مصر؟ أليس هو الرب رع؟ أوليس بعد سعيه لقتل الابن البريء تحديا لإرادة الرب الخالق؟ و من الذي يجب أن يؤثر بطاعته خوفو أم رع؟ لا يحتاج الجواب إلى روية. و لكن ما عسى أن يفعل و فرعون و زملاؤه ينتظرون كلمته؟..[1]".

في هذا الموقف الفاجع المشحون بالخوف، و القلق، و الشعور بالذنب يكون الكاهن بين خيارين؛إما أن يمتثل لأوامر السلطة السياسية باعتباره تابعا لها؛ أو يمتثل للسلطة الدينية باعتباره من رموزها، و كلتا السلطتين متنافيتان من حيث القيم و الأوامر، أو يستجيب لغريزة الأبوة المتجانسة وقيم السلطة الدينية، و المتعارضة و السلطة السياسية، و يحتدم في طوايا نفسه صراع نفسي حاد بين هذه الاتجاهات السلوكية الثلاث، يتمخض عنها شعوره بالذنب اتجاه ربه، و ملكه، و ابنه على حد سواء. و قد نجم شعوره بالذنب اتجاه ربه المعبود من كون ابنه لا يمثل في النبوءة الأسطورية إلا إرادته المتعالية غير الجائز الاعتراض عليها. أما شعوره بالذنب اتجاه الملك؛ فبحكم ما يمثله ابنه من خطر على عرشه في المستقبل. أما شعوره بالذنب اتجاه ابنه فبسبب إصرار الملك على قتله دون وجه حق، لا سيما و قد أنجبه على كبر؛ فضلا عن كونه يحقق له ذاته، و قوته باعتلائه العرش الملكي.

يعمد الكاهن لقتل ابن جارته الرضيع إيهاما للملك بامتثاله لإرادته، لأن غريزة الأبوة عاقته بطبيعة الحال عن قتل ابنه. غير أن عقدة الذنب الناجمة عن سلوكه الإجرامي؛ شوهت تصوره الإيجابي لذاته بوصفه رجل دين منوط به تبني القيم الإيجابية كالحب و الخير؛ إلا أن انحرافه السلوكي؛ دحض تلك القيم، مما جعله يعيش توترا نفسيا بحكم عدم امتثاله للقيم التي يقتضيها دوره الاجتماعي، وأفضى ذلك إلى انعزاله عن محيطه، و عن دوره على حد سواء.

يكون انتحاره ثمرة شعوره الحاد بالذنب، فضلا عن كونه عدوانا مزاحا من الملك مصدر الإحباط إلى ذاته كموضوع بديل لأنه عجز عن إطلاق عدوانيته المباشرة عليه. و لعل انتحاره لا يعدو كونه انقلابا على النفس، حيث كانت ميوله العدوانية السادية؛ تحدوه للدفاع عن ابنه، و عن دوره الاجتماعي ككاهن؛ يمثل إرادة السلطة الدينية؛ لكن عجزه عن إطلاق عدوانيته جعلها تنقلب

[1] عبث الأقدار: ص 44، 45.

إلى النقيض، حيث غدت مازوخية تدميرية للذات. كما أن سلوكه الانتحاري هو بمثابة هروب من المسئولية المنوطة به ككاهن خاضع للسلطة السياسية لا للسلطة الدينية، و كأب عليه التجرد من غريزة الأبوة، و التشيؤ بحيث يغدو مجرد أداة تنفذ إرادة السلطة السياسية.

الحرمان من الأمومة

كانت "زايا" خادم زوجة الكاهن -التي كلفت بمرافقة سيدتها و ابنها الرضيع خلال هروبها من بطش الملك -امرأة عاقرا تعاني الحرمان من إشباع غريزة أمومتها، مما أورث حياتها الزوجية اضطرابا بحكم خلوها من الأطفال، و اتهام زوجها لها بعدم اكتمال أنوثتها، و أسبغ عليها ذلك تصورا سلبيا لذاتها أفقدها الثقة بنفسها، و أنوثتها معا. و تضاعفت حدة سوء تكيفها الزوجي بتهديد زوجها لها بالانفصال، مما غذّى شعورها بالدونية، و بالذنب اتجاه زوجها لعجزها عن إشباع حاجته النفسية للأطفال، و تفاقمت حدة قلقها باختفاء زوجها عنها .

هكذا يغدو الحرمان من الأمومة شكلا من أشكال الإحباط الذي يغذي ميولها الانحرافية، ويحدوها لاختطاف ابن سيدتها -موضوع النبوءة- في ظلام الليل لدى مداهمة قطاع الطرق لهما في صحراء سيناء. و تنفس بالتالي عن ميولها العدوانية التنافسية اتجاه سيدتها المكتملة الأنوثة، المتوافقة مع زوجها الكاهن، فضلا عن كونها ولية نعمتها، تحتل موقعا أدنى منها بمراحل؛ لأنها لا تعدو كونها خادما لها، غير مكتملة الأنوثة، سيئة التوافق مع زوجها. لذلك يغدو اختطافها الطفل بمثابة دفاع ضد وضعية القهر، و الحرمان، و التبخيس الاجتماعي. و هكذا يحل الاختطاف كسلوك انحرافي محل السلوك الإنجابي؛ لا سيما و أن امتلاك المرأة للطفل يعوّضها فقدان القضيب؛ باعتبارها كائنا مخصيا، لذلك ينفس الطفل عن عقدة حسد القضيب، و يلطف توترها، و يحقق لها الأمن النفسي؛ وليد إشباع حاجتها إلى الأمومة؛ لأن دورها كزوجة عقيم يحرمها من قداسة الأمومة.

أزمة الهوية و الانتماء

تتزوج الخادم "زايا" من "بشارو" رئيس مشروع بناء الهرم الأكبر، و يتبنيان الطفل المختطف "ددف"، و يكتمان عنه حقيقة تبنيهما إياه لدى بلوغه سن الرشد. و لعل ما حدا "بزايا" إلى الحرص على الكتمان أن مكاشفتها بحقيقة التبني تفضح انحرافها السلوكي، و تهز ثقة "ددف" فيها، و تعرض ارتباطه العاطفي بها إلى التذبذب، مما قد يشحنه بميول عدوانية اتجاهها؛ لا سيما و أن وقوفه على كونه ابنها بالتبني، قد يعيد تشكيل وعيه بذاته، فيؤثر على علاقته بذاته، و بالآخرين معا، مما يستتبع تغيير تصوره لأمه بالتبني، فتفقد هالة قداستها، و الرصيد العاطفي الذي نمته في وجدانه طيلة سنين

تربيتها له. و لذلك يحدوها خوفها من فقدان حبه، و تبعيته لها إلى تزييف وعيه بذاته، و بذاتها معـــا لتعيش دورها كأم.

أما زوجها "بشارو"؛ فيبدو أنه كان"يقدر وقع الصدمة على نفس الغلام البريئـــة الســعيدة، فيقشعر بدنه، و يذكر "زايا" و ما يحتمل من غضبها و سخطها، فيحجم إشفاقا، و هو ما فكـــر في ذلك عن سوء قصد؛ أو عن زهد في "ددف" و لكنه كان يعتقد أن هذه الحقيقة ستعلن عن نفسها إذا لم تجد لسانا يعلن عنها، و أن الخير كل الخير أن تكشف له الآن ليخلص من محنتها لا أن تدخر لـــه حتى يكبر فيضاعف له عذابها" [1].

هكذا يحتدم صراع الأقدام و الأحجام في طوايا نفسه بين مصارحته بحقيقتـــه، أو كتمانهـــا عليه، و يجعله وعيه بالآثار السلبية للمصارحة و الكتمان في موقف حيرة و تردد، لولا أن نبهه ابنـــه من زوجته المتوفاة عندما قال له" بألم و حزن عميقين:

-إن ددف أخونا، بل إن ما يربطنا به من الحب لأقوى من الأخوة الطبيعية، و ما الذي يضيرك يا أبتي لو أنك تركت الأمور على ما هي عليه، و لم تفاجئ الغلام العزيز بضربة الذل و المسكنة"[2].

هكذا جعله توحده النفسي بأخيه يشاركه و جدانيا أزمة الهوية و الانتماء، مما يمكنه من توقع الآثار النفسية السلبية التي قد تصيبه من جراء المصارحة، حيث تتمثل أعراضها في فقدانه الثقة بنفســه، و تأزم شعوره بالدونية، و شعوره بالإحباط العاطفي بحكم وعيه بعدم انتمائه إلى أبويـــه الحقيقيـــين، فضلا عن اتهامه لنفسه بكونه غير جدير بالانتماء إلى أبويه إذ لو كان كذلك لظل محاطا برعايتـــهما، و لم يتعرض للنبذ، و الإهمال الذي أفضى إلى احتياجه للتبني.

يعمل "بشارو" بمشورة ابنه بحكم ثقته في إيجابية تفكيره، و يكون موقفه بالتالي ليس اسـتجابة للاختيار الفردي الذي تمليه الميول و الرغبات، بل خضوعا للالتزام الاجتماعي الذي تدعو إليه القيــم الاجتماعية المقبولة.

إختيار المهنة

يختار "ددف" المدرسة الحربية ليكون ضابطا في الحرس الفرعوني بحكم ما يحيط هذه المهنة من وجاهة اجتماعية، تستقطب التقدير الاجتماعي، فضلا عن استهوائها للنساء لكونها ترمز إلى القـــوة،

---

[1] **عبث الأقدار** : ص 82 - 83.

[2] م.ن : ص 83.

والفحولة، و الحماية. كما تمثل الجندية قيم الذكورة من عدوانية، و شجاعة، و بطولة، و خشونة، وهي من سمات شخصيته الأساسية لذلك تاق للانتساب إليها باعتبارها تجسد ميوله، و أنماطه السلوكية، و تحقق له ذاته وفق المثل الأعلى الذي يرغب أن يكونه. كما تعكس رغبته في الانضمام إلى الحرس الفرعوني تطلعاته الاجتماعية إلى التقرب من الطبقة الاجتماعية المترفة ليستمد منها القوة لممارسة السلطة باعتبارها مجالا ينفس فيه عن ميوله العدوانية المقنعة، و المزاحة.

كان لإحدى ذكريات الطفولة أثر نفسي فعال في استهواء الجندية له، حيث أنه ما عتم يذكر مشهدا هزه من الأعماق، و انطبع في ذاكرته الباطنية يوم رأى فرقة الفرسان ذوي العجلات:التي رآها تشق طرق منف -يوم عيد بتاح- في صفوف متحاذية، منتظمة، لا تشذ عنها يمينا، أو شمالا، و لا إلى الأمام، و لا إلى الخلف، و الفرسان على العربات منتصبون لا يميلون، و لا يضطربون كأنهم مسلات مشيدة، ترمقهم، و ترنو إليهم عيون الحسان[1].

هكذا يتبين أن هذا المنظر أسهم في توجيهه المهني، لا سيما و أن قيم الفروسية كانت تستقطب الإعجاب و التقدير، مما يحمل أفراد المجتمع على تبنيها كشكل من أشكال الامتثال لأنساق القيم السائدة. و قد بلغ إعجابه بمنظر الفرسان مستوى التوحد النفسي بهم، مما حداه لمحاكاتهم ليكون هو نفسه موضوع إعجاب الآخرين، و تقديرهم.

الإحباط العاطفي و التعويض

يميل "ددف" إلى "مري سي عنخ" بمجرد أن أطلعه أخوه بالتبني على صورتها التي رسمها، ويحدوه الإيحاء الإيجابي إلى التعلق العاطفي بها، و يتعرض للإحباط العاطفي من جراء رفضها له، "ويصبح كثير التألم لكرامته، و كبريائه يسائل نفسه مغيظا محنقا: كيف أخيب هذه الخيبة، و ما ينقصني الجمال و لا الشباب و لا القوة و الغنى؟!.. و كان يديم النظر إلى المرآة، و يحدث نفسه ما الذي يعيبه؟ ما الذي ينفر الحسان منه؟ لماذا أصلته إهانة تلو إهانة، و سخرية بعد سخرية!! لماذا فرت منه كما يفر السليم من الأجرب؟ ثم يجد رغبة شديدة إلى معاودتها و ملاحقتها. و لكنه يذكر الشهر الطويل الذي تحجره فيه المدرسة بين جدرانها، فتذهب نفسه حسرات، و تسيل جوى و لوعة" [2].

هكذا تتعرض صورته عن ذاته للتشويه من جراء إخفاقه العاطفي، و يصاب بانخراج نرجسي حاد، ينجم عنه اهتزاز ثقته بنفسه، و باحترامه لها، مما يغذي شعوره بالدونية، و بعدم الكفاءة،

---

[1] عبث الأقدار:ص 81 - 82.

[2] م.ن: ص 126 - 127.

ويفضي إلى اضطراب عميق في شخصيته، لا سيما؛ و أن ثقته بسمات شخصيته الإيجابية، هو ما حمله على مغازلتها، و مكاشفتها بميوله. و ما أن تعرض للرفض حتى فقد الثقة بنفسه، و غـدا فشله في الحب بمثابة فشل في تحقيق الذات، و توكيد القوة بأبعادها الجسمية، و العقلية، و الاجتماعية. و زاده الفشل تعلقا بها، و حرصا على استمالتها لكونها أثارت نزعة التملك، و الغزو، و السيطرة الكامنة فيه، لأن الموضوع السهل لا يستهويه كلما تجاوب معه، و أذعن لرغبته بقدر ما ينجذب للموضوع الصعب الذي يحقق له -عن طريق المطاردة، و محاولة التملك. و السيطرة الشعور بالرضى، والإشباع[1].

هكذا جعله انجراحه النرجسي يجنح إلى الإصرار على المحاولة تحقيقا لذاته المبخسة، و توكيدا لقوته المقموعة، لا سيما و قد غدا نجاحه في الحب بمثابة علاج لانجراحه النرجسي الأليم. و لذلك يصاب بعصاب التعويض الذي تتمثل أعراضه في نشدان شتى طرق التعويض تحقيقا للتفوق رديف استقطاب الأنظار عند الظهور في شكل ذكوري كامل. و يبدو ذلك فيما حققه من تفوق ساحق على زملائه خريجي المدرسة الحربية في كل المباريات التي جرت بمناسبة حفل اختتام فترة التدريب، حيث كان على رأس الفائزين في سباق الخيل، و القفز على الحواجز، و إصابة الأهداف بالرماح والأقواس، و المبارزة بالسيف. هكذا حداه الصراع العصابي إلى إعادة صياغة صورة ذاته الحقيقية وفق صورة ذاته المثالية ليثبت للآخر المحبوب جدارته بالحب و بالتقبل، و ليجعلها إما تتجاوب معه لكونه ارتفع إلى مستوى ذاتها المثالية المتعالية، أو يجعلها تندم على رفضها إياه. و في كلتا الحالتين يكون قد قام بالتعويض الكافي عما استشعره من دونية، و تبخيس، وإحباط. و يتكشف لنا بالتالي أن الميول المكبوتة لا تتلاشى، بل تظل مترسبة في طوايا العقل الباطن؛ تفعل فعلها في المشاعر، و السلوك بصورة مباشرة؛ أو مواربة.

كما أن تفوقه في أعمال الجندية القائمة على قيم العنف، و القوة، يعكس شعوره بالإحباط العاطفي الذي ساقه إلى ممارسة السلوك العدواني، و التفوق فيه، مما ينم عن انفجار غريزية العدوانية في مباريات العنف كتعويض عن مواقف الضعف، و الإخفاق العاطفي؛ بحكم العلاقة الجدلية، القائمة بين العدوان، و الإحباط، حيث يزداد نزوع الفرد لممارسة العنف بقدر ازدياد شعوره بالإحباط العاطفي، أو إحباط، حاجاته النفسية؛ و الاجتماعية الأخرى. و يكون تفوقه بمثابة عملية تحقيق للذات من الوجهة النفسية، أما من الوجهة الاجتماعية، فهو حراك اجتماعي نحو الطبقة المترفة، لذلك تختاره السلطة لتستقوى به، بحيث تتخذه أداة بطش بخصومها، و أعدائها، و حماية لأفراد العائلة

---

[1] زكريا ابراهيم : **مشكلة الحياة**، الطبعة الأولى، مكتبة مصر، 1971، ص 141.

الملكية.ويتيح له انتدابه لهذا العمل مجالا اجتماعيا يعيد له اعتباره لذاته، لكونه يمكنه من صياغة صورة ذاته وفق القيم، و المعايير الاجتماعية الإيجابية .

الثنائية الوجدانية

يكتشف "ددف" -باعتباره رئيسا للحرس الملكي- أن الفتاة التي كانت قد رفضته من قبل هي الأميرة"مرى سي عنخ" بنت الملك خوفو، و أنها كانت تتنكر في زي الفلاحات كإجراء احترازي من المخاطر التي تترصدها في جولاتها الترويحية. و قد يكون ذلك التنكر مجرد حنين شعوري أو لاشعوري إلى حياة البساطة و الأمن. و قد يعكس شعورها بالملل من حياة الترف الأرستقراطي، أو شعورها بالذنب من جراء إغراقها في البذخ، بينما يكابد الفلاحون ألوان القهر الاجتماعي، لذلك تعمد إلى التنكر في زي الفلاحين لتتعين بهم تعينا زائفا، يخفف شعورها بالذنب، فضلا عن أن تجانسها الثقافي بالفلاحين يلطف التوتر الناجم عن عدم التجانس معهم.

أما "ددف"، فيعاوده الشعور بالحرمان، و الإحباط، و الدونية من جراء المعاملة الأرستقراطية الفظة المتعالية التي كان يتلقاها من الأميرة كلما أدى لها فروض الطاعة، و الولاء لدى دخولها القصر، و خروجها منه. و يدفعه تعلقه العاطفي بها إلى انقاذ أخيها الأمير "رعخعوف" من مخالب أسد هاجمه، و هو في إحدى جولات صيده، حيث أفضى التحويل اللاشعوري لعواطفه من شخص الأميرة إلى أخيها إلى انتقال مشاعره من المرأة المحبوبة إلى أخيها بحكم القرابة الدموية التي تجمعهما. و يتلقى مكافأة على عمله البطولي، تتمثل في تعيينه قائدا للجيش؛ يناط به أمر قمع ثورة بدو الصحراء.

تزوره الأميرة في مقر قيادته العسكرية بالصحراء متنكرة في زي الكهان، و تعترف له بحبها المكتوم منذ أول لقاء جمعهما حيث تقول له:

-كنت أنا أكافح كبريائي، و أجاهد نفسي، و ألقى منها عذابا واصبا

-كم كنت قاسية عليّ؟

-و كنت على نفسي أشد قسوة، أتذكر ذلك اليوم على شاطئ النيل؟

لقد عدت يومها [هكذا] يدب في أعماق قلبي قلق غريب، و علمت فيما بعد أنه قدر لقلبي أن يستيقظ على صوتك من سباته العميق، و اكتشفت هذه الحقيقة تقاسمني لذة المجازفة، و الخوف من المجهول، ثم ذكرت فخارك و اعتدادك بنفسك، فثرت، و تمردت، و كنت و كلما وقع نظري عليك قسوت على نفسي، و قسوت عليك.

فتنهد و قال في لهجة أسيفة:

-كم عذبني غروري! أتذكرين ثاني لقاء لنا في قصر صاحب السمو؟ لقد انتهرتني في شدة، و عنفتني تعنيفا قاسيا، و بالأمس لم تسمعي لشكاتي، و تركتني دون كلمة وداع، فهل تعلمين كم تعذبت، وكم تألمت ؟" [1].

يبدو أن تنكرها في زي الكهان لم يكن عبثا، بل كان المراد به -لا شعوريا- الاتشاح برموز الحب، و الخضوع في حضرة المحبوب، لأن الكهان يبدون في حضرة الرب المعبود علامات حبهم له، و خضوعهم لمشيئته طلبا لرضاه، و كذلك عمدت الأميرة إلى ممارسة دور الكهان في مواعيد لقائها بالآخر المحبوب، إذ تجردت من زي الإمارة الذي يرمز إلى السلطة، و الاستعلاء على الآخرين، واتخذت زي الكهان الذي يرمز إلى الخضوع للسلطة الإلهية؛ و يوحي بالحب، و الطاعة، و العفة، والخير، و يكون بالتالي أنسب إلى دورها كعاشقة من زي الإمارة الذي يشيع من حولها الرهبة والخضوع. و لعل زي الكهان بحكم رمزه للطهارة، و القداسة يداري ميولها الجنسية اتجاه الآخر المحبوب؛ لأن سلوكها العاطفي ينطوي على ميل جنسي مقنع؛ ينال من مكانتها الاجتماعية كأميرة تمثل السلطة، لأن السلوك الجنسي يجردها من هالة السلطة، و يختزل كيانها السلطوي في حدود جسدها؛ باعتبارها أنثى عاشقة؛ خاضعة في إشباع حاجاتها النفسية، و الجنسية للآخر المحبوب؛ لكونه انتقل من دور القائد التابع لسلطتها إلى دور المحبوب المتبوع، و المخضوع له لأن سيكولوجية الحب تضفي على الآخر المحبوب صورة مثالية تتنافى؛ و صورته الواقعية، مما يطمس معظم عيوبه، و يجعله كائنا يحتل موقعا خارج البناء الطبقي، و النزعات الثقافية، و العرقية، و من ثمة يغدو جديرا بالحب، والتضحية؛ لا سيما؛ و أن الميول العاطفية غالبا ما يشوبها الخداع الإدراكي لحقيقة الآخر المحبوب.

تبدو الثنائية الوجدانية في سلوك الأميرة اتجاه القائد حيث بدا عليها التناقض في تعاملها معه إذ جنحت إلى الخشونة، و النفور، و الاستعلاء في سلوكها الخارجي، بينما انطوى وجدانها على الحب، و الشوق، و عاشت بالتالي حبها له كتجربة وجدانية باطنية مكتومة. و تنم هذه الثنائية الوجدانية عن صراعها النفسي بين الأقدام، و الأحجام لكونها متذبذبة بين الانفتاح عليه، و مكاشفته بطوايا نفسها، و النفور منه لأنه دون مستواها الطبقي، و العرقي معا؛ و قد تكون هذه الثنائية مجرد انعكاس لصراع الأدوار الذي جعلها ضحية الثنائية القطبية المتناقضة بين متطلبات دورها كأميرة، قائدة، مهيبة، ودورها كامرأة، عاشقة، محرومة يحدوها شعورها بالحرمان العاطفي للتفاعل مع الآخر المحبوب، و لعل وعيها بكونها أميرة تمثل السلطة؛ و تمتثل لمقتضياتها حملها على الإسراف في

---

[1] **عبث الأقدار** : ص 184.

مداراة عواطفها بإبداء الجفوة، و الفظاظة، بحيث طغى دورها الاجتماعي كأميرة على دورها الإنساني كامرأة، و نم ظاهر سلوكها عن رفضها للأنوثة رديف التبعية للآخر المحبوب، مما جعلها تنفصم عن دوافعها النفسية، و تتقنع بالاستعلاء عليه بحكم تصورها لنفسها، و لطبقتها، و للسلطة التي تنتمي إليها، و تمثلها على حد سواء، لا سيما و أن كونها أميرة كرس فيها أنساقا من القيم الاجتماعية، والأنماط السلوكية بحيث تعذر عليها ممارسة دور المرأة العاشقة الباحثة عن الحب، و الزواج، والأمومة لكونه يتعارض و الدور السياسي المنوط بها أداؤه من حيث كونه يقتضي منها الاتسام بالاستعلاء، والصرامة، و الجفوة لدى اتصالها بأفراد حاشيتها.

كما أن إبداءها لسلوك خارجي، لا يعبر عن ميولها، و رغباتها، ينم عن تعرض تلك الرغبات و الميول " لآلية القلب" التي تغير الميول إلى نقيضها، بحيث يصير الميل نفوراً، و الحب كراهية، والخضوع سيطرة، و هكذا دواليك ..لذلك عمدت -بصورة لا شعورية- إلى سلوك خارجي، يتنافى و سلوكها الداخلي، فضلا عن كون هذه الثنائية الوجدانية قد تكون نتيجة "آلية الإلغاء" التي تتمثل في قيام الشخص بسلوك يختلف عما يشعر به، و يفكر فيه لكونه مستهجنا منه، أو من الآخرين، مما يحمله على كتمان حقيقة مشاعره وراء قناع براق يرضى الآخرين عليه.

يعزى ذلك لكون تعلقها -باعتبارها أميرة- بضابط في حرس أبيها أمرا لا يستسيغه المحيط الاجتماعي الذي تنتمي إليه، و قد يصمها بوصمة العار التي قد تجردها من لقب الإمارة، و امتيازاتها الاجتماعية و السياسية، لذلك جنحت إلى آلية الإلغاء تجنبا للمحاذير الناجمة عن تعلقها العاطفي. ولعل مصارحتها إياه بحبها بعد تعيينه قائدا للجيش دلالة نفسية عما جعلها تقع فريسة الثنائية الوجدانية، و يتمثل ذلك في كونها لم تكن ترى فيه موضوعا عاطفيا مقبولا على الرغم من توفر الشحنة الوجدانية؛ لذلك كبتتها بإرادتها الحرة؛ لكونها لم تكن تتطلب من الآخر المحبوب الإشباع العاطفي و الجنسي فحسب؛ بل التجانس الاجتماعي، لذلك تحررت من الثنائية الوجدانية، و من صراع الأقدام و الأحجام بمجرد تعيينه قائدا للجيش؛ لأنها رأت في ذلك دلالة اجتماعية على تحقيقه للصعود الطبقي إلى نخبة المجتمع التي يستند العرش الملكي عليها في ممارسة نفوذه، و الحفاظ على بقائه، و هكذا يغدو الأخر المحبوب قريبا من مستوى اختيارها النرجسي، و الاجتماعي.

الزهد و أبعاده النفسية

يعتكف الملك "خوفو" في حجرة التابوت الواقعة في باطن الهرم الأكبر، و يهمل ممارسة السلطة، و يتفرغ للتأمل، و التأليف، و يزهد فيما كان حريصا عليه من مظاهر الوجاهة، و النفوذ السياسي؛ مما يوحي بكون تغيره السلوكي؛ هو في جوهره تغيراً في أنساق القيم التي يتبناها، و قد

أملتها عليه آليات الضبط الاجتماعي كالمعتقدات الدينية، و الأساطير الشعبية، فضلا عن الطبقة الاجتماعية، و المستوى التعليمي، و الدور الاجتماعي؛ و تظافرت هذه العوامل الاجتماعية على حمله على ممارسة هذا السلوك بعينه، فضلا عن أثر خبرات الطفولة في محيط أسري زوده بتوجيهات، وتفضيلات عن طريق الإيحاء الإيجابي بوجوب تبني قيم الزهد، و العزلة، مما أثر على سلوكه في مرحلة الشيخوخة.

لعل عقدة بوليكراتس أسهمت في سوقه إلى الزهد بوصفه سلوكا دينيا يراد به التضحية تلطيفا من شعوره بالذنب، و بالقلق، و الخوف على مصير العرش، فضلا عن أن عصاب الموت المسيطر عليه حمله على الاعتكاف في حجرة التابوت ليعيش بالتالي حالة فقدان الشعور بالواقع، وهي بمثابة آلية دفاع للتخفيف من قلق الموت بمحاولة التكيف مع مكان الموت، و أجوائه. كما أن العكوف على التأليف هو بمثابة مقاومة رمزية لعوامل الفناء التي تهدده، بحيث يجعل من الكتاب امتدادا طبيعيا لذاته، و إذا تعرض جسده للموت ظل ينعم بالخلود المعنوي المتجسد في كتابه، و يصير التأليف بمثابة عملية تسام تنقل ذاته من أبعادها الجسدية الآيلة للفناء إلى أبعادها الروحية المتشحة بطابع الخلود، فضلا عن كون الكتاب يتوخى بوصفه خطابا معرفيا الاتصال، و الإقناع، و التأثير يضفي عليه طابع السلطة المعرفية الخالدة التي تنوب سلطته الزمنية الصائرة إلى الزوال.

هكذا يتكشف لنا أن زهده في السلطة، و مظاهر وجاهتها، لا يعدو كونه طموحا زائدا للبقاء فيها، و إن اتخذ أنماطا سلوكية مناقضة له في الظاهر بحكم عدم تطابق دوافع سلوكه الداخلية، و أنماط سلوكه الخارجية، كما أن حاجته النفسية للإبداع يراد بها تحقيق الذات في الحاضر، والإفلات من الموت في المستقبل ما دم دوره السياسي كملك لا يشبع حاجته لتوكيد الذات، و القوة؛ مما حمله على البحث عن السلطة المعرفية تعزيزا للسلطة السياسية، و تخليدا لها، و ليس انفصالا عنها، أو زهدا فيها.

تحقق النبوءة الأسطورية

ينمو إلى علم القائد "ددف" أن الأمير "رعخعوف" ينصب كمينا لموكب والده الملك لاغتياله، و الاستيلاء على العرش، فينبري لإحباط الخطة، و الإجهاز على الأمير و أعوانه. و تتحقق النبوءة الأسطورية المتمثلة في تعيين الملك خوفو قائده "ددف" وليا للعهد مكافأة له على ولائه، ويوافق على زواجه من ابنته الأميرة، و يعد ذلك بمثابة خرق للتقاليد الملكية جاء كرد فعل على خرق ابنه للقيم، و المعايير الأخلاقية بمحاولته اغتياله.

هكذا يزيح الملك ميوله العدوانية الانتقامية من ابنه إلى أفراد العائلة الملكية، حيث أراد الانتقام منهم مادام لم يستطع الانتقام من ابنه المعتدي. و إذا كانت محاولة الاغتيال تتوخى تنحيته من العرش، فقد أراد بتعيين قائده تنحية أفراد العائلة الملكية من العرش. و يغدو هذا الإجراء السياسي عملية تنفيس عما يكابده من ميول انتقامية اتجاه ابنه الذي أورثه صدمة نفسية انهارت طاقته العصبية من جرائها، و عجلت بموته. و لعل الملك كان يتوقع عدوان أفراد العائلة الملكية عليه، مما حداه لالتماس الأمن، و الحماية من قائده؛ باعتباره يرى فيه صورة ابنه المثالية -كما ينبغي أن يكون- مدافعا عن العرش و صاحبه، لا خائنا للعرش و صاحبه، لذلك حوّل ميوله العاطفية الأبوية من ابنه غير المرغوب فيه إلى بديله الذي يمثل القيم الإيجابية الكفيلة باعتلائه العرش عن استحقاق، لا عن وراثة. و لعل تفاني القائد "ددف" في خدمة الملك، و وفاءه له بمثابة عملية تقرب من السلطة السياسية؛ لا سيما؛ و قد أدرك أن الحراك الاجتماعي في المؤسسة السياسية القائمة تقتضي تمتعه بقيمتين إيجابيتين تحكمان علاقته بالملك و حاشيته، و هما قيمة الثقة، و قيمة الكفاءة، و مادامت قيمة الثقة؛ قد تحققت لدى تعيينه قائدا للجيش، فقد كان يسعى لإثبات كفاءته القتالية، و القيادية للملك لتتضاعف ثقته فيه، بحيث ينال المكاسب، و المناصب من جراء ذلك.

و كان سلوكه السياسي خلال حراكه الاجتماعي مدفوعا بطموحه السياسي، وليد شعوره بالدونية الذي حداه للتعويض الإيجابي بحيث تبلغ شخصيته الصورة المثالية المرتسمة في عقله الباطن.

التفكير الأسطوري و أنماط السلوك:

تستعرض رواية "رادوبيس" السلوك الديني الذي يمارسه الكاهن الأكبر لمعبد الرب "سوتيس" حيث كان يراقب النجوم لمعرفة موعد فيضان النيل الذي يبشر به بزوغ الشعري اليمانية؛ ألمع نجم في السماء، كان قدماء المصريين يتبركون به؛ باعتباره إلها معبودا، و بشيرا بفيضان النيل [1].

ينم سرور الكاهن الأكبر برؤية الشعري اليمانية عن ارتياحه بعد أن أدى دوره الاجتماعي المنوط به، الذي كلفه سهرا طويلا أرهق صحته، فضلا عن كون رؤيته للنجم المعبود، تؤكد ذاته بما تجلبه له من تقدير اجتماعي باعتباره وسيطا بين الرب و عابديه. لذلك كان صياحه لإيقاظ الناس بمثابة وسيلة تحقيق لذاته، تشعره بالاستعلاء على الآخرين بحكم قداسة مركزه الاجتماعي، أما استيقاظ الآخرين بسرور؛ فدلالة اجتماعية على شعورهم بالحماية النفسية، و المادية، لأن طلوع النجم المعبود، يشملهم بالثقة بالذات، التي يستمدونها من إيمانهم به، الذي يسبغ عليهم الشعور

---

[1] أدولف أرمان: **ديانة مصر القديمة**، ترجمة عبد المنعم ابو بكر، مكتبة البابي الحلبي بمصر، ص 27.

بالاطمئنان على مستقبلهم المهدد بشبح الجفاف المنذر بالجوع، و الموت، و الشتات، بينما طلوعه يعدهم بموسم زراعي يحقق الأمن الغذائي؛ رديف الأمن النفسي، و الاستقرار الاجتماعي.

يبدو التداخل الشديد بين العوامل الاقتصادية، و الدينية، و النفسية بحكم ارتباط السلوك الديني بالحاجات المادية، لأن مراقبة الكاهن لطلوع النجم المعبود بمثابة دراسة استشرافية لآفاق الاقتصاد. كما أن التفاف الشعب حول قيادته السياسية، و الروحية بمناسبة طلوع الشعرى اليمانية، هو ولاء سياسي، و روحي بحكم تحقيقها للاستقرار الاقتصادي، لأن طقوس الاحتفال الديني بفيضان النيل، هي في حقيقة أمرها، لا تعدو كونها طقوس احتفال بإشباع غرائز الحياة المتمثلة في غريزة العطش، و غريزة الجوع، و غريزة الجنس..

ينم حضور فرعون، و أركان قيادته السياسية، و الروحية مهرجان عيد النيل عن حاجته النفسية لاستقطاب حب الآخرين لأنه يشبع حاجته إلى الحنان، و عشق الذات، و حاجته إلى القيادة، و السيطرة على مصير الآخرين، لأنه يستمد شرعية سلطته من قيم الإيمان بهذه الطقوس الدينية. كما أن احتفاله بعيد النيل، هو احتفاء بالرفاه المادي الذي يسبغ الاستقرار على سلطته التي تدين لفيضان النيل بالثبات و البقاء.

يكون التفكير الأسطوري؛ هو المنهج السائد في الأوساط الروحية، التي تتوسل به في تفسير الظواهر الطبيعية بعوامل خارجة عن طبيعتها، و أسبابها، حيث ينطلق الخيال بعيدا عن الواقع من الوجهة النظرية، أما من الناحية العملية؛ فهو ينشر نسقا من القيم الخرافية، التي تكرس البناء الطبقي، والنظام الكهنوتي معا.

لعل لجوء الإنسان المصري القديم إلى السيطرة الخرافية على المصير، يعزى لعجزه عن تحمل وضعية العجز؛ التي يواجه بها قوى الطبيعة، مما ألجأه إلى السلوك الخرافي بوصفه حلا يستوعب مأساته"ويقيض له شيئا من السيطرة عليها، و إلا أصبحت الحياة مستحيلة ...و إذا عزت السيطرة المادية على المصير، حاول المرء توسل الأوهام يعلل بها النفس، و يجمل بها الواقع، و يستعين بتصوراتها على تحمل أعبائه، و بذلك يصل إلى شيء من التوازن الوجودي الضروري لاستمراره"(1).

كما أن التفكير الأسطوري؛ هو بمثابة تفسير متكامل للعالم، أو لمجموعة من ظواهره، كان يمثل أولى مراحل التفكير التي اهتدى إليها الإنسان المصري لفهم ظواهر الطبيعة بحكم قصور معرفته بها، مما حمله على تأسيس نسق من القيم الخرافية علل بها تعليلا خرافيا ما غمض عليه فهمه.

---

(1) مصطفى حجازي : **التخلف الاجتماعي**، ط2، معهد الإنماء العربي، بيروت 1980، ، ص 145.

موقف الجنسين من الجمال الأنثوي

عندما تهل "رادوبيس" الراقصة الجميلة على الجماهير المحتشدة بمناسبة الاحتفال بعيد النيـــل، يظهر الاختلاف جليا بين اتجاهات الرجال و النساء من الجمال الأنثوي، حيث "فتن الناس منظرهـــا كافة، و حرك قلوب الشيوخ الفانية، فصوبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية، لـــو عـــثرت في طريقها بصوان لإذابته، و رمقتها أعين النساء شزرا و مقتا، و سرى الهمس بين المحيطين بها، و انتقـــل الحوار من فم إلى فم:

-يالها من امرأة فاتنة.

-رادوبيس يسمونها ربة الجزيرة!

-هذا جمال قهار .. لا يمكن أن يعصاه قلب..

-هو اليأس لمن يرى ..

-صدقت فما وقعت عليها عيناي حتى قامت في نفسي ثورة جامحة، و نؤت بأعبـــاء ظلـــم فـــادح، وأحسست بتمرد شيطاني، و صدت نفسي عما بين يديّ، و غلبني على أمرى الخـــذلان، و الخـــزي الأبدي..[1] ".

لعل افتتان الرجال بالجمال دلالة على عمق الحرمان الجنسي، و عـــن حاجتـــهم لامتلاكـــه للتخفيف من الحرمان من الوسامة، كما أن الجمال يسبغ على مشاهديه متعة؛ فضلا عن كونه و عـــدا بالسعادة، و تعد مجاهرة الرجال بإعجابهم بالجمال على مسمع من الآخرين بمثابة استعراض لمظـــاهر الفحولة الجنسية، إما للتنفيس عن الكبت، أو لتغطية الشعور بالفتور، و العجز الجنســـي، أو لمجـــرد محاكاة الآخرين لتحقيق التجانس معهم تجنبا للشعور بالمغايرة.

أما موقف النساء من الجمال؛ فقد كان مغايرا تماما لموقف الرجال حيث "كانت إمرأة تصغى إلى هذا الحديث، فضاق صدرها، و قالت بجفاء:

-ما هي إلا راقصة ..تربت في بؤرة الفساد و المجون، و وهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة و الغواية، و أجادت فن المساحيق، فتبدت في هذا المظهر الكاذب الخلاب..

فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين، فقال :

-معاذ الرب يا سيدتي، ألم تعلمي بعد بأن جمالها الرائع ليس كل ما وهبتها الآلهة من ثـــراء؟.. و أن توت لم تبخل عليها بنور الحكمة و العرفان! ..

-بخ..بخ..من أين لها بالحكمة و العرفان، و هي تنفق عمرها في إغواء الرجال" [1].

---

[1] نجيب محفوظ: **رادوبيس**، مكتبة مصر، ط6، القاهرة، 1967، ص 11 – 12.

–بخ..بخ..من أين لها بالحكمة و العرفان، و هي تنفق عمرها في إغواء الرجال" [1].

يبدو موقف النساء من الجمال موقفا أخلاقيا، لا ينسجم و طبيعة الموضوع الجمالي الذي يقتضي إما الاستحسان، أو الاستهجان، أو الحياد، أو ماشاكل ذلك، أما إصدار الأحكام الأخلاقية على الجمال؛ فهو استهجان مقنع، لأن نعت الجمال بالفساد و الخلاعة؛ هو بمثابة نيل من قيمته الجمالية، و اعتراف ضمني به، لأن النساء لم يعبن على رادوبيس عدم تناسق ملامح صورتها الجسمية؛ بل عبن عليها تبنيها قيما اجتماعية منحرفة. و ينم موقفهن الأخلاقي على رفض المرأة الجميلة باعتبارها منافسة لهن في نيل الحظوة لدى الرجال، لذلك استعرضن انحراف سلوكها امتصاصا لإعجاب الرجال بها، و إيحاء سلبيا بعدم جدارتها بالإعجاب و الحب، و هكذا يغدو الخطاب الأخلاقي الطهراني؛ وسيلة إيقاظ لفعالية الأنا الأعلى لتبطل فعالية الليبدو التي أورثت الإعجاب بالجمال الأنثوي، بوصفه موضوع متعة جنسية كما ينم موقفهن عن الشعور بالحسد لكونهن يرين رادوبيس منافسة لهن في نيل الحب و الإعجاب.

الغضب تحقيق للذات

عندما سمع الملك –أثناء مرور موكبه بالجماهير المحتشدة– نفرا من الناس يهتفون باسم رئيس وزرائه "خنوم حتب" شعر بانجراح نرجسي حاد؛ لأن هتافهم بمثابة مبايعة لرئيس الوزراء باعتباره الأجدر بالقيادة، و العبادة، مما أورثه الإحساس بالدونية اتجاه تابعه الذي هو صنيعة يده، و هو بالتالي دونه مركزا و نفوذا. و تضاعف غضبه على رئيس وزرائه لدى اعتراضه على قراره بضم أراضي المعابد إلى أراضي التاج لاستغلالها في بناء القصور، و زراعة البساتين بحكم تمثيله لإرادة النظام الكهنوتي، و سلطته الروحية، و إرادة الملك كانت خروجا عن التقاليد الملكية المتوارثة التي اعتبرها مجرد عوائق تحول دون إشباع ميوله الاستحواذية، و الترفية مما حداه لإبطالها لكن حيلولة رئيس وزرائه دون ذلك أحبط نزعته التملكية، و حاجته إلى الوفرة، و ميله إلى السيطرة بوصفه ملكا متوجا، و أشعره بأنه يمثل سلطة صورية لكونه مجرد ملك يقود؛ و لا يحكم، لذلك كان انفعال الغضب دلالة نفسية على شعوره بفقدان الأمن، و بالتهديد الذي يطال كيان شخصيته القيادية، مما يحمله على المبادرة بالدفاع عن كيانه، و سلطته باعتبار الغضب سلوكا دفاعيا عن الذات المهددة بالأخطار المادية، و المعنوية معا. كما أن انفعال الغضب يعكس الشعور بالقوة، و التفوق على المغضوب عليه، مما يجعل الغضبان مشحونا بميول عدوانية تدميرية له[1].

---

[1] المصدر السابق : ص 12 – 13.

[1] يوسف ميخائيل أسعد: **سيكولوجية الغضب**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987، ص 58.

تعلق الملك برادوبيس

يتدخل عنصر "الفانتازيا العجائبية" في ربط وشائج العلاقة العاطفية بين الملك فرعون، والراقصة رادوبيس، و يتمثل هذا العنصر الأسطوري في التقاط النسر فردة صندل رادوبيس عندما كانت تستحم في بركة الحديقة، و إلقائه إياها في حضرة الملك، و هو جالس بين قائد الحرس طاهو -الذي كان على علاقة حب برادوبيس -و كبير الحجاب سوفخاتب الذي أخبر الملك بأن صاحبة فردة الصندل، هي رادوبيس، و أثنى على جمالها بما لم يرض عشيقها طاهو قائد الحرس، مما جعله يقول للملك:

"إنها امرأة يا مولاي قد طرق بابها رجال أبو وبيجه و بلاق ..و كان سوفختب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف، فقال و هو يبتسم ابتسامة غامضة ماكرة:
-على أية حال هي صورة أنثوية يا مولاي، جعلتها الآلهة آية على قدرتها و اعجازها [...]..
وتنهد طاهو يائسا، و حدج كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم معناها ثم قال:
-إن جمالها يا مولاي جمال شيطاني رخيص، لا تضن به على طالب!
فضحك الملك بصوت عال و قال: كلاكما يغريني وصفه[1]".

هكذا تفاعلت ثلاثة اتجاهات فيما بينها، يتمثل أولها في ممارسة كبير الحجاب إيحاءه الإيجابي على الملك لحمله على الاهتمام برادوبيس، فالتهيؤ النفسي للتعلق بها، لأن الإيحاء بطبيعته "عملية عقلية، ينجم عنها القبول دون تمييز، أو تمحيص للأفكار الناشئة في العقل، أو تحقيق تلك الأفكار على صعيد الفعل؛ أو المعتقد دون النظر النقدي فيها -مثل تأثير الكلمات، و المواقف، و الأفعال الصادرة عن شخص، أو أشخاص آخرين، أو المستندة- في ظل ظروف معينة على عمليات داخل عقل الفرد، و الإيحائية تدل على استعداد المرء لتقبل الإيحاء سواء كان ذلك بفضل ظروف آنية، أو كميزة موجودة عند الولادة، فهي استعداد آني، أو دائم لدى الفرد[2]". كما أن الإيحاء الإيجابي، يتم عن طريق العبارات، و الأفعال التي تحدث تأثيرا قويا في سلوك الإنسان، و تصرفاته، و تترك أثرا إيجابيا في النفس.

أما الاتجاه السلوكي الثاني؛ فيتمثل في الإيحاء السلبي الذي مارسه قائد الحرس "طاهو" لحمل الملك على النفور من عشيقته رادوبيس؛ لكونها مجرد راقصة ساقطة، و قد صدر إيحاؤه السلبي

---

(1) **رادوبيس** : ص 29 -30.

(2) أسعد رزوق و عبد الله عبد الدائم: **موسوعة علم النفس**، ط2،المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 1979، ص 54.

عن تعلقه بها، و رغبته في الاستئثار بها صونا لمشاعره النرجسية، مما يخدشها من منافسة غير متكافئة مع الملك؛ لكنه لم يستجب لإيحائه، و جنح للإيحاء الإيجابي، الذي ينم عن فعالية ميوله الجنسية، والتملكية التي تحدوه لامتلاك مصادر الثروة، و الجاه، و الترف سواء أكانت عقارا، أم نساء. و لذلك حداه الثناء الذي أزجاه كبير الحجاب في محاسن أنوثتها للتعلق بها، و الرغبة في تملكها بحكم ما يستتبعه ذلك من استقطاب للثناء، و الإعجاب الذي يردده الرأي العام حولها، فضلا عن قدرة كبير الحجاب على الإيحاء الفعال بحكم ما يتمتع به من ثقة؛ تفوق مستوى الثقة التي يحظى بها قائد الحرس نفسه.

كما أن خيبة كبير الحجاب في نيل الحظوة لدى رادوبيس، جعله يشعر بالحسد من قائد الحرس بحكم ما بينه و بينها من علاقة مخاللة لذلك نفّس عن ميوله العدوانية الانتقامية منه بإغراء الملك باتخاذها عشيقة له لإكراه غريمه على الانسحاب من منافسة قد تكلفه حياته. و هكذا يتم تبادل الأدوار بين كبير الحجاب، و رئيس الحرس الذي ينتقل من دور العاشق الموّفق في حبّه إلى دور العاشق الخائب؛ مثلما كان هو من قبل تماما؛ مما يخفف من رواسب شعوره بالإحباط و الإخفاق. وهكذا يحقق كبير الحجاب عن طريق الإيحاء الإيجابي الرغبة المكبوتة بتماهيه بالملك بحيث ينتقم من غريمه، و يشبع رغبته الجنسية المكبوتة نحو المرأة المحبوبة عن طريق التماهي اللاشعوري الذي هو "تعيين إسقاطي" يجعل الشخص يتصور نفسه، و قد اندمج بشخص آخر تتوفر فيه القوة التي افتقدها في نفسه، و وجدها في شخص أقوى منه، إذ يسعى عن طريق الآخر لتحقيق الإشباع، و يحسب أن كل ما يحققه الآخر من إشباع، هو إشباع لنفسه هو [1].

الحاجة إلى التخفيف من الشعور بالذنب

عندما تدرك رادوبيس أن الملك يحبها، يحدوها الشعور بالذنب لمكاشفته بحقيقة كونها راقصة مومسا، و تبدي له رغبتها في التوبة قائلة له:

"لتكن مشيئتك يا مولاي، و إني أقسم بحبي لأذهبن الغداة إلى معبد الرب "سوتيس"، و أغسل جسدي بالزيت المقدس، لأطهر نفسي من الماضي الشقي، و أعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد، كزهرة تشق الأكمام، و تتصدى لشعاع الشمس[2]".

يبدو أن مكاشفتها إياه بحقيقة ممارستها البغاء؛ لا يعدو كونه وسيلة دفاع عن الذات، اتخذتها كسلوك سبقي توقعي، أرادت به إدانة نفسها خشية إدانة الآخر المحبوب لها، لأن انفضاح انحرافها

---

[1] أسعد رزق و عبد الله عبد الدائم: **موسوعة علم النفس و التحليل النفسي**، الجزء الأول، ص 378.

[2] **رادوبيس** : ص 85.

السلوكي، قد يفصم علاقتها بالملك، لذلك أبدت رغبتها في التوبة باعتبارها رغبة في محو وصمة العلو الاجتماعي لكيلا يكون انحراف ماضيها عائقا يحول دون استمرار علاقتها بالملك الذي يمثل الطبقة المترفة التي تتوق للانتماء إليها متوسلة بكل الوسائل الاجتماعية، و اللاهوتية.

يرمز الاغتسال بالزيت المقدس إلى التطهر من الذنب لتكون في مستوى الشخصية التي ارتبطت بها عاطفيا، و اجتماعيا؛ مما يقتضي منها تبني مبدأ التوحيد العاطفي؛ رديف جدارتها بثقة، وحب قمة الهرم الطبقي . و هكذا يغدو المثل الأعلى للذات منبها لإرادة الفعل في شخصيتها؛ بحيث يحدوها إلى التأثير في الملك عن طريق الحنان، و الجنس، و الإقناع العقلي لتسخره لإنجاز طموحها الاجتماعي؛ لأن رغبتها في التوبة عملية إقناع للملك بقدرتها على الارتفاع إلى مستوى شخصيته، وطبقته معا؛ لا سيما؛ و أن علاقتها بالملك تنسجم و اختيارها النرجسي، إذ ارتبطت به لتتشبه به، وتتماهى بشخصيته لتستمد منه السلطة، و الثروة، و تستقطب حب الشعب، و خضوعه أيضا.

انجراح الملكة النرجسي

تتمزق الملكة نفسيا بين ميولها العدوانية الانتقامية، وميولها المازوخية الخاضعة للأمر الواقع لدى بلوغها خبر خيانة زوجها لها مع عشيقته رادوبيس، ويبلغ بها التذبذب النفسي مستوى يعوقها عن القيام بسلوك يرد لها اعتبارها لذاتها، ويحصّن موقعها من التهديد الذي غدا ماثلا لكون غريمتها قد "جذبته إليها بعنف، وملكت عواطفه، وعقله جميعا، واستأثرت به دون زوجه، وحريمه، ورجاله المخلصين، ولعب بها الأمل الخادع حينا، ثم أسلمها اليأس، يأس مكفن بكبرياء، فأحست بقلبها يتجرع سكرات الموت.وكانت تأتي عليها أحايين، يثب الجنون في دمائها، وتشع عيناها نورا خاطفا فتهم بالوثب، والبطش، والمنافحة عن قلبها الكسير، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد: كيف يصح لنيتوقريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب؟ فتبرد دماؤها،ويتجمد الحزن في قلبها كالسم الفاتك في المعدة "[1].

هكذا ينشب الصراع النفسي بين صورة ذاتها المثالية كملكة متوجة؛ لا ترى في رادوبيس سوى جارية، لا ترقى إلى مستواها، وصورة ذاتها الواقعية كأنثى تنجرح نرجسيتها بمجرد ظهور أي امرأة في حياة زوجها لكن صورة ذاتها المثالية تجعلها تميل إلى التبلد الوجداني، فينطفئ شعورها بالغيرة وليد ثقتها بنفسها، وبمركزها. أما صورة ذاتها الواقعية، فهي رهينة الشعور بالدونية، و القلق، والإحباط المفجر لنزعتها الانتقامية التدميرية. و تطغى صورة ذاتها المثالية، و قوامها الصبر، و الرزانة على صورة ذاتها الواقعية التي تحدوها إلى العدوان، و الانتقام. و مادامت تلك القيم الاجتماعية السلبية

---

[1] المرجع السابق : ص 107.

تعرضها لقوانين الضبط الاجتماعية كالعقاب، و الطلاق، و العزل -بحكم عدم جواز تدخل الملكة في حق الملك في التسري بالسرائر و الحرائر- لذلك عمدت إلى ضبط انفعالاتها، و دوافعها العدوانية.

الانتقام المقنع

هكذا يغدو تدخل الملكة في شئون السياسة متنفسا لميولها العدوانية الانتقامية المكبوتة، حيث اتخذت من شكوى رئيس الوزراء ذريعة لإحراج الملك، و تعطيل قراره بمصادرة أراضي المعابد، وضمها إلى أراضي التاج خلافا للتقاليد التاريخية العريقة التي تقضي باستقلالها عن سلطة التاج، وخضوعها لسلطة الكهان الذين يرصدون ريعها للأنفاق على التعليم، و الفقراء .

يحتج الملك على تدخلها معنفا إياها لكنها تواجهه قائلة بانفعال:

"-يسيء كل عاقل أن تنزع أراضي قوم حكماء لينفق ريعها في اللهو العابث.

فاشتد هياج الملك، و قال و هو يشير بيده مهددا :

-و يل للرجل الماكر.. إنه يغري بالشقاق بيننا؟.

فقالت بتألم و حزن:

-إنك تصورني لنفسك كطفلة غريرة ..

-ويل له .. لقد طلب مقابلة الملكة ليحادث المرأة المستترة في ثوبها الملكي.

فصاحت به حزينة متألمة:

-مولاي !..

و لكنه استطرد يقول مدفوعا بغضبه الشيطاني :

-لقد جئت يا نيتوقريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة في الوئام[1]".

يبدو انتقامها؛ و قد اتخذ قناعا سياسيا مخافة ما يترتب عن الانتقام المباشر من آثار سلبية، حيث أن نقمتها على انفاق الأموال من ريع الأراضي المصادرة؛ هو احتجاج لا شعوري، و رمزي على الخيانة لأن المال يرمز إلى الحنان الذي خص به عشيقته دونها، مما ينم على أن اعتراضها على قرار ضم أراضي المعابد إلى سلطة التاج، هو في جوهره اعتراض على تسخير ريعها للانفاق على عشيقته. كما أن اتساع رقعة أراضي التاج؛ يرمز إلى ازدياد سلطته، و فحولته، مما يتيح له الاستمتاع الجنسي بعشيقته، و بغيرها، لذلك اتخذت من معارضته لسياسته الاقتصادية وسيلة تقييد لسلطته، و تدجين لفحولته الجنسية بحيث لا يطلب غيرها.

---

(1) رادوبيس : ص 111.

أما اتهام الملك رئيس وزرائه بمحاولة انتهاك عرض زوجته؛ فينطوي على دلالات نفسية لا شعورية، تتمثل أولاها في إسقاط مشاعره المستهجنة بنسبتها إلى الآخر، بغية التحرر من عقدة الذنب الناجمة عن الخيانة، لذلك اشتبه في عفة رئيس وزرائه، كشكل من أشكال الإنكار اللاشعوري لميوله الانحرافية بعزوها للآخر.

ما دامت سلطته، و نفوذه بمثابة النواة المركزية لشخصيته، فهي تجسد عرضه، و شرفه الاجتماعي، و معارضة رئيس الوزراء قرار ضم الأراضي، يمثل في وعي الملك، و لا وعيه انتهاكا لشرفه، و نيلا من قدرته على توكيد ذاته، لذلك انبرى لاتهامه بمحاولة انتهاك عرض زوجته باعتباره مرادفا لمعارضته السياسية تماما. كما أن اتهام الملك رئيس وزرائه بانتهاك عرض زوجته، هو احتجاج لا شعوري على محاولة خصائه الجنسي؛ لأن قوة السلطة السياسية في لا وعي الملك، قد تكون مرادفا للفحولة الجنسية؛ أو رمزا لها، و ما محاولة إضعاف سلطته السياسية إلا عملية خصاء جنسي له. ولعل إثارة الملك موضوع الاتهام، هي آلية هروب لا شعورية من الموقف الحرج الذي ساقته زوجته إليه، مما حمله على طرح الاتهام تجنبا لإمكانية طرح زوجته لاتهامها، بحيث جعله حلا للصراع النفسي المحتدم في طوايا ذاته، و مسوّغا للاجهاز على معارضيه، ليكون بمقدوره تحقيق رغباته الجنسية، و التملكية والسلطوية دون شعور بالذنب.

محاولة تحقيق الأمن النفسي

يحدو التوتر النفسي الملكة إلى القيام بسلوك وقائي يحقق لها الأمن النفسي، يتمثل في اتصالها بغريمتها رادوبيس لإقناعها بحمل الملك على تغيير قراره بضم أراضي المعابد إلى سلطة التاج، و العدول عن الإنفاق الترفي المسرف، الذي حدته إليه علاقته العاطفية بها. و كان للملكة هدف تتوخى تحقيقه هو ممارسة ضغوط نفسية على زوجها بالاستعانة بغريمتها لتستقوى بها عليه، ما دامت لا تستطيع تطويع إرادته بنفسها، و لا منافستها فيه. و طالما أن سياسة الملك تشبع حاجات رادوبيس النفسية، والمادية، فقد رفضت الامتثال لمطالب الملكة حسدا لها على مركزها السياسي كزوجة لعشيقها الملك، لا سيما و أن مطالبها كانت بمثابة محاولة فك الارتباط العاطفي، و المادي بينها و بين الملك، لأن عدوله عن قراره يخفض نسبة ثروته، مما يستتبع انخفاض مستوى الاستهلاك الترفي الذي تنعم به.

تتحجج الملكة بالدفاع عن حقوق الشعب، و الكهان لكنها، في حقيقة أمرها، كانت تسعى لتحقيق ذاتها بإقصاء غريمتها عن زوجها، و بالتحكم في سياسة الإنفاق، لا سيما و أن مركزها السياسي مهدد بنقمة الكهان، و ثورة الشعب بحكم ما يردده الرأي العام عن علاقة الملك

برادوبيس،مما نال من صورتها السياسية كملكة متوجة، و جرح نرجسيتها كامرأة غيور على زوجها، و زج بها في منافسة، احتلت فيها موقعا دونيا أمام امرأة لا ترقى إلى منبتها، و مركزها معا.

عندما وقفت رادوبيس على حقيقة صورتها الاجتماعية السلبية في أوساط الشعب، حاولت إقناع الملك بالعدول عن سياسة الإنفاق المتخذة، و التنازل عن أراضي المعابد للكهان لكنه "هز رأسه بعنف، و قال بلهجة شديدة:

- أنت لا تدرين من الأمر شيئا يا رادوبيس، لقد قلت كلمتي فلم تحترم، و نفذت على كره، و لم يسكتوا عن الاحتجاج، و ما انفكوا يتحدونني، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها، و أتمنى دونها الموت. أنت لا تدرين معنى الهزيمة في نفسي، أنه الموت، و لو فازوا عليّ بنيل بغيتهم لوجدتني رجلا غريبا حزينا أسيفا، لا قدرة له على الحياة، و لا الحب" [1] .

أدركت رادوبيس أن استمتاعها بالترف محفوف بمخاطر تهدد علاقتهما معا، مما نغّص عليها قابلية الاستمتاع بالإشباع، و جعلها بالتالي تقف بين خيارين، إما القبول بترف مهدد بالتنغيص، أواختيار مستوى أقل ترفا لكنه خال من المنغصات؛ بيد أن إصرار الملك على قراره أعفاها من التبعات الأخلاقية المترتبة عنه، و لطف شعورها بالذنب الناجم عن اتجاهات الرأي العام نحوها باعتبارها سبب الغواية و الانحراف .

لم تكن رادوبيس مقتنعة بموقفها في دخيلة نفسها، بقدر ما أوحت به انفعالات القلق والخوف من اتجاهات الرأي العام السائد في الأوساط الشعبية، لأنها ما لبثت أن تخلت عنه، و تبنت موقف الملك المصر على سياسة إنفاقه المسرفة، و لم تسع إلى أسلوب الحوار، و الإقناع، و الإغراء لتطويع إرادته، واكتفت بمجاراة ميوله الاستبدادية، و التملكية باعتبارها تتجانس و حاجاتها النفسية و الاجتماعية.

لعل رفض الملك الانصياع لإرادة الكهان أمام عشيقته بمثابة توكيد لذاته الذكورية، و الملكية ليستهويها لكونه يدرك توقها لسلطته، و ثروته؛ فضلا عن كون سلوكه السياسي تحكمه دوافع السيطرة، و الاستعلاء، و الوفرة التي تتغذى باضطهاد الآخرين، بوصفهم كائنات شيئية، دونية، منوط بها تنفيذ إرادة الملك العليا، رديف الإرادة الالهية، التي لا اعتراض عليها تماما. كما أن الملك يصدر في سلوكه السياسي دائما عن مبدإ إشباع الرغبات، بحكم آلية العادة التي تكرست في شخصيته منذ نعومة أظافره، حيث يستجاب لكل أوامره، بحيث تتولد فيه آلية توقع تحقيق كل

[1] **رادوبيس** : ص 132.

رغباته، و يغدو بالتالي غير قابل للاعتراض، و يجنح إلى العدوان لدى ظهور المعارضة، لأن السلوك السياسي النزاع إلى السيطرة يرفض الاختلاف، لأنه يصدر عن شخصية تتسم بالجمود و الصرامة، والنزوع إلى تطويع إرادة الآخرين[1].

الخوف آلية دفاع عن الذات

تشعر رادوبيس بالخوف من ثورة الشعب، التي قد تطيح بالملك من عرشه، من جراء ما بلغها من أخبار، تنم عن اتجاهات الرأي العام المعادية للملك، و عشيقته.و لعل خوفها يعزى لشعورها بالذنب بحكم ضلوعها في دفع الملك، أو مجاراته في سياسة إنفاقه الترفي مما حملها على حثه على تجنيد الجيش ليضفى عليهما الأمن و الحماية.

تبدو رادوبيس ذات حدس مرهف، جعلها تتوقع سلوك الآخرين، مما حداها لحث الملك على اتخاذ إجراءات أمنية وقائية مبكرة للسيطرة على الثورة الشعبية قبل اندلاعها؛ لكون الاستعداد للخطر يمنع حدوثه، أو يخفف من آثاره السلبية.لكنها لما عجزت عن إقناعه بالاستعداد لمواجهة الطوارئ؛ خضعت لإرادته؛ لأنها تسبغ عليها الشعور بالأمن و الحماية.

يظهر الملك خاضعا في سلوكه السياسي لاندفاعاته،و نزواته لأنه "يتجاهل ضميره و حقوق الآخرين، بل و مصلحته العامة، و نموه في المدى الطويل . و يخضع كل ذلك للإشباع العاجل لحاجاته و اندفاعاته، و التعبير العاجل عن مشاعره. و يرمز [هكذا] المحللون النفسيون إلى هؤلاء الأفراد بأنهم شخصيات تسوقها غرائزها، فهم يعللون دوافعهم، و انفعالاتهم، و يعتبرونها المثل الأعلى، لأنهم لا يستطعون ضبطها[2]".

ذلك ما جعله يرفض الامتثال لنصائح زوجته، و رئيس وزرائه، و عشيقته، و طائفة الكهان، و قد حاولوا إقناعه عبثا بضرورة تغيير سياسته الاقتصادية، التي هي في جوهرها تجسيد لشخصيته بكل سماتها النفسية، و العقلية، و الاجتماعية .

و لعل ما جعله لا يبالي بمطالب الكهان، و بالمصلحة العامة للشعب تصوره لهم باعتبارهم قوى سلبية مسالمة، لا تشكل خطرا على عرشه، لكونها مجرد أدوات مسخرة لخدمته، حيث أن صورة

---

[1] يوسف مراد : **دراسات في التكامل النفسي**، مؤسسة الخانجي، ط1، بمصر، 1958، ص 147.

[2] سيدني م-جورارد: **الشخصية بين الصحة و المرض**، ترجمة حسن الفقي، و سيد خير الله، ط1مكتبة الأنجلو المصرية ، ، 1973، ص 345.

الشعب الراسخة في ذاكرة الأسر الملكية التي تعاقبت على السلطة في مصر مدعاة للاقتناع باستحالة ثورته.

كما أن تجسيد السلطة الملكية للإرادة الإلهية يعصم الملك من الشعور بالذنب و الخوف، ويدفعه لممارسة سلطته؛ كيفما توحي له دوافعه الشعورية، و اللاشعورية، لأنه يستمد شرعيته من إرادة الآلهة، لا من إرادة الشعب، لذلك يحتكم لقيمه، و اتجاهاته، و تطلعاته بوصفها تمثل الإرادة الإلهية لا إرادته الشخصية .

عصاب الوساوس

تستخدم رادوبيس الحيل التوافقية لمواجهة ظروف الثورة الشعبية التي كانت تتوقع نشوبها كاحتجاج اجتماعي على سياسة الملك الاقتصادية، و تعمد للتظاهر بالميل للفنان "بنامون" لاحتوائه نفسيا تحت سيطرة شخصيتها، فتطويع إرادته وفق إرادتها بحيث ينفذ لها رغبتها المتمثلة في حمل رسالة سرية؛ يتوقف عليها إنقاذ العرش الملكي.

يستولى عليها عصاب الوساوس؛ يتمثل في استدعاء ذاكرتها صورة عشيقها الأسبق قائد الحرس، فيطالعها شريرا، ناقما يدفع به إحباطه العاطفي للانتقام منها. و يتملكها الشعور بالذنب من جراء خداعها العاطفي له، و للفنان الذي جعلته ضحيتها الثانية من أجل حماية العرش الملكي، رديف حماية مجدها، و نفوذها.

يبدو أن رواسب الشعور بالإثم هي التي شكلت صورة عشيقها الناقم عليها، لكونها خانته، وآثرت الملك بعواطفها دونه، لذلك كانت تتوقع العقاب الذي سيطالها من جراء انحرافها؛ لا سيما وأن الظروف متاحة بحكم إطلاعه على الرسالة التي ستقرر سريتها مصير التاج الملكي، و الدائرين في فلكه.

كلما غذى العصاب الوسواسي القهري قلقها، و خوفها، و سوء ظنها بعشيقها الأسبق، أعقبته حالة استرخاء عصبي، يتهاود من جرائها أثر الوساوس، و يجنح بها الأمل إلى الاطمئنان النفسي، فتحسن به الظن، و تطالعها صورته مجسدة للإخلاص و الوداعة. و تكشف هذه الثنائية الوجدانية تصورها المزدوج لذاتها، و للآخر على السواء، حيث أنها تتصور ذاتها أحيانا تصورا سلبيا باعتبارها ضعيفة، بغيظة، مهددة بأخطار تأتيها من العالم الخارجي، مما يجعلها تتصور الآخر باعتباره مصدر استضعافها، و تهديدها لكنها ما تلبث أن تتصور نفسها تصورا إيجابيا في بعض الأحيان، إذ ترى نفسها قوية، محبوبة، فترى الأخر وديعا، مسالما، مخلصا.

تتحقق وساوس رادوبيس، حيث تقع الرسالة المنوط بها إنقاذ العرش الملكي في يد عشيقها الأسبق، فيفشي ما فيها للكهان الذين يحرضون الشعب على الثورة التي تنادي بسقوط الملك، وتفضي إلى مصرعه. و هكذا يغدو سلوك الوشاية تنفيساً عن الإحباط، و الخصاء، و الدونية. و يعزى الإحباط لحيلولة الملك دون استمرار علاقته العاطفية برادوبيس، أما شعوره بالخصاء، فهو نتاج تعذر ممارسة عشيقها الأسبق دوره كرجل مع المرأة المشتهاة بحكم حلول الملك محله. أما شعوره بالدونية، فهو وليد تبعيته المباشرة للملك، و خضوعه لسلطته في حياته المهنية، و الاجتماعية. و على الرغم من كون علاقته به ذات طابع رسمي في ظاهرها؛ فهي تنطوي على ميول عدوانية انتقامية؛ لم تجد لها متنفسا، حتى واتت الظروف السياسية، التي مكنته من تسريب أسرار البلاط إلى خصومه السياسيين، فاستقووا بها للإجهاز عليه.

هكذا بدا سلوك قائد الحرس اتجاه الملك مزدوجا حيث يتبنى ظاهريا قيم الطاعة، والانضباط، و الخضوع؛ لأنها من المعايير السلوكية السائدة لدى اتباع الملك، أما في الباطن فقد كان يتبنى قيم التمرد، و الانتقام، حيث يمثل سلوكه الخارجي دوره السياسي، و الأمني كقائد للحرس الملكي، بينما يجسد سلوكه الداخلي دوره الاجتماعي كعاشق محبط. و يكون سلوكه الانتحاري بعد رفض رادوبيس له بمثابة عدوان موجه للذات، باعتبارها غير جديرة بالحب، و التقدير،و الانتماء للآخر المحبوب، و لعل ما حمله على هذا السلوك التدميري للذات، أنه كان يريد توجيهه لرادوبيس الجافية المستعلية كشكل من أشكال الانتقام منها، لكن عجزه عن إشباع ميوله العدوانية الانتقامية، جعلها ترتد إلى الذات فتدمرها[1] لتورث الآخر المحبوب الشعور بالإثم باعتباره سبب الانتحار، و يتحقق بذلك الانتقام المنشود.

أما انتحار رادوبيس، فقد وقع بعد أن بلغها خبر مصرع الملك؛ مما ينم عن ارتباطها العاطفي به إلى درجة التوحد به المتمثل في كونها تراه في داخل ذاتها، و تتصوره جزءا من كيانها [2]، بحيث أشعرها مصرعه بانحلال روابطها بالحياة، مما ساقها إلى تدمير ذاتها.

---

[1] مكرم شاكر اسكندر: **أدباء منتحرون، دراسة نفسية**، دار الراتب الجامعية، بيروت 1992، ص 183.

[2] أسعد رزوق و عبد الله عبد الدائم: **موسوعة علم النفس و التحليل النفسي**: الجزء الأول، ص 378.

تستعرض رواية " كفاح طيبة "فترة احتلال الهكسوس لمصـــــر عـــام 1550 ق.م، حيـــث أخضعوا الأهالي لسلطتهم، و أسسوا سلطة مركزية ملكية الطابع، قلدوا فيها صفات و مظاهر الملـوك الفراعنة، و تبنوا اللغة الهيرو غلوفية، و بعض المعتقدات الدينية الفرعونيـــة لاســـتقطاب المصريـــين، واحتوائهم تحت سلطتهم السياسية. و اضطر أمراء منطقة طيبة لممارسة السلطة في منـــاطق نفوذهـــم باعتبارهم موالي بالإكراه [1]. لكن أحد الأمراء الطيبين نصب نفسه ملكا متوجا على طيبة متحديـــا السلطة المركزية التي يمثلها ملك الهكسوس.

هكذا؛ فقد كان موقفه السياسي، و ممارسته للسلطة وفق التقاليد الملكية الفرعونيـــة؛ بمثابـــة محاكاة للأنماط السلوكية لجماعته المرجعية السياسية، و عملية "إعادة إنتاج" المـــوروث الاجتمـــاعي السياسي الذي شكلته القيم الاجتماعية في وعيه، و لا وعيه لا سيما "و أن كل نمط ثقافي يميـل إلى أن يطبع أفراده بطابع خاص، و يظهر هذا التطابق بوضوح في السمات الدافعية كالاتجاهات، والحاجـات و الميول، و تعمل الثقافة من جانبها على تنشئة الأفراد على الخصائص التي تتطلبها فيهم" [2].

تنم نزعته الاستقلالية عن سلطة الهكسوس عن ميوله الانتقامية منهم؛ باعتبارهم غزاة محتلـين لبلده، قمعوا حاجته لتوكيد ذاته كملك، فضلا عن عدم شعوره بالانتماء النفســـي إليـــهم لكونهـــم أجانب، لا تتوفر فيهم السمات الثقافية لقوميته المصرية، مما جعلهم مصدر تهديد لأمنـــــه النفســـي، وسلطته السياسية، يغذي عصابا مرضيا هو الخوف من الأجانب. و يمثل نزوعه إلى الاستقلال حاجـــة من أهم حاجاته النفسية المتمثلة في الحاجة إلى الحرية؛ لأنها تمكنه من إشباع حاجته إلى السلطة كملك يتمتع بالحب، و التقدير، و الخضوع، و الشهرة، و الجاه الذي يسبغه عليه بنوقومه المصريون الذيـــن يحققون بانقيادهم لسلطته التعيين النفسي، الذي لا يحققه لهم ملوك الهكسوس، باعتبارهم أجـــانب. لذلك يغدو استقطابه للجماهير مدعاة للشعور بالقوة لكونه يمثل الأنا الجمعي للمصريين، مما يشـعرهم بالمباهاة القومية.

يوفد ملك الهكسوس رسوله إلى ملك مصر مزودا ببعض الأوامر لتطويع إرادة الاستقلال عن سلطته المركزية لكن الرسول يواجه برفض ملك مصر مطالب سيده:

---

[1] سير ألن جار ندر: **مصر الفراعنة**، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، 1973، ص 193.

[2] جابر عبد الحميد جابر و عماد الدين سلطان: **الفرد و سيكولوجية الجماعة**، دار النهضة العربية، مصر ، ص 174 - 175.

"-إذا سألني مولاي لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدا لست، فماذا أقول له ؟.
-قل له أن أهل الجنوب يعبدون آمون وحده..
-وإذا سألني: لماذا لا يقتلون أفراس البحر التي تقض مضجعي ؟.
-قل له إن أهل الجنوب يقدسونها..
-يا عجبا..أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر ؟.
فأطرق سيكترع مليا كأنه يفكر في الجواب، ثم قال بلهجة حازمة:
-إن أموفيس مقدس لديكم، وهذه الافراس مقدسة لدينا..[.. .]
وسرت موجة ارتياح في نفوس رجال الملك لهذا الجواب العنيف، أما خيان فقد اشتد بـــه الغضـــب، ولكنه لم يستسلم لسلطانه، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء:
-أيها الحاكم الجليل، كان أبوك حاكما على الجنوب، و لم يكن يلبس هذا التاج، فهل ترى لنفســك حقا غير ما كان يرى أبوك لنفسه ؟.
-لقد ورثت عنه الجنوب، وهذا تاجه منذ القدم، ومن حقي أن أتوج به رأسي...
-ولكن في منف رجل آخر يتوج رأسه بتاج مصر المزدوج، ويسمى نفسه فرعون مصر، فماذا تـــرى فيما يدعيه لنفسه ؟.
-أرى أنه اغتصب و أسلافه المملكة..[1] "

يبدو أن رفض ملك مصر مطالب ملك الهكسوس أشعره واتباعه بالحرية،و بالمباهاة القوميـــة، لاسيما وأن دوره السياسي كملك متوج؛ قوّى شعوره بذاته، وجعله ميالا لتوكيدها بحكم تجســـيده للأنا الجمعي، ومصالح الجماعات السياسية المسيطرة.و لم تكن أوامر ملك الهكسوس في حقيقة أمرهـا إلا إجراءات استصدار للإقرار بالتبعية لسلطة المركزية، لأن تخلي ملك مصرعن التاج المزدوج بمثابـــة إعلان للولاء، والخضوع لسلطة ملك الهكسوس، يشبع حاجته النفسية للسيطرة ، التي ينتج عن عـدم اشباعها التوتر والقلق، وفقدان الثقة بالذات، وبالآخرين معا.لذلك تكون حاجة الملك ماسة لخضـوع اتباعه بحكم ميوله التسلطية، والقيادية، وبحكم آليات ممارسة السلطة التي تقتضـــي إذعـــان المحكـــوم للحاكم.

أما مطالبة ملك الهكسوس ملك مصر بقتل أفراس البحر بحجة إزعاجها نومه، فهي تنطـــوي على حاجة ماسة للسيطرة؛ لا يشبعها إلا الخضوع التام، لا سيما و أن هذه الحيتان محاطـــة بقداســـة دينية في أوساط المجتمع، ومن ثمة يغدو الأمر بقتلها عدوانا على الهوية الثقافية القوميـــة، ودعـــوة إلى

---

[1] نجيب محفوظ: **كفاح طيبة**. مكتبة مصر، 1962. ص 25 ، 26.

تقديس ذاته الملكية على حساب هذه الحيوانات المقدسة. ويشي هذا الموقف بغيرة ملك الهكسوس اللاشعورية -ولعلها شعورية أيضا- من هذه الحيوانات لأنها تستقطب حب الناس، و ولاءهم بحيث دانوا لها بما كان يرغب في أن يدينوا به له من حب، و تقديس يرقى به إلى مستوى الملك المعبود.

أما مطالبة ملك الهكسوس بتخلي المصريين عن عبادة الإله "آمون"، و إحلال الإله "ست" محله؛ فهي في جوهرها عملية احتواء ديني وسياسي، يراد بها إخضاعهم لسلطته السياسية، التي تستمد شرعيتها من مرجعية دينية، يرمز الإله "ست" إليها، لاسيما وأن سلطة الملوك في مصاف الآلهة، وترتبط سلطة كل ملك بألوهية إله بعينه[1].

هكذا، فقد كان رفض ملك مصر مطالب الهكسوس عملية تخفيف من ألم الخضوع لسيطرة الأجانب السادية، حيث تداخلت حاجته لتوكيد ذاته الفردية، و ذاته القومية، لتحملاه على الدفاع عن هويته الثقافية القومية، بحكم رفضه للتجانس الثقافي مع الآخر المعتدي، لا سيما و قد بلغ التوحد النفسي بين ملك مصر، و بني قومه مستوى جعله يرى في تحقيق الذات القومية، و كرامتها، واستقلالها بمثابة تحقيق لذاته، و كرامته، و استقلاله على حد سواء، لذلك كان حواره السياسي السجالي مع رسول عدوه بمثابة صراع قومي حضاري، خاضه من أجل ذاته، و بني قومه، بحكم وحدة القيم، و الأهداف، والمبادئ، و الغايات.

انعكاس صورة الذات على صورة الإله

يكون رفض فرعون مطالب ملك الهكسوس بمثابة إعلان للحرب، و ينطوي هذا القرار السياسي على نزعة المباهاة القومية التي تغذي الغريزة القتالية لأن "الحفاظ على الذات من العوامل المذكية للروح القومية لا سيما إذا كان أفراد القومية يعيشون تحت خطر الإبادة ..."[2]. و لم تكن الإبادة التي شعر بخطرها المصريون إبادة جسدية فحسب، بل إبادة مقومات هويتهم الثقافية؛ صانعة اتزانهم النفسي، و مبرر وجودهم الاجتماعي، و ذاكرتهم الجماعية .

يبدو أن ملك الهكسوس، كان يدرك في بادئ الأمر استحالة التزام ملك مصر بأوامره، مما يسوقه إلى الرفض، الذي يستتبع إعلان الحرب، بحيث يثير النزعة القتالية الكامنة في بني قومه

[1] اتيين دريوتون و جاك فانديه: **مصر**، ترجمة عباس بيومي.مكتبة النهضة المصرية. ص90.

[2] هوراس دافير: **القومية**، ترجمة سمير كرم ، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980، ص 181.

الهكسوس لأن "كل حرب تتضمن جانبا يقوم بالعدوان، و هو ذلك الذي تكون نزعته الحربية هـــي الأقوى، وهو الذي يرغب أكثر في الصراع[1]".

و لعل صورة ملك مصرعن ذاته، هي التي أذكت فيه غريزة القتال، حيث وقـــف موقـــف التحدي اتجاه رسول ملك الهكسوس؛ بحكم وجوده بين اتباعه، و حرسه، مما جعله يتخـــذ قـــراره متأثرا بنظرة الآخرين إليه –سواء أكانوا اتباعه، أم أعداءه- باعتباره ســـليل الفراعنـــة، و الوريـــث الشرعي لتاجهم السليب؛ مما حداه للتعين النفسي بصورتهم السياسية، و التاريخية المرتسمة في وعيـــه، ولا وعيه سواء أتعلق ذلك بمظهرهم، أم بأنماط سلوكهم السياسية، أم بنزعتـــهم الاســـتعلائية اتجـــاه الآخرين.

و تكشف زيارة ملك مصر إلى معبد آمون قبيل اندلاع الحرب عن جملـــة مـــن الـــدلالات النفسية، و الاجتماعية؛ منها أنها من التقاليد الدينية الفرعونية العريقة، التي كان فراعنة مصر يمارسـونها تقربا من الآلهة لتشملهم بشفاعتها، و بركتها [2]. كما أن التقرب من الإله يعكس الشعور بـــالخوف من المجهول، و العجز أمام تحديات الواقع، و قوى الطبيعة، لذلك يغدو التقرب منه استقواء به علـــى مواجهة الضعف و العجز، و ما إبداء الحب في حضرته إلا لاستجلاب حبه، الذي يقي من الخـــوف، والقلق لأن الابتعاد عن الإله يورث الشعور بالذنب، و يوحي بتوقع حلول عقابه في صورة مـــرض، أوهزيمة، أو إخفاق.

يظهر سلوك الخضوع المبطن بالشعور بالذنب في شتى الطقوس الدينية، التي مارســـها ملـــك مصر، و اتباعه لدى دخولهم المعبد، حيث "قدم الجنود ثورا ذبيحا للرب، ثم طافوا جميعـــا بـــالمذبح، وبهو الأعمدة، و هناك وقفوا صفين، و أعطى الملك صولجانه لولي عهده الأمير كاموس، و ســـار إلى السلم المقدس، فارتقاه إلى قدس الأقداس، واجتاز العتبة المقدسة بخطى خاشعة، و أغلق وراءه البـــاب، فكأنما أدركه الغسق، و حنى رأسه، و خلع تاجه إجلالا للمكان المطهر، و تقدم نحو المحراب الثـــاوي فيه الرب المعبود بساقين متخاذلتين من الهيبة، ثم سجد عند قدميه، و لثمهما و سكن لحظة ريثما هـدأ أنفاسه المضطربة، و قال بصوت خافت كأنه النجوى: أيها الرب المعبود، رب طيبة المجيـــدة، و رب

---

[1] جاستون بوتول: **الحرب و المجتمع**، ترجمة عباس الشربيني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1986، ص 69

[2] أدولف أرمان: **ديانة مصر القديمة**، ترجمة عبد المنعم أبوبكر، مكتبة البابي الحلبي، مصر، ص 4.

أرباب النيل، هبني من لدنك رحمة و قوة، فإني اليوم أتعرض لتبعة خطيرة، إن لم تشدد فيها أزرى عييت دونها هي الدفاع عن طيبة و قتال عدوك و عدونا.."[1].

تكشف حركات جسم الملك التعبيرية عن ميوله الخضوعية للسلطة الروحية المتجسدة في تمثال الإله آمون، مما جعله يتجرد من رموز السلطة الزمنية كالتاج، و الصولجان قبل دخوله المحراب. وتنم حالته الشعورية و هو يؤدي طقوس العبادة عن فقدان الثقة بالنفس، و طغيان الشعور بالدونية والإثم، مما يشي بخوفه من عدم تقبل الإله عبادته، و إحلاله العقاب محل الثواب، و يظهر ذلك من خلال تخاذل ساقيه من الهيبة، و اضطراب أنفاسه، قد يكون دلالة نفسية على ندمه على قرار قد لا يقوى على تنفيذه، أو خوفه من الموت، الذي قد يترصده خلال الحرب الوشيكة الاندلاع . كما أن مظاهر الخضوع المازوخي للإله، قد تكون نتيجة التنشئة الاجتماعية المقصودة، و غير المقصودة؛ فضلا عن كونها عملية تقمص لا شعورية لسلوك أتباعه، ورعاياه لدى اتصالهم به، حيث انطبعت في عقله الباطن، و سلك بالتالي في علاقته بإلهه سلوك اتباعه معه ليخفف من شعوره بالذنب من جراء و قوفه على خضوعهم المازوخي له، لعله يستدر عطف الإله، و يحصل على رضاه مثلما استدر اتباعه عطفه بخضوعهم. و هكذا يبدو تصور الملك للإله لا يعدو كونه تصورا بشريا صرفا لأنه يدرك ذاته الإلهية عن طريق الإسقاط، و الاستبطان، بحيث لا يرى فيه سوى صورة ذاته بكل سماتها النفسية، والسلوكية. و قد يكون شعوره بالإثم ناجما عن وعيه بتضاؤل صورة ذاته الواقعية بالقياس إلى صورة ذاته المثالية كملك متوج، تقتضي منه الظروف السياسية قيادة الصراع لتحقيق أمن قومه، وخلاصهم، بينما هو دون مستوى التحديات، لذلك يتراجع على المستوى الرمزي عن دوره القيادي، و يسلم أمره لإلهه مفوضا له أمر النصر، و الهزيمة تبرئة لذمته الأخلاقية، و سمعته السياسية، مما قد يطالها من إدانة الآخرين لدى وقوع الهزيمة، لا سيما و قد قام أمامهم بطقوس تفويض الأمر له، بحيث تكون نتائج الحرب مرهونة بإرادته العليا التي تعلو على إرادته الشخصية.

كما أن مظاهر خضوعه المازوخي في حضرة الإله المعبود، هي آلية نكوص لا شعورية إلى الطفولة، حيث يكون الطفل خاضعا للسلطة الأبوية، إذ يغدو الإله في مواقف الضعف و العجز بديلا للأب الواسع القدرة، الذي يزوّد ابنه بالأمن، و الحماية[2].فضلا عن كون الإنسان يشعر في مواقف الخطر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسه، و حماية ممتلكاته، و تجنب الخيبة، و الإخفاق، لذلك أوجد

---

[1] **كفاح طيبة** ، ص 28 - 29.

[2] على زيعور: **قطاع البطولة و النرجسية في الذات العربية**، ، ط1،دار الطليعة، بيروت ،1982، ص 38.

"لنفسه معبودا، إذا ما فكر فيه سما بنفسه فوق كل ما ينتاب الإنسان من اضطرابات مختلفة في حياتنا اليومية[1]".

و هكذا يغدو وجود الله ضرورة نفسية و اجتماعية تسبغ الاتزان الانفعالي، و الوجودي في حياة الأفراد، و الجماعات؛ كلما داهمتهم أخطار الطبيعة، و صراعات المجتمع؛ و عجزوا بالتالي عن مواجهتها بحلول واقعية حاسمة؛ تدرأ عنهم الأخطار، و الأضرار، لذلك يعمدون إلى الاستعانة بالقوى الميتافيزيقية بوصفها خالقة للطبيعة، و الإنسان، و قادرة على تسييرهما وفق مشيئتها المتعالية، التي قد تستجيب لعابديها إذا تشفعوا بها، و هكذا يغدو السلوك الديني بمثابة عملية تعويض عن الضعف البشري بالاستقواء بالذات الإلهية .

أثر الطفولة في النزعة القتالية

يلقى ملك مصر مصرعه في جولات الحرب الأولى، و تتعرض صفوف جيشه للهزيمة، بحكم تفوق جيش الهكسوس عددا، وعدة، و غريزة قتالية، و ينتشر في فلول جيشه جو الحداد السوداوي، و يسود التصور السلبي للذات في نفوس أفراد جنوده؛ مما يحدوهم لمحاولة التعويض عن الهزيمة بالانخراط في القتال الانتحاري، كشكل من أشكال التوحد بالملك القتيل، ليرفعوا من قدر نفوسهم، ويتماهوا بشخصية الملك القتيل، و ينتقلوا من مستوى كونهم مجرد جنود إلى مصاف الملك البطل، الذي يجسد أحلامهم، و تطلعهم إلى الخلاص.

و تظافرت جملة من العوامل على شحذ فعالية الغريزة القتالية في شخصية الأمير أحمس، حفيد الملك الفرعوني القتيل، لعل أهمها أنه عاش ظروف الهزيمة الفاجعة، و رأى مظاهر التقتيل، والتنكيل التي ألحقها الهكسوس بجده، و جنوده، و انفعل بمظاهر الخوف، و الحزن، و أجواء الحداد المأساوي، التي عاشتها العائلة الملكية خلال طفولته، حيث رصد عقله الباطن هذه الأجواء السلبية، التي زرعت في بنائه النفسي ميولا عدوانية حادة، عززت فيه أنماطا من السلوك، هيأته للدور السياسي، الذي سيرثه عن عائلته الملكية، باعتباره الوريث الشرعي للتاج الملكي السليب.

كما أن مظاهر التقتيل، التي ارتسمت في طوايا نفسه، خلال طفولته، غذت ميوله العدوانية الانتقامية من قتلة جده، و أعداء بني قومه، لا سيما و أن أفراد الأسرة الملكية، قد انطوت نفوسهم على إحباط نفسي فاجع من جراء تنحيتهم عن مراكز النفوذ، و الجاه، و الثروة، مما أورثهم شعورا حادا بالإخفاق، و الدونية من جراء سقوطهم الاجتماعي، الذي اضطرهم للعيش متنكرين خوفا من

[1] ردولف أرمان: ديانة مصر القديمة، ص 4 ، 5.

بطش الهكسوس.و تحدوهم هذه البنية النفسية المأزومة إلى ممارسة الإيحاء بوجوب الانتقام لتلطيف عقدة الشعور بالاضطهاد، و الإيحاء بضرورة استرداد السلطة لتسوية عقدة الذنب، و الإخفاق من جراء فقدانها.

و تثمر عمليات الإيحاء الإيجابي في صقل شخصية الأمير "أحمس"، و غرس تصور إيجابي عن ذاته، وعن دوره الاجتماعي بحكم تطابق شخصية الفرد مع النمط الثقافي، الذي تتطلبه التنشئة الاجتماعية التي شكلته. و كان لنساء العائلة الملكية دور، متميز في الإيحاء الإيجابي، الذي مارسناه على الأمير "أحمس" في طور الطفولة، كشكل من أشكال التعويض عن شعورهن بالدونية الناجم عن عدم مشاركتهن في الحرب، مما يحدوهن لممارسة التعبئة النفسية لها [1] .

صورة البطل في العقل الجمعي

يعمد الأمير "أحمس" لاتخاذ اسم حركي هو "اسفينينس"، و ينتحل شخصية تاجر ثري من باب التمويه على سلطات الاحتلال الهكسوسي، و يستخدم إغراء المال لتطويع الإرادات،و إبطال الممنوعات، و التقرب من الملك و حاشيته، و استهواء ابنته الأميرة أيضا.و هذه السلوكات البطولية العجائبية تنقله من المستوى البشري إلى مستوى الكائن المتسامى فوق الطبيعة البشرية، حيث تغدو وظيفته دفاعية تكييفية، باعتباره بطلا يحقق رغبات "الإنسان بالخلود، و بالجبروت، و بالتغلب على الطبيعة، و القوانين .. و من هنا نرى البطل يقهر كل سببية، و حتمية خارجية، تلك رغبات ليست فقط طفلية، بل هي أيضا لا واعية [2] " .لا سيما "و أن ما نرسمه للبطل هو ما نوده لأنفسنا، و ما نطلبه أن يكون فينا"[3].باعتبار أن مادة البطل موجودة في نفوسنا، و هو فعلنا الإرادي واللاإرادي.ولعل ما جعله كذلك، هو تصور العقل الجمعي له، باعتبار بطولته قيمة إيجابية؛ تمتص أنبل المشاعر الإنسانية، و تجسد القيم الإيجابية، التي يتشكل منها العقل الجمعي.

يبدو أن ما جعله يطالعنا بهذه السلوكات، هو رد فعل لا شعوري للانجراح النرجسي، الذي أصاب الأنا الجمعي للشعب المصري عقب الهزيمة، لذلك عمد العقل الجمعي إلى إضفاء القيم الإيجابية على شخص البطل، و شخصيته، باعتباره قد جمع بين الجمال، و الذكاء، و القوة الجسدية،

---

[1] يؤكد التاريخ أن للنساء دورا بالغ الأهمية في حمل المصريين على حرب الهكسوس بحكم ما يتمتعن به من جاذبية نفسية، و مكانة سياسية، باعتبارهن طرفا في انتقال السلطة بين أفراد العائلة الملكية،

- ردولف أرمان : مصر الفراعنة ، ص 194.

[2] علي زيعور : **قطاع البطولة و النرجسية في الذات العربية**، ص 38.

[3] م.ن: ص 35.

والشجاعة، و الشباب، و الغنى، مما جعله يتحدى رجال النخبة الحاكمة في مجتمع الهكسوس، بحيث بدوا على جانب كبير من الضعف، و السلبية أمام شخصيته المتألقة بالمحاسن. و هكذا يقوم البطل بمداواة الإنجراح النرجسي للذات القومية، و ينفس عن ميولها العدوانية الانتقامية، و يتيح لبني قومه التماهي بشخصيته المثالية، باعتبارها أناهم الأعلى بكل قيمه، و مثله العليا.

التعبئة النفسية و الاحتواء

ينتقل الأمير "أحمس" إلى أولى مراحل الإعداد للحرب، و هي التوعية، و التعبئة النفسية للجماهير حيث "كان أسفينيس و زميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة، كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفين في بيت أبانا، و كان يكاشفهم بآمال المصريين المهاجرين، فيبثان في نفوسهم الأمل و الحيلة، و يصبان في عزائمهم القوة و الجلاد"[1].

عمد بعدئذ إلى مرحلة التنظيم المسلح المتمثل في جمع الرجال، الأموال، و العتاد تحضيرا لساعة الحسم العسكري في جوّ من التجاوب النفسي، تمثل في التفافهم من حوله "في دهشة ممزوجة بفرح، و أشعت أعينهم نورا خاطفا، و صاحت أبانا قائلة:

-رباه!.. ما هذا الصوت الجميل الذي يحيي في أنفسنا هامد الأمل!

و صاح هام قائلا:

-يا إلهي .. إن الحياة تدب في مقبرة طيبة..

و هتف كوم قائلا .

-أيها الشاب الذي يبعث صوته القلوب الميتة، لقد كنا نعيش حتى الساعة بلا أمل، و لا مستقبل، يئدنا شقاء حاضرنا، فلا نجد منه مهربا إلا في تذكر الماضي المجيد و التحسر عليه، و هاأنت ذا تزيح لنا الستار عن مستقبل باهر.

فانشرح صدر اسيفينيس، وافعم قلبه أملا، و قال بصوته الجميل المثير:

-لا ينفع البكاء أيها السادة، فإن الماضي المجيد يوغل في القدم و الفناء ما دمتم تقنعون بالتحسر عليه، و ما يلبث مجده أن يصبح قريبا إذا توثبتم للعمل له. فلا يحزنكم أن تكونوا اليوم تجارا، فإنكم في الغد القريب تصيرون جنودا تضيق بهم الأرض، و تذل لهم الحصون"[2].

---

[1] **كفاح طيبة** :ص 119.

[2] م.ن :117-118.

يبدو أن الانحراف النرجسي، الذي كان يحدو الأمير أحمس إلى تعبئة الجماهير، لم يكن مجرد نزوة ذاتية كامنة فيه هو وحده، إذ لو كان الأمر كذلك ما حققت التعبئة النفسية أغراضها، و ما استطاع استقطاب الجماهير، و احتواءها نفسيا، و سياسيا بحكم طبيعة شخصية المصريين القدامى الميالين للسلم و الاستقرار، بينما المشروع السياسي، الذي أقنعهم بالمشاركة في انجازه، لا يعدو كونه عملا عسكريا، يتطلب تبني قيم الصبر، و التضحية بالحياة، و المال، و الصحة و الحرية، و الراحة النفسية، و الاستقرار. و على الرغم من ذلك؛ فقد تجاوبوا معه، مما يدلل على مشاركتهم قائدهم الانحراف النرجسي، و عقدة الشعور بالاضطهاد، التي أصابت الذات القومية من جراء الهزيمة التاريخية، التي أفضت إلى سقوطهم الاجتماعي، حيث فقدوا مراكز نفوذهم، ووجاهتهم الاجتماعية، مما نمى النزعة القومية التي أججها "أحمس" كوسيلة استقطاب جماهيري، تمكنه من أداء الدور القيادي، رديف إشباع ميوله القيادية، و الترفية، و النرجسية .

هكذا تغدو النزعة القومية دافعا متجذرا في البناء النفسي للفرد والجماعة، و كأسلوب سياسي في العمل من العوامل، التي تسوق المصريين لخوض حربهم على الهكسوس من أجل نيل بعض المكاسب المادية و المعنوية، التي يرغبون فيها كأفراد، و قد يستمتعون بثمار عملهم الجماعي، و قد يقتلون قبل ذلك[1] .

الوظيفة النفسية و الاجتماعية للقائد

لو لم تتوفر في الأمير "أحمس" سمات القيادة ما كان بمقدوره تحقيق الاستهواء الجماهيري لكون "القائد يؤثر في أفراد الجماعة لأنه يملك ما يرغبون فيه، أو هو يبلور رغباتهم إذا عجزوا عن بلورتها، و يحقق آمالهم إذا عجزوا عنها، كذلك؛ فإن القائد أيضا يتأثر بأفراد الجماعة[2]". و قد ظهرت سمات شخصيته القيادية فيما طرحه على قومه من خطط تنظيمية، و استراتيجية، أقنعهم بضرورة تبنيها بحكم ما يتمتع به من إدراك للمشكلات، و تحديات البيئة الاجتماعية، و الظروف السياسية المحيطة بهم، و ما يكابدونه من قهر اجتماعي، و اضطهاد سياسي بلغ من الارتفاع حدا يقتضي التنفيس عما تراكم من مشاعر الإحباط، و الحرمان، مما استدعى ظهور القائد كاستجابة نفسية، و اجتماعية، و تاريخية لحاجات مجتمعه، الذي ينتمي إليه؛ لأن وصوله إلى موقع القيادة ليس مجرد طموح فردي فحسب، إنما هو نتيجة احتياج الآخرين له، و اختيارهم على حد سواء، بحكم

---

(1) هوارس دافيز: **القومية**: ص 66.

(2) عباس محمود عوض: **القيادة و الإبداع** ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1985 ،ص 01.

قدرته على إشباع حاجاتهم النفسية، و الاجتماعية، و السياسية. و هكذا يفضي التفاعل بين القـــائد، وجماعته إلى تحقيق إشباع متبادل بين الطرفين، حيث تكون حاجة الفرد للقيادة ماسة كحاجة المجتمـع للقائد على حد سواء، و ينجم عن تفاعل الحاجات الفردية، و الجماعية تحقيـــق إشـــباع حاجـــات الطرفين معا.

يسهم الشعور بالدونية الذي زرعه الهكسوس في نفوس المصريـــين في جعلـــهم يفقـــدون احترامهم لذواتهم كأفراد، و لقوميتهم كانتماء اجتماعي يستقطبهم جميعا.و نجم عن ذلك شعور حـاد بالإحباط أفضى إلى تغذية ميولهم العدوانية العنيفة ضد قاهريهم، بحيث يغدو السلوك العدواني بمثابـــة عملية تطهير لنفسية المجتمع المقهور، فضلا عن مونه قيمة إيجابية في حد ذاته[1].

و يستطيع القائد تحويل الشعور بالدونية باعتباره عامل خضوع، و استسلام إلى دافـــع مـــن دوافع التحدي، يبلور الوعي السياسي بضرورة الصراع من أجل الحرية، و العزة القوميـــة، و الرفـــاه الاجتماعي. و هكذا تضخم الحرب مكانة القائد، و دوره السياسي، و تتيح لـــه تـــأجيج العصبيـــة القومية، لأنها تدعم الغريزة القتالية التي تحدوهم للقتال باسمه بوصفه قائدا معبودا يمثل ظل الإله آمـــون في الأرض، فضلا عن كونه يجسد صورة الأب القوى المهيب، الذي يلوذ به أطفاله عنـــد الخـــوف، لأنهم يرونه كائنا جبارا قادرا على كل شيء، مما يجعلهم في موقف تبعية له، و تواكل عليه[2]. ويسهم تصوره لذاته كسليل فراعنة مصر في حمله على استغلال ألوهيته لينقاد أتباعه إليه في خضوع مشـــوب بعبادة؛ تحدوهم للتضحية بالذات إرضاء للملك المعبود لا سيما و أن العقـــل الجمعـــي للمصريـــين القدامى، لا يفصل بين سلطة الله، و الملك ما دام "حق الملك قائما على طبيعته الإلهية الـــتي كـــانت تنتقل مع الدم"[3] .

كما أن الجماهير لا تمارس السلوك القتالي من تلقاء نفسها، بل لا بد لها من التماهي ببطولـــة القائد، و الجماعة المرجعية التي تقود العمل القتالي "و من خلال عملية التماهي هذه تكتسب الجماهير شيئا من الثقة بالنفس، و الإمكانات الذاتية، و تبرز لديها الحاجة إلى تجاوز استسلامها، و شـــعورها

---

(1) جاستون بوتول: **المجتمع و الحرب**، ص 261 – 262.

(2) محمود السيد أبو النيل : **علم النفس الاجتماعي** ط4 الجزء الثاني، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص 333.

(3) ايتين درويون و جاك فانديه : **مصر**، ص 90.

بالعجز، و القلة القائدة هي التي تستطيع أن تعمم أسلوب المجابهة عند كل الناس حيث تستقطب الجماهير التي تظل على تبعيتها المزمنة مع تغير التبعية من متسلط قديم إلى مخلص جديد"[1]

و ترتب عن تماهيهم بسلوك عدوهم القتالي، و الاضطهادي أن انتقلوا من دور المُضْطَهَدِين إلى دور المُضْطَهِدِينَ، و يتمثل في تبنيهم شراسة عدوهم السادية التي غزاهم بها، و في محاكاتهم له في عدته وعتاده، حيث استخدموا لأول مرة في تاريخهم الخيول، و العربات، و الخناجر، و أسلحة البرونز، والقوس الآسيوي، و هي من الأسلحة التي جلبها الهكسوس في غزوهم لمصر [2].

هكذا يمتص المصريون القدامى بوعي، أو دون وعي صورة الهكسوس المادية و السلوكية، ويحاكونها في سلوكهم القتالي، و أدواته بحكم كون المحاكاة الاجتماعية من أسباب انتشار بعض عناصر الثقافة بين الأفراد و الجماعات، فضلا عن كون الشعور بالدونية اتجاه الآخرين يولد الرغبة في محاكاتهم للتجانس معهم، و القضاء على المغايرة، أو محاولة التفوق عليهم للحلول محلهم. و تجسد هذه المحاكاة ازدواجية موقفهم الشعوري، و اللاشعوري من أعدائهم الهكسوس، حيث أنهم يبغضونهم باعتبارهم مصدر اضطهاد، و إحباط، و حرمان، لكنهم يعجبون بهم و يحاكونهم للقضاء على القلق، و الخوف من الإبادة المتوقعة .

تجنيس علاقة الصراع الحضاري

يتمثل تجنيس علاقة الصراع الحضاري بين المصريين و الهكسوس في وقوع بنت ملك الهكسوس في الأسر، و كانت لأحمس علاقة حب معها قوامها الكبت، و التباعد، و الكتمان. وهكذا ترمز العلاقة الصراعية بين قومها و قومه إلى العلاقة السادومازوخية، التي تربط الرجل بالمرأة، حيث يغدو أحمس طرفا جنسيا ساديا منتصرا على الأميرة الأنثى المازوخية المغلوبة، التي تمثل الأنا الجمعي للهكسوس لدى هزيمتهم.

أدركت الأميرة لدى لقائها بأحمس بحدسها الأنثوي الدور السلبي المهين، الذي سيقت إليه، مما جعلها تعمد إلى محاولة قلب علاقة الصراع لتنتقل من دور الأنثى المازوخية المغلوبة إلى دور الأنثى السادية الغالبة تنفسيا عن ميولها العدوانية الانتقامية من جراء الهزيمة، و تلطيفا لشعورها بحسد القضيب، لا سيما و قد انطوى وجدانها على شعورين سلبيين؛ أولهما شعورها بدونية الهزيمة، و دونية الأنوثة؛ مما حداها للثورة على العلاقة الاضطهادية في تضخم نرجسي أرادت به توكيد ذاتها المبخسة،

---

[1] مصطفى حجازي : **التخلف الاجتماعي** : ص 54.

[2] سير ألن جار ندر : **مصر الفراعنة**: ص 193 -194

لذلك اتهمته بكونه مجرد جاسوس تآمر على عرش أبيها، و اغتصبه بغير وجه حق، لكنه يرد عليها بلهجة استعلائية، يؤكد بها ذاته بأبعادها الإنسانية، و السياسية معا:

-أيتها الأميرة .. ألا تدركين أنك تخاطبين ملكا؟

-أي ملك يا هذا؟.

فاستولى عليه الغضب و قال بشدة:

-فرعون مصر..

فقالت بتهكم:-و ابي ألا يكون أحد ولاتك؟!

فاشتد الغضب بالملك، و غلب كبرياؤه عواطفه جميعا، فقال:

-ليس أبوك أهلا لأن يكون واليا من ولاتي، و لكنه مغتصب على عرش بلادي، و قد هزمته شر هزيمة، و جعلته يفر من أبواب طيبة الشمالية تاركا ابنته تقع أسيرة بين أيدي القوم الذين ظلمهم[...]

فقالت ببرود و سخرية:

-طبت من ملك يبرع قومه في مقاتلة النساء.

-يا للعجب ألا تعلمين أنك مدينة لقومي هؤلاء بحياتك؟ لقد كنت تحت رحمتهم، و لو أنهم قتلوك ما خالفوا السنة التي استنها أبوك في تعريض النساء و الأطفال لنبال المقاتلين...

-و هل تضعني على قدم المساواة مع أولئك النسوة "[1].

يظهر تضخم الذات، و عدم الاعتراف بالآخر على ضوء الحوار الدائر بينهما، و هو يعكس الاتجاهات التعصبية القومية، التي جعلتهما لا يريان في بعضهما البعض سوى صورة الآخر المعتدي المهدد للحرية، و الأمن، و يزداد الاتصال سوءا بينهما باعتباره استمرارا للحرب النفسية، و امتدادا طبيعيا للقتال المسلح عندما تقول الأميرة بتحدٍ:

-إنه يكبر على أن أتصور أبي مثل إحدى نسائكم، أو أن أحدا من قومي مثل أحد من قومكم إلا أن يتساوى السادة بالعبيد، ألا تعلم أن جيشنا غادر طيبة لا يحس ذل المغلوب، و كانوا يقولون باستهانة، ثار عبيدنا، و سنكر عليهم.

وجن جنون الملك، و غلبه الغضب على أمره فصاح بها:

-من العبيد و من السادة؟ أنك لا تدركين شيئا أيتها الفتاة المغرورة لأنك ولدت بين أحضان هذا الوادي الذي يوحي بالمجد و العزة، و لو تأخر مولدك قرنا من الزمان لولدت في أقصى صحاري

---

[1] **كفاح طيبة** : ص 205.

الشمال الباردة، و لما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك ملكا .. من تلك الصحاري جاء قومك فاغتصبوا سيادة وادينا، و جعلوا أعزته أذله، ثم قالوا جهلا و غرورا أنهم أمراء، و أننا فلاحون و عبيد، و انهم بيض و أننا سمر، اليوم يأخذ العدل مجراه، فيرد السيد إلى سيادته، و ينقلب العبد إلى عبوديته.."[1].

ثمة جملة من الأسباب جعلت اتصالهما الإنساني سلبيا؛ منها أجواء الحرب، و ما تستثيره في نفوس المتحاربين من عدوانية، و نزعة قتالية، و ميول انتقامية، و رغبة في توكيد الذات، والقوة عن طريق سحق الآخر؛ باعتبار هزيمته هدفا من الأهداف التي تحقق الرضى عن الذات، و الأمن النفسي، والاجتماعي. كما أن الحرب أحدثت تغييرا اجتماعيا عميقا في شبكة العلاقات الاجتماعية، والتركيبة الطبقية لمجتمع الهكسوس، و المجتمع المصري أيضا، حيث انتقل أحمس من فئة التجار إلى قمة هرم السلطة بوصفه ملكا متوجا، و تعرضت الأميرة إلى سقوط اجتماعي حاد هوى بها من علياء الطبقة المترفة المسيطرة إلى مجرد أسيرة حرب انتهى دورها في السلطة، و بات دورها الاجتماعي الراهن غامضا، مما أشعرها بالقلق، والإحباط، و الإخفاق بحكم اختلال تصورها لذاتها نتيجة الاختلال الذي أصاب القيم، و المعايير الموجهة لسلوكها اتجاه ذاتها، و اتجاه الآخرين، حيث ظلت تمارس دورها كأميرة على الرغم من كونها مجرد أسيرة حرب، و يتمثل ذلك في نزعتها الاستعلائية، وتضخم شعورها بذاتها، و صرامة تعاملها مع الآخرين، و ينم هذا السلوك غير المتوائم مع مركزها الاجتماعي الجديد عن عدم تكيفها مع السقوط الاجتماعي، و عن جمودها الانفعالي، فضلا عن كون سلوكها السلطوي كأميرة يحرم عدوها المنتصر من الاستمتاع بالنصر و الغلبة، و يشعره بالمقاومة التي تهدد ما حققه من انتصار سياسي و عسكري. و هكذا يغدو تصلبها السلوكي تنفيسا عن ميولها العدوانية الانتقامية اتجاه مصدر الخطر.

إذا كانت الأميرة قد تعلقت في أول الأمر بأحمس، فلكونها أسقطت عليه صورة الأب لكنه لم يكن في مستوى تصوراتها الشعورية و اللاشعورية بحكم عدم أدائه دور الأب البديل بتدميره لأبيها نفسه، الذي يمثل بالنسبة إليها الحب، الانتماء، و الحماية الاجتماعية. و يسهم الغضب كانفعال نفسي حاد في انسداد قنوات الاتصال الإنساني الفعال بينهما، لأنه يدفعهما إلى إفراغ شحنات عدوانيتهما على بعضها البعض، تسوقهما آلية الإسقاط اللاشعورية، فتجعلهما يسقطان على بعضهما البعض ما في قوميتهما من عيوب، قد تكون قاسما مشتركا بينهما، و قد تكون من العيوب التي تتسم بها إحدى القوميتين، فيعمد أحدهما لإزاحتها من ذاته، و قوميته، وإسقاطها على الآخر، و قوميته

[1] **كفاح طيبة** : ص 205 – 206 – 207.

باعتباره عدوا ألحق بالذات الفردية و الجماعية مرارة الشعور بالدونية، و الإخفاق، و الاضطهاد من جراء الهزيمة.

يبدو أن أحمس كان يتوخى من الاتصال بها إشباع حاجته إلى الحب، و التقدير، و السيطرة، وأدركت هي بالحدس ذلك؛ مما جعلها تقوم بإحباط حاجاته النفسية كرد فعل على إحباطه حاجاتها هي نفسها، و غذى شعور كليهما بالإحباط ميولهما العدوانية المقنعة المتمثلة في مباهاة أحدهما بقوميته، و هجاء قومية الآخر المعتدي.

و تعزى سيكولوجية التوتر التي يتسم بها لقاء الأعداء لصدورهما من نظامين معرفيين، غذيا فيهما كراهية الآخر، و سوء الظن به، واحتقاره، مما أسبغ على اتصالهما طابعا عدوانيا قوامه القيم السلبية التي زودتهما به التنشئة الاجتماعية في محيطين حضاريين متصارعين.

على الرغم من الانتصار العسكري و السياسي، الذي حققه "أحمس" من جراء تحرير بلده، وتأسيسه أركان السلطة الملكية، إلا أن شعوره بالإخفاق كان مستحوذا عليه بسبب رفض الأميرة الزواج منه؛ لأن هزيمة أبيها تمنعها من الموافقة على الزواج بقاهره، و لا سيما و أن ارتباطها العاطفي بأبيها أقوى من ارتباطها العاطفي به، فضلا عن اتخاذها من رفض الزواج وسيلة انتقام معنوي، بحكم عجزها عن الانتقام المادي. كما أنها لم تعد ترى في "أحمس" صورة الآخر المحبوب -كما كان من قبل- الواعد بالحب، و الحماية، و الانتماء، و السعادة، بل صورة المعتدى المتسلط، الذي يمثل الإحباط، و الاضطهاد، و الانجراح النرجسي لذاتها، و أبيها، و قومها، مما جعلها تسلك اتجاهه سلوك التجنب، و التباعد على الرغم من تمزقها النفسي، وليد التجاذب القطبي الحاد بين الحب، والكراهية حيال عروض الزواج المغرية[1].

نجمت هذه الثنائية الوجدانية عن صراع أنساق القيم الاجتماعية، و القيم الذاتية، حيث حملتها القيم الاجتماعية على تجنبه، و رفضه، و الرغبة في الانتقام منه، بينما دفعتها القيم الذاتية إلى التجاوب معه، و التقرب منه لكن انتماءها الاجتماعي، و قرابتها الدموية، طغت على وعيها النفسي، و سلوكها الإنساني؛ بحيث لم تستجب لدوافع أنوثتها، و تنكرت لها على مضض بحكم اعتبارها الزواج علاقة اجتماعية تربط عائلتين، و تصهر انتماءين في بوتقة واحدة، و ليس مجرد علاقة عاطفية تجمع فردين معا، فضلا عن كون زواجها بقاهر أبيها، و سالب عرشه بمثابة علاقة بغاء مهينة لكرامتها، و كرامة أبيها و قومها، لا سيما و أن العلاقات الجنسية التي تقوم بين الجنود المنتصرين،

---

(1) ERNIST DICHTER : **Motivation et comportement Humain** – Publication union –Paris, 1972, P : 105.

وسباياهم، لا تعدو كونها امتدادا للحرب في شكل غزو جنسي؛ يزيد المنتصرين توكيـــدا للـــذات، والفحولة الجنسية على حساب ضحاياهم.

هكذا يسبغ الرفض على الأمير "أحمس" شعورا ممضا بالدونية، و الإحباط، و الخصاء الجنسي لأن صدمة الإخفاق العاطفي هزت ثقته بنفسه من الأعماق، و ضخمت شعوره المأساوي بالحرمـــان، لأن تصوره النرجسي لذاته، الذي تغذى بما حققه من مكاسب مادية، و معنوية جعله لا يتقبل حقيقـة الرفض، لا سيما و أن مركزه الاجتماعي المتميز جعله يتوقع من محيطه أقصى إشباع ممكن لحاجاتـــه النفسية و الاجتماعية، لذلك استولى عليه الاكتئاب النفسي، و التبلد الوجداني، مما حرمه من الشـعور بنشوة الانتصار العسكري و السياسي.

الفصـــل الثـــالث

تفسيـــر السلـــوك الاجـتمـاعــي

تفسير السلوك الاجتماعي

جو العلاقات الأسرية

أول سلوك تطالعنا به أمينة زوجة السيد أحمد عبد الجواد،هو استيقاظها المبكر، الذي داومت عليه ردحا طويلا من الزمن، دون استعانة بمنبه، بل بآلية العادة المستحكمة في سلوكها. وقد نجمت هذه العادة السلوكية عن عادة زوجها المتمثلة في السهر حتى انتصاف الليل؛ مما يقتضي منها القيام على خدمته إلى ساعة متأخرة من الليل، حتى يأوي إلى فراشه. وهكذا، فلم يكن سلوكها سوى نتيجة آلية لسلوك زوجها، تستشعر بممارسته أهمية دورها الإجتماعي، المتمثل في خدمتها إياه على الرغم مما تكابده من متاعب طيلة ساعات انتظاره التي "أحبتها من أعماق قلبها، ففضلا عن أنها استحالت جزءا لا يتجزأ من حياتها، ومازجت الوفير من ذكرياتها، فإنها كانت و لم تزل الرمز الحي لحدبها على بعلها، وتفانيها في إسعاده، واشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفاني، وذاك الحدب. لهذا امتلأت ارتياحا، وهي واقفة في المشربية...[1]".

لعل ما جعلها كذلك، إدراكها أنه سيسبغ عليها من حنانه، واهتمامه ما لا يسبغه عليها في مواقف أخرى، لاسيما وأنه عندما يعود نشوان من أثر السكر، يتخفف من جفاف صلابته، ويميل إلى التبسط في الحديث، مما يجعل من أمينة المتدينة التقية تقف من تعاطيه الخمر موقفا متناقضا، فهي تبغضها لكونها حراما، لكنها لا تجد في تعاطي زوجها لها حرجا لأنها تؤثر في سلوكه تأثيرا إيجابيا، لاسيما وأن زوجها في ساعات صحوه، يجسد السلطة الأبوية القاهرة لإرادة الآخرين سواء كانوا أبناءها، أم هي في حد ذاتها، حيث لا تصدر عنه عندئذ سوى الأوامر، والزواجر، والتهديدات. كما أنها لا تشعر بكونها زوجة مقبولة إلا إذا كان نشوان من الخمر؛ مما جعل الخمر تقترن في شعورها، ولا شعورها معا بالاتصال الإنساني الفعال، وقوامه الحب والحنان والاهتمام. بينما يقترن الصحو بانقطاع قنوات الاتصال الإنساني، وحلول الجفاء، والتباعد، والعنف محله.

هكذا يجسد سلوك السيد أحمد عبد الجواد نسقين مختلفين من القيم، حيث يتبنى في النهار القيم الاجتماعية المتعارف عليها كالجد، و الاستقامة، و الوقار، والتزام الآداب العامة. بينما يجنح في المساء إلى تبني قيم المتعة الحسية، و إعلاء صوت الغريزة، و الحرية الفردية .. و لعل إسرافه في إبداء مظاهر العفة و الوقار التي تقتضيها السلطة الأبوية يرهق طاقته العصبية، فضلا عن إرهاق العمل

---

[1] نجيب محفوظ:**بين القصرين**، مكتبة مصر، ص 9 -10

التجاري الذي يمارسه بحكم ما يقتضيه من طول بقاء في الدكان طيلة النهار. لذلك يجد نفسه مساء بحاجة إلى تجديد طاقته، و البحث عن عالم المتع بعد أن استترفته التزامات العمل و الأسرة.

من هنا تتكشف لنا مستويات شخصيته المتعددة، و المتناقضة أيضا بحيث تبدو شخصيته في جملتها تجسيدا للتناقض الناجم عن تعدد الأدوار الاجتماعية المنوط به أداؤها، فهو يؤدي في محيطه الأسري دور الأب بكل سلطته الأبوية التقليدية، بينما يمارس هو في محيطه المهني دور التاجر اللبق، ويكون بين أفراد جماعته المرجعية الصديق، بينما يسلك مع محظياته دور العاشق، و يجسد بسلوكه الديني دور المؤمن الورع في صلاته و صيامه، و زكاته. و ليست هذه الأدوار الاجتماعية متناقضة في جوهرها، بل متكاملة كما يرى بعض الباحثين من "أن معظم أفراد المجتمع لديهم على الأقل تسع شخصيات هي الشخصية المهنية، الشخصية القومية، شخصية المدينة، و شخصية الطبقة ، والشخصية الجغرافية، و شخصية الجنس، و الشخصية الواعية، و الشخصية اللاشعورية، و ربما الشخصية الخاصة.."[1] لأن طبيعة الحياة الاجتماعية تقتضي تعدد الأدوار، إذ من المتعذر على الفرد ممارسة الأدوار الاجتماعية المختلفة بسلوك أحادي الجانب؛ و إلا أخفق في أداء بعضها، لأن لكل دور اجتماعي أنماطه السلوكية المتميزة بحكم أثر الدور الاجتماعي على السلوك الإنساني؛ إذ يحتل الفرد غالبا عددا من المراكز في شتى الجماعات، التي ينتمي إليها، فهو أب، و زوج، و معلم، و عضو في نقابة؛ أو حزب سياسي، حيث كلما مارس دورا بعينه؛ جنحت أدواره الأخرى إلى الكمون، ولذلك قسمت الأدوار الاجتماعية إلى أدوار نشطة؛ و أدوار كامنة [2].

لم يكن سلوك السيد أحمد عبد الجواد نسيجا وحده، و نمطا منفردا و متميزا، لأنه كان ينتمي إلى جماعة مرجعية كل أفرادها من التجار الميسورين، الذين يمارسون أدوارهم الاجتماعية المتجانسة مع أنساق القيم السائدة في العلانية، لكنهم يزاولون أدوارهم المشبعة لنزواتهم في الخفاء. ومن ثمة؛ فسلوكهم بوجهيه؛ لا يعدو كونه تكيفا مع الواقع من ناحية، و إعادة تكييف له من ناحية أخرى، لأن مراكزهم الاجتماعية أتاحت لهم إمكانية الجمع بين هذه الأدوار الاجتماعية المختلفة.

يبدو سلوك أمينة اتجاه أبنائها سلوكا مشبعا للحاجات النفسية و المادية: و هي تجد في إشباع حاجات أبنائها شكلا من أشكال الإشباع العاطفي، الذي يرضي غريزة أمومتها، حيث تتيح لأبنائها مجال مكاشفتها بما يمور في دخائلهم من مشاعر، و دوافع؛ فضلا عن الدعم النفسي، الذي كانت

---

(1) محمد سعيد فرح: **الشخصية القومية**، منشأة المعارف، بالإسكندرية، ص 93.

(2) عاطف وصفي: **الثقافة و الشخصية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 115 - 116.

تزود به أبناءها كلما اعتورهم الشعور بالدونية و الإخفاق، شأن ما فعلت حين شكت لهـــا ابنتـــها الكبرى خديجة من قبح أنفها، و عدم إقبال الرجال عليها، فانبرت تعزز ثقتها بنفسها قائلة:"

-أنت فتاة نادرة المثال، من يضارعك في مهارتك أو نشاطك؟ ..و روحـــك الخفيفـــة و وجـــهك اللطيف؟ ماذا تريدين أكثر من هذا؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها و تساءلت ضاحكة:

-ألا يسد هذا طريق الزواج؟

فقالت الأم مبتسمة :

-كلام فراغ ...مازلت صغيرة يا بنية ..

و تضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس إلى سن الزواج، و خـاطبت أمها قائلة:

-لقد تزوجت يا نينة و أنت دون الرابعة عشر ..

فقالت الأم التي لم تكن في الحق دون ابنتها قلقا:

-لا يتقدم أمر أو يتأخر إلا بإذن الله .."[1]

هكذا يتبين أن أمينة الأم تلتزم اتجاه أبنائها أسلوبا تربويا قوامه إشباع الحاجـــات النفســـية المتمثلة في الحنان، و الحماية، و تعزيز الثقة بالذات، فضلا عن إقناع أبنائها بضرورة تبني القيم الدينيـــة المتمثلة في الإيمان بالقضاء و القدر، بوصفها قيما تقوم بالتعويض عن الشعور بالإخفاق، و بتلطيـــف التوتر الانفعالي، الناجم عن إحباط الرغبات.

أما السيد أحمد عبد الجواد، فيمثل السلطة الأبوية التقليدية بســـماتها النفســـية، و أنماطـــها السلوكية كالصرامة، و التجهم، و الشدة، حيث أن أمينة الزوجة تجد حرجا في مفاتحته في أمر خطبـــة ابنتها بحكم علمها بطبيعة شخصيته المتسلطة، و مزاجه العصبي المتوتر؛ الذي يجنـــح بـــه إلى الحـــدة الانفعالية كلما لاحظ على أفراد أسرته مالا يرضيه، و يتمثل ذلك بجلاء حين أنهت له أمينـــة خـــبر خطبة الجيران لعائشة الصغرى بدل خديجة الكبرى خلافا للتوقعات التي كان يتمناها، لذلك "حدجـها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء، و انقلب إلى حال من الامتعاض و الحزن كثفت الغضـــب في صدره، فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسا أو ينشد صحبة، ثم صاح بصوت عاصف:

---

[1] بين القصرين : ص 38.

-عرفنا كل شيء، هاهو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فاسمعيني رأيك؟

شعرت بسؤاله يستدرجها إلى حفرة لاقرار لها فقالت بلا تردد و هي تبسط راحتيها في تسليم :

-رأيي رأيك يا سيدي و لا رأي لي غيره ..

فصاح في زجرة :

-لو الأمر كما تقولين ما فاتحتني في الأمر.

[..............]

فلوح بيده غاضبا و هو يصيح:

-كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدا لم يرها ؟!

فقالت بحرارة و قلبها يرتجف :

-قلت يا سيدي لعلهن سمعن عنها ...

-و لكنه يعمل في قسم الجمالية أي في حينا، و كأنه من أهله ...

فقالت الأم في تأثر شديد:

-إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتيّ منذ انقطاعهما عن المدرسة في سن الطفولة..

فضرب كفا بكف و صاح بها :

-مهلا ..مهلا..هل حسبتني أشك في هذا يا ولية؟! لو شككت فيه ما أشبعني القتل ! .."[1].

و يرفض السيد أحمد عبد الجواد مشروع الخطبة؛ على الرغم من تحمس كل أفراد الأسرة؛ لأن إرادته المتعالية بحكم العلاقة التراتبية؛ تلزمهم جميعا بوجوب الخضوع، و الامتثال.

و يحفل خطاب السلطة الأبوية بالأوامر، و النواهي، و الشتائم، و يتوسل بالإكراه، و الوعيد لتطويع إرادتهم جميعا. و يكون حضوره في البيت مدعاة للرهبة و الخوف، بحكم ما تمثله شخصيته المتسلطة من قمع، و كبت جعلهم يرتبطون به بثنائية الحب و الكراهية، و لا يقيمون معه حوارا كاشفا عما في طوايا نفوسهم من هموم، و أشواق، و مطالب، و يعمدون للتوسط بأمهم لتبلغه مطالبهم، و رغباتهم التي يخيّبها قمع السلطة الأبوية غالبا.

يستمد السيد أحمد عبد الجواد سلطته الأبوية من الجذور النفسية، التي شكلت شخصيته في مرحلة الطفولة؛ باعتباره قد امتص شعوريا، و لاشعوريا – أساليب التربية التسلطية القائمة على الإكراه، و الإرهاب التربوي، و القمع، و يعيد بالتالي إنتاجها في أنماط سلوكه التربوي مع أبنائه،

---

(1) **بين القصرين** : ص 179 - 180

وفضلا عن ذلك، فقد تعززت هذه القيم، و القواعد السلوكية في بناء شخصيته، باعتبارها من الوسائل، التي تدعم مركزه في الأسرة، و المجتمع معا، لأن أصحاب السلطة الأبوية" يدعمون احترامهم لأنفسهم، و احترام المجتمع لهم بتمسكهم بالقيم الاجتماعية التي تتطلبها بصفة خاصة أدوارهم الاجتماعية ....و من ثم، فإن أولئك الذين يرتكز نفوذهم، و تقدير الناس لهم على تمسكهم بقيم معينة، لا يأتون سلوكا من شأنه انتهاك هذه القيم شعوريا، أو لاشعوريا، و يبذلون قصارى جهدهم في الاتصاف بالخلال التي تعكس هذه القيم، و بهذه الطريقة تخلق القيم فريقا من الناس لهم مصلحة، و فيهم دوافع للمحافظة عليها، و السهر على حمايتها في المجتمع دفاعا عن أنفسهم، ومكانتهم ونفوذهم ضمنا" [1]

يبدو كل فرد من أفراد هذه الجماعة الأسرية منطويا على " نواة انفعالية مركزية متميزة؛ هي محور شخصيته، التي تكونت من مجموعة من المؤثرات، التي تميزه بالدينامية، و الخبرات، التي قابلها في الطفولة، هذه النواة تلوّن" نموه و تكون مفتاح فهم مشكلاته النفسية" [2]، حيث تتمثل النواة الانفعالية المركزية في شخصية السيد أحمد عبد الجواد في ازدواجية شخصيته المتأرجحة بين قطبين، يظلان يتجاذبانه طيلة السياق السردي للرواية.

أما زوجته أمينة، فتبدو شخصيتها المتكيفة مع واقعها الاجتماعي حريصة على إشباع الحاجات النفسية، و المادية لأهل بيتها، و تستمد من هذا الدور الاجتماعي إشباعا متواصلا لتأكيد ذاتها باعتبارها المحور، الذي تدور حوله شؤون الأسرة كلها، فضلا عن كونها تجد لذة في إسباغ الحنان على أهل بيتها، لأن متعة العطاء العاطفي تضاهي متعة تلقيه على السواء.

أما أكبر الأبناء "ياسين" الذي أنجبه السيد عبد الجواد من زوجته السابقة، فتتمثل نواته الانفعالية المركزية في عقدة شعوره بعار انتمائه إلى أمه الطالق السيئة السمعة، و عرامة شبقه الجنسي الذي يحمله على مطاردة النساء، فإن تعذر عليه وصالهن، أغرق توتره النفسي وليد شعوره بعار انتمائه لأمه، و شعوره بالحرمان الجنسي في نشوة الخمر.

أما ثاني الأبناء، فهو فهمي، الطالب في كلية الحقوق، و تتمثل نواته الانفعالية المركزية ذات الوجهين؛ في حبه الخائب الحزين لمريم بنت الجيران، وتوقه لجلاء قوات الاحتلال عن بلده، الذي يحمله على الانضمام إلى جمعية سرية، توزع المنشورات المحرضة على الثورة.

---

[1] محمد محمد الزلباني: **القيم الاجتماعية**، مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر، 1973، ص28-29.

[2] عثمان لبيب فراج: **أضواء على الشخصية و الصحة العقلية**، ط 1، مكتبة النهضة المصرية ، 1970، ص 111.

أما خديجة كبرى البنات، فهي مأزومة بشعور حاد بالدونية ناجم عن ضخامة أنفها، الـــذي شوه اتساق قسمات وجهها، و شحنها بتوتر انفعالي، جعلها تصب نزعتها العدوانية على اخوتهـــا، تضاعفت حدتها باهتزاز ثقتها بنفسها من جراء تأخر قدوم العريس، لا سيما و أن أختها الصغـــرى عائشة يتهافت الرجال على طلب يدها، و تتمثل نواتها الانفعالية المركزية في نرجسيتها، التي تجعلـــها تعكف على ممارسة طقوس عشق الذات، و تعاني من حبها الخائب المتكتم للضابط العامل في مركـــز الشرطة الذي يقع في الحي .

أما الطفل كمال؛ فتتمثل النواة الانفعالية المركَزية لشخصيته في نزعته الحادة لتوكيد الـــذات؛ التي تجعله يتأرجح بين أنماط سلوكية تستقطب إعجاب أفراد الأسرة حينا، و تثير سخطهم أحيانا .

و يتم التعبير عن الطموحات، و الحاجات في هذه الأسرة في جوّ نفسي مشحون بـــالتحفظ والحرج مخافة قهر السلطة الأبوية المبرر حينا، و المتعسف أحيانا، لا سيما و أن العلاقات القرابية تتسم بالتباعد، و فتور الاتصال الإنساني الفعال بين الأب و أبنائه، حيث يبدو أحـــد الطرفـــين متســـلطا، والآخر خاضعا بحكم الوصاية الاجتماعية، التي يفرضها أحدهما على الآخر.

يتوزع الأم شعوران – لدى مكاشفة ابنها فهمي لها برغبته في خطبة مريم بنـــت الجـــيران– أولهما الشعور بالسرور، و توقع الإخفاق لكونها تعرف طبيعة شخصية زوجها التسلطية، التي تمـــارس قمع الرغبات بحكم نظرته الاستعلائية لها، و عدم مشاركته الوجدانية مشكلات أبنائه النفسية. و مـــن ثمة، فقد زرع في زوجته، و أبنائه –بحكم تكرار تعويقه لأرادتهم الحرة– الخـــوف مـــن الإحبـــاط، والإخفاق، مما جعلهم يتوقعون شعوريا، و لا شعوريا الرفض المرادف للشعور بالقمع، و الاضطهاد.

لعل ما حدا بالأب لرفض زواج ابنه، هو إدراكه عدم استكماله أسباب النضج، لكونه مجـــرد طالب في الجامعة، ما عتم يعيش تحت الوصاية الأبوية، مما يجعله قاصرا، غير كفء للدور الاجتمـاعي، الذي يتوق لممارسته، و هو و أن كان مؤهلا له نفسيا، و جسديا؛ لكنه غير مؤهل لأدائه اجتماعيـــا، ويريد والده بالرفض أن يثبت أن الزواج مشروع اجتماعي صرف، يكلف ابنه نفقـــات لا يســـتطيع القيام بها، إلا إذا استقلت ذمته المالية عن ذمة والده. و هكذا يفرغ المنظور الأبـــوي الـــزواج مـــن مضمونه العاطفي و الجنسي باعتبار أن الأبعاد العاطفية و الجنسية؛ قد تعجل بربط العلاقة؛ لكنـــها لا تكفل استمرارها؛ ما لم تستند على الأبعاد المادية و الاجتماعية.

ما دام الأبناء هم أدوات في أيدي الآباء يحققون بها غالبا ما عجزوا عن تحقيقه بأنفسهم، لذلك نصح ابنه فهمي بوجوب استكمال دراسته الجامعية، لأن السلوك التعليمي يشبع حاجات والده النفسية المكبوتة المتمثلة في استكمال جوانب شخصيته بالتعليم الجامعي. و لذلك يقمع حاجة ابنه النفسية إلى الحب، و الجنس، باعتباره كائنا لغيره، لا لذاته ما دام خاضعا للوصاية الاجتماعية.

كذلك يكون موقف الوالد من مشروع زواج عائشة، الذي جاء تتويجا لعلاقة حب متكتم، تبودل عن بعد بينها، و بين الضابط عن طريق تبادل النظرات من خلال النافذة ردحا من الزمن؛ حتى اختمرت العواطف بينهما، فأرسل أهله بعدئذ لطلب يدها، لكن أباها يبدي الرفض بحجة أولوية زواج البنت الكبرى خديجة على زواج الصغرى. و تحمله نخوة الشرف؛ بمفهومه التقليدي على استفسار زوجته عن قنوات الاتصال، التي استخدمها الضابط للتعرف على ابنته عائشة، مما حدا به لتفضيلها هي بعينها دون أختها الكبرى، و لعل إلحاحه في السؤال صادر عن تبنيه نسقا قيميا قوامه مصاهرة العائلات العريقة، دون مراعاة قيم الحب، و الجمال، و حرية الاختيار الزوجي، لأن أهلية المرأة للزواج –حسب هذا المنظور الاجتماعي التقليدي- لا تكمن في ذاتها، بل في السمعة الاجتماعية للأسرة التي تنتمي إليها بحكم كون الزواج، هو علاقة تربط عائلتين، لا فردين فحسب، لهذا يحتج الوالد بقوله :" إنه ضابط الحي، يسير في شوارعنا صباح مساء، فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن عن احتمال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علموا بزواجه منها .. لا احب، لا أريد أن أعطي ابنتي لأحد ليثير الشبهات حول سمعتي، بل لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا أثبت لدى أن دافعه الأول إلى الزواج منها هو رغبته الخالصة في مصاهرتي أنا...أنا...أنا..[1]"

هكذا تتكشف ملامح الشعور بالخوف من عار الرقابة الاجتماعية، و أحكامها القاسية، التي تشبه الوصمة الأخلاقية الكفيلة بدمغ صاحبها، بحيث يغدو منبوذا، لا سيما و أن قيمة الشرف بمفهومه التقليدي؛ يجسده سلوك المرأة الجنسي، فكلما كان سلوكها مشبوها، انعكس ذلك على سمعة ولي أمرها، و كلما كان سلوكها مستحسنا كانت سمعته فوق مستوى الشبهات. و لعل ما يرجح اقتناعه بهذه القيم الاجتماعية، لا تبنيه الاعتباطي لها كونها تكرس سلطته الأبوية، و تؤكد ذاته، بحيث يغدو دفاعه عنها، و نضاله من أجل بقائها بمثابة دفاع عن نفسه، و تحقيق لذاته، لا سيما و أن الخطاب الأبوي يستند في إلغاء أهلية البنت في الزواج؛ على اعتبار سمعة الأب الاجتماعية هي المعيار الكفيل بجلب العرسان لابنته، بحيث تتهاوى أمامه معايير الأنوثة، و الجمال، و السن، و حسن سيرة

---

[1] **بين القصرين** : ص 180

الفتاة، و سلوكها فضلا عن كون السلطة الأبوية تعتبر البنت قاصرا مما يحجر على حريـــة اختيارهـــا الزواجي.

يظهر من خلال خطابه الأبوي؛ تصوره الإيجابي لذاته؛ التي يراها منزهة عن المعايب، علـــى الرغم مما يعيبه عليه وسط الإجتماعي من سكر ، و خيانة زوجية، و ازدواجية شخصية، تجمع بـــين قطبي التزمت، و الإباحة. و لعل صورته عن ذاته، هي سر توازنه النفسي، و قدرته علـــى مقاومـــة الشعور بالذنب، لأن لهذه الصورة أهمية كبرى في تعزيز ثقته بالنفس، و في التأثير على سلوكه، وتظـل صورته الحالية تمت بصلة وثيقة لماضيه السحيق في الطفولة [1] .

لعل إشفاقه من أن تنال ابنته بسلوكها من صورة ذاته الاجتماعية يعكس خوفه اللاشـــعوري من انفضاح ازدواجية شخصيته أمام الرأي العام، لأن شدة تكتمه على إزدواجيته ،قد تعصمـــه مـــن الرقابة الاجتماعية، لكن سلوك ابنته يمكن أن يطعن في سمعته الاجتماعية . ويكون شكه في عفة علاقة ابنته بالضابط دلالة على عمق شعوره بالذنب، الذي يدفعه إلى إسقاط آثامه عليهما معا، بحكم تجـــرد علاقته بالنساء من العفة الجنسية، بحيث لا يرى في الآخرين إلا ما في عالمه الباطني.كما أن إصـــراره على ضرورة تفضيل الضابط مصاهرته هو في حد ذاته، لا حبه لابنته يشي بحاجته النفســـية للتقبـــل الاجتماعي، و التقدير الإجتماعي بسبب معاناته من الشعور بالذنب، رديف النبذ الإجتماعي بحكـــم عدم تجانس سلوكه مع القيم الاجتماعية المقبولة، لاسيما و أن تفضيل الضابط ابنته في حد ذاتهـــا دون سمعة أبيها يوحي له بكونه آثما، منحرفا غير جدير بشرف المصاهرة. و من ثمة؛ فهو يصدر من المنظـور الاجتماعي التقليدي الذي يرى أن الزواج بالمرأة يكون من باب التبعية لا من باب الأصالـــة لكـــون الزواج مؤسسة اجتماعية تجمع بين أرباب الأسر، و ما البنات إلا أدوات بنائها .

قد يكون رفضه تزويج ابنته الجميلة عائشة دلالة نفسية لا شعورية على تعلقه العاطفي بهـــا، مما جعله عاجزا عن فك هذا الارتباط العاطفي، و لم تكـــن الذرائـــع الـــتي تحجـــج بهـــا ســـوى تغطية.....لميوله اللاشعورية التي لا يستطيع الإفصاح عنها على الرغم من المسوغات الاجتماعية، الـــتي يستند عليها رفضه المتمثل في أولوية زواج البنت الكبرى قبل الصغرى، بحكم رسوخ هذه التقـــاليد الاجتماعية في الأوساط المحافظة، ولعل العقل الجمعي أسهم في إرسائها لإتاحة مبدأ تكافؤ الفـــرص في الزواج، لا سيما وأن السن من معايير التفضيل الاجتماعية التي يراعيها النـــاس غالبـــا في الاختيـــار الزوجي.

---

[1] يوسف مراد و أخرون: **الكتاب السنوي في علم النفس** ،المجلد الأول،منشورات جماعة علم النفس التكاملي، دار المعارف، مصر، 1954، ، ص 121 - 122.

الحاجة إلى الحرية في ظل السلطة الأبوية

تكمن وراء حاجة الأب لممارسة سلطته الأبوية حاجة نفسية ملتصقة بها، ومقترنة بوجودها، هي الحاجة إلى توكيد الذات، التي تتخذ أشكالا شتى كالنقد، و الاحتجاج، واللوم،والتوبيخ، والأمر ويراد بها في الظاهر ممارسة السلطة الإرشادية، لكنها في حقيقة الأمر، مجرد حاجة لتحقيق الذات تسبغ الشعور بالاتزان النفسي، و الرضى عن الذات على شخصيته، لكنها تجرد زوجته، و أبناءه من اتزانهم النفسي، و تقمع فيهم حاجتهم إلى تحقيق الذات، و الشعور بالحرية، لذلك يستمتع أفراد الأسرة بالحرية من جراء غياب الأب عن البيت؛ لشأن من شؤونه التجارية، التي اقتضت سفره مدة يومين، حيث يتراح عنهم عبء الضبط الصارم لسلوكهم بانسحاب السلطة الأبوية المؤقت، ويتألبون حول أمهم، ليمارسوا حريتهم المحجور عليها، و يشجعونها على زيارة ضريح الحسين، هي التي لم تبرح بيتها منذ أربعين عاما، و تبدي خديجة و عائشة رغبتها في زيارة مريم بنت الجيران للترويح عن النفس، و هي من الأمور المحظورة من السلطة الأبوية، و لم يكن أفراد الأسرة ملتزمين بها اقتناعا بقيم الحظر وجدواها، بل مخافة العقاب الناجم عن مخالفتها، لذلك ما أن غاب الأب عن مجال ممارسة السلطة، حتى غاب حضوره النفسي، و التربوي، و انطلقت الأشواق المكبوتة إلى الحرية، و تحقيق الذات، وطلب التسلية، و الترويح عن النفس، و الرغبة في الانتقام من السلطة الأبوية، رديف القمع، و القهر، و الحرمان، لا سيما و أن السلوك التربوي القمعي؛ مدعاة للسلوك التمردي و الاحتجاجي، لأن الإسراف في الشدة، و القمع يعوق " عملية تكوين الأنا الأعلى عند الطفل، أو ما يعرف بمفهوم الضمير و جهاز القيّم، و يجعل من الطفل إنسانا موقفيا يفتقر إلى الرقابة الذاتية، و يخشى العقاب العاجل فقط، و لا يأبه كثيرا بالعقاب الآجل، يرهب السلطة طالما كانت حاضرة أمامه، و لا يأبه بها كثيرا إذا كانت غائبة عنه [1]".

لعل إلحاح الأبناء في إقناع أمهم بوجوب زيارة ضريح الحسين، كان ذا دافعين؛ يتمثل في حبهم للأم المقهورة، و مشاركتهم الوجدانية لمعاناتها من جراء مكوثها في البيت، و ثانيها هو رغبتهم اللاشعورية في الانتقام من الأب لكونه أحبط رغباتهم، و كبت حاجتهم لتحقيق الذات، و ظلت هذه الميول الانتقامية اللاشعورية كامنة، حتى أتاح غيابه مجال التنفيس عنها. كما ان تجاوب الأم مع رغبة أبنائها يصدر عن دافعين؛ يتمثل أولهما في نزعة المجاراة الخضوعية، التي تحدوها للامتثال لزوجها، وأبنائها على حد سواء، و نزعة توكيد الذات المقموعة في ظل الوصاية الاجتماعية.

---

[1] محمود عبد القادر : **التنشئة الاجتماعية للطفل و تكوين الجناح** "المجلة الاجتماعية القومية"، العدد 2، يوليو 1970 ،مجلد 13، مصر، ص 190.

كان الأبناء يدركون أنهم يعارضون إرادة الأب الغائب؛ لأنه طالما عارض إرادهم، و قمع رغباهم، لذلك قاوموا الإحباط بالإحباط، و القهر بالتحدي، و التمرد، لأنه من البديهي أن تكون الاتجاهات السلبية نحو السلطة مخرجا مناسبا للتنفيس عن الضغوط، و الكبت المتمثل في قهر السلطة الأبوية، لأن الأبناء، الذين يضيقون بتسلط الوالد عليهم، يرون في كل ما يمثله الوالد كبش فداء ينفسون به عن ثأرهم القديم مع والدهم، و هكذا يجدون في التمرد على القيم، و المعايير السلوكية، بديلا للتمرد على السلطة الأبوية في حد ذاها.

يكشف سلوكهم فشل السلطة الأبوية في إحداث التوحد بين صورة الأب و صورة الأبناء، لأنهم رفضوا قيمه، و معاييره السلوكية، بمجرد غيابه عن البيت يوما واحدا؛ لكونهم "يعانون بحدة، وعمق من فقدان الحب، و التقبل من آبائهم، و يعتبرون أنفسهم منبوذين تماما من قبل آبائهم، إذ توفر الدفء، و التقبل الأسري من العوامل الأساسية، التي تساعد الطفل على عملية التوحد بوالديه " التعيين الذاتي"، و من ثمة على تمثل القيم، و المعايير الاجتماعية المتجسدة في الوالدين. و إذا حدثت إعاقة عن عملية التوحد هذه –عن طريق فقدان الحب- فإن مفهوم الضمير عند الطفل يصبح مشوشا، و مضطربا، لا يعرف كيف يقوم بالتصرف المناسب، في الموقف المناسب، و كيف يسيطر على دفعاته المختلفة خصوصا العدوانية، و كيف يتمثل، أو يكتسب معايير بيئية، و ثقافية [1].لذلك انطوى سلوك الأبناء على نزعة انفتاحية تتوخى إشباع الحاجات النفسية، و الاجتماعية، و رفض القيم الأبوية المحافظة.

الدلالات النفسية لحادث السيارة

عندما سارت أمينة برفقة ابنها الأصغر كمال في قلب الشوارع، و الأزقة الزاخرة بالناس، والحركة، و إيقاع الحياة " وجدت سرورا ساذجا لمشاركة الأحياء في الحركة و الانطلاق، بسرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأمها في الخرنفش -بضع مرات في العام- تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر إلى الطريق وجعلت تسأل عما يصادفها في طريقهما من مشاهد و أبنية و أماكن و الغلام يحدثها في إسهاب مزهوا بدور المرشد الذي يقوم به[2]".

---

[1] محمود عبد القادر: **التنشئة الاجتماعية للطفل و تكوين الجناح** ، ص 192.

[2] **بين القصرين** ، ص 191.

يبدو الاغتراب الاجتماعي جليا في سلوك الأم، و هي تستفسر ابنها عن المكان الذي تنتمي إليه؛ دون أن تعرفه، مما ينم عن كونها لا انتماء لها خارج حدود بيتها، و بدا ابنها الأصغر عارفا بكل تفاصيل فضاءات الأمكنة التي يسيران فيها، و بدت مداركها العقلية محدودة بالقياس إلى ابنها، وغدت بالتالي دون الأطفال مداركا؛ مما ينطوي على دلالة اجتماعية، تتمثل في الاختزال العقلي، والاجتماعي الذي تعرضت له في ظل السلطة الأبوية المستندة على سلطة النظام الاجتماعي كله.

لعل السرور الذي استشعرته في تجوالها؛ يعكس عمق الانقباض النفسي، الذي تكابده من طول قبوعها بين جدران البيت رهينة سلوك آلي رتيب، تظل تمارسه دون أن تملك منه فكاكا. و من ثمة؛ فخروجها من البيت؛ كان بمثابة تجديد لإيقاع سلوكها الرتيب، لأن آلية السلوك اليومي، ورتابته مجلبة للملل و اليأس، و التهرؤ النفسي، الذي يمتص عناصر الخصوبة، و الجمال من طوايا النفس. يبدو أن ما كان يكدّر صفو نزهتها إدراكها فداحة الخطأ، الذي اقترفته بخروجها دون استئذان زوجها، الذي لا يسمح بخروجها لزيارة ضريح الحسين أيا كانت الأسباب الداعية لذلك .. هكذا يبدو أن التمزق النفسي الذي لازمها خلال نزهتها يعزى لشعورها بالذنب الناجم عن تمردها على وصاية زوجها الاجتماعية، مما هيأها نفسيا للتعرض لحادث السيارة، و تنتقل بالتالي من موقع الجانية المتأثمة المهددة بالعقوبة الرادعة إلى موقع الضحية الجديرة بالعطف و التسامح. و إذا كانت قد خرجت من البيت من باب التمرد على السلطة الزوجية، فستعود إليه جريحة طريحة الفراش من باب التوبة، والخضوع للسلطة الزوجية.

إذا كانت قيم السلطة الزوجية التقليدية؛ تقمع العصيان بالعقاب النفسي، و البدني، والاجتماعي، فقد عمدت أمينة إلى العقاب الذاتي اللاشعوري كآلية دفاع نفسية، تعصمها من العقاب الاجتماعي؛ لأن عمق تشبعها بقيم الطاعة، و الخضوع، و الحياء، و التبعية جعل خروجها من البيت مشحونا بمحاذير الشعور بالأثم، التي ساقتها إلى هذا المصير، و جعلتها بالتالي غير راضية عن نفسها، لأنها تستمد رضاها عن نفسها من رضى الآخرين عنها شأن معظم الناس، لا سيما و أن أمينة كان زوجها بالنسبة لها بمثابة مرجعية اجتماعية تحدّد لها أنماط السلوك و معاييره.

كما ينطوي حادث السيارة على دلالة اجتماعية، فضلا عن دلالته النفسية، تتمثل في كون أمينة حديثة عهد بالخروج، و السير في زحام الطريق، و عبور طرق السيارات، مما عرّضها للوقوع ضحية حادث سيارة، و لو كانت معتادة على ارتياد الشوارع لكانت مناعتها النفسية، و آلية ردود أفعالها كفيلة بتجنيبها هذه الحادثة.

كانت آثار الحادث سببا في اكتشاف السيد عبد الجواد خروج زوجته أثناء غيابه، و كــان بإمكانها تبرير كسرها بأسباب تنفى عنها الشبهات -كما اتفق أبناؤها - لكنها كاشفته بالحقيقـة، ولعل ما شفع لها عندئذ كونها طريحة الفراش، مما استدر عطفه، و لطف نزعته العدوانية الانتقامية لأنـه وجد في الحادث الفاجع عقابا قاسيا للزوجة المتمردة على إرادته العليا، لأن عقابه في حقيقـة الأمـر لايراد به إلا إيلام الزوجة، و إشعارها بالندم، حتى يمحو ألم العقاب لذة التمرد. و لم يكن سـكوته سوى تأجيلا لإنزال العقاب الرادع؛ ريثما تتماثل الجريحة للشفاء؛ لأن إنزال العقاب عليها؛ و هـي طريحة الفراش؛ ليس سلوكا أخلاقيا يتغيا تعديل السلوك المنحرف، بل سلوك انتقامي غايته التنكيـل والتشفي .

كما أن عودة السيد عبد الجواد رازحا تحت وطأة الشعور بالذنب من جراء سكره، و خيانته الزوجية مع عشيقاته خلال رحلة عمله امتص ميوله العدوانية الانتقامية، حيث تمزق نفسيا بين نزعتين مختلفتين؛ تحدوه إحداهما للصفح عن زوجته، التي قلما أخطأت طيلة حياتها الزوجية المديدة، و تـنزع به الأخرى لإنزال العقاب الرادع عليها " و قد بدأ الصراع في اللحظة التي اعترفت فيها المرأة بخطئـها باكية وهي طريحة الفراش، و لم يصدق أذنيه لأول وهلة، ثم أخذ يفيق إلى نفسه، وإلى الحقيقة البغيضـة التي تطالعه متحدية كبرياءه، وصلفه، بيد أنه أجّل حنقه ريثما يرى ما أصابها، أو أنه -الأصـدق- لم يسعه أن يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المـرأة التي يألفها، ويعجب بمزاياها، فعطف عليها عطفا أنساه خطأها، وسأل الله لها السـلامة، انكمـش جبروته حيال الخطر المحدق بها، واستيقظ ما تنطوي عليه نفسه من حنان موفور فعاد-يومـذاك-إلى حجرته محزونا مكتئبا وإن لم يفصح وجهه... لا أمامها ولا أمام أحد من الأبناء عن شيء مما يختلـج في صدره.... إذا غلب العفو ولبى نداء العطف وهو ما نزعت إليه نفسه فقد أضاع هيبته وكرامتـه وتاريخه وتقاليده جميعا، فأفلت منه الزمام، وانتثر عقد الأسرة الـتي يـأبى إلا أن يسوسـها بـالحزم والصرامة[1]. "

هكذا تتلاشى مشاركته الوجدانية لزوجته بمجرد مزايلة الخطر لها، و لم يكن انقسام شخصيته بين التسامح، والانتقام إلا مظهرا من مظاهر ثنائية نفسيته،وقوامها اختلاف ظاهر سلوكه عن باطنـه، لأنه ليس ذا شخصية مسطحة التكوين، ولا أحادية الجانب، لذلك أبدى الغضب عليها في الظـاهر، ولكنه في الباطن يحنو عليها، ويسرف في عقابها الاجتماعي بطرده إياها من البيت على الرغـم مـن

---

[1] **بين القصرين**، ص223

صفاء نفسه من كل حقد عليها. وهكذا فقد تقنعت الرحمة بالنقمة، والحنو بالقسوة، والتسامح بالانتقام.

يبدو أنه كان ميالا للسلوك المتسامح لكنه يتحرج من آثاره السلبية المتمثلة في انحسار هيبة سلطته الأبوية، التي يحرص على فرض احترامها عليهم بالإكراه، لا بالاقناع. وهكذا تشي صرامته الظاهرية بعمق خوفه من إفلات زمام السيطرة على أفراد أسرته، حيث كلما اشتد خوفه أسرف في صرامته تحقيقا لامنه النفسي؛ الذي يستمده من ممارسة سلطته الأبوية، التي تؤكد ذاته، وتبرر وجوده على حدّ سواء.

لعل اختياره لعقاب الطرد من البيت، لم يكن اعتباطا، بل مقصودا، بحكم آثاره السلبية، التي تهز ثقة زوجته بنفسها، وتؤذي نرجسيتها، وتلغي مبرر وجودها، وتنال من توكيدها لذاتها، لكونها تحتل موقعا متميزا في شبكة العلاقات الأسرية، باعتبارها المحور، الذي يستقطب كل أفراد الأسرة؛ بحكم دورها النفسي، والاجتماعي، الذي تضطلع به في علاقاتها بهم فرادى، و مجتمعين معا. لذلك، فعودتها الكئيبة إلى بيت أهلها، تنقلها من دور الزوجة، والأم بكل ما يناط بها من أعمال، وأعباء إلى دور البنت، محدود الدور، والأثر، فضلا عما يصاحبه من شعور بالإثم، والإخفاق، والحرمان العاطفي، والتعرض لعار الطلاق، و وصمته الاجتماعية الشوهاء. لذلك كانت آثار العقاب الاجتماعي فادحة على الأم، و أبنائها، الذين عانوا من غيابها مشاعر الحرمان العاطفي، و الشعور بالذنب، لكونهم شجعوها على الخروج؛ مما جعلهم يشعرون بضلوعهم في تورطها في هذا المأزق الحرج. و يحملهم على الاتصال بالجيران للتوسط بهم في إصلاح ذات البين بين أمهم و أبيهم.

توسلت نساء الجيران بحرمة الجيرة، و بقداسة الزواج لفتح قنوات الاتصال الفعال بين السيد عبد الجواد، و زوجته المغضوب عليها، لكنه كان يرفض مبادرات الصلح. لولا أن أدركت أم مريم بغريزتها الأنثوية أن الإغراء الجنسي كفيل بالتأثير في إرادة الرجل، و توجيه سلوكه أكثر من فعالية القيم الاجتماعية الأخرى. و يتمثل ذلك في تسليط أم مريم سحر إغرائها الجنسي على السيد عبد الجواد أثناء زيارة تشفعها لجارتها المغضوب عليها، حيث تحقق الغرض المقصود بحصولها على وعده بإصلاح ذات البين؛ و هو في نشوة إغرائها الجنسي الواعد بالمتعة. و لذلك يحقق الاتصال غايته بحكم اعتماده وسيلة تأثير فعالة، لا سيما و أن الرجل زير نساء، لا تقنعه المرأة بالمنطق، و لا بالقيم الأخلاقية، لأن هذه العناصر لا تمس من شخصيته إلا مستواها السطحي، بينما إذا خاطبت مستواها العميق انقادت في مجاراة غريزية خاضعة.

هكذا؛ فقد استخدمت أم مريم السلوك الجنسي لتعديل السلوك الاجتماعي، و ليس هنــــاك قرائن قطعية الدلالة على لجوئها إلى هذا السلوك، إذ قد يكون ما رصدته شخصية السيد عبد الجـــواد خلال الزيارة مجرد تصورات؛ نجمت عن مخزون الكبت الجنسي، الذي جعله يرى في المرأة ما ليـــس فيها، و يسقط بالتالي عرامة شبقه الجنسي عليها لتبرير التقرب منها، و إشــــباع ميولــه الجنســية، والنرجسية، و قد تنازعه شعوران خلال موقف الغواية الجنسية، أولهما هــــو الشـــعور بالاســتهواء الجنسي، الذي حمله على الترحيب بوساطة المرأة، و قبول شفاعتها، أما ثانيها، فهو الشعور بالإثم مـن جراء الميل إلى انتهاك حرمة الجيران، لذلك كان يكثر من الإطراق، و الأغضاء كآلية دفاع تعصمــــه من الانقياد لدوافعه الجنسية. و لعل ما عمق أثر الاستهواء الجنسي بينهما انتماءهما الاجتمــــاعي إلى محيط خال من مظاهر الاختلاط بين الجنسين، مما جعل مستوى الاتصال بينهما عند حدود الإثـــارة الجنسية، لأنه لم يرق إلى مستوى الاتصال الإنساني الفعال.

و تبدو على شخصيته بعض مظاهر التغيير؛ و هو بمثابة تكيــــف مـــع الظــروف العائليــة والاجتماعية، لا سيما و أنه لم يحدث طفرة، و لا دفعة واحدة، و لا صدفة. و هكذا تنفرج أزمـــة هذه الأسرة بانخفاض نسبة التصلب في شخصيته البادية الصلابة في أكثر المواقف و الملابسات.

ويبدو أن أبرز العوامل التي أسهمت في تعديل سلوكه المتصلب، هو تحقيقه لإشباع بعــــض الحاجات النفسية، التي كان يريد إشباعها بتصلبه كتحقيق الذات عن طريق سحق ذوات الآخرين ممن هم حوله من أبناء، و أقارب، و جيران، و نيل تقديرهم الاجتماعي، الذي يعزز ثقته بنفســه لكــأن التوتر الناجم عن ازدواجية شخصيته، و إغراقه في الآثام حداه للتضييق على أفراد أسرته، و الإسـراف في إنزال العقوبات لدى مخالفتهم إرادته، و قمع رغائبهم حسدا لهم عما ينعمون به من راحة ضمــير، و نقاء سريرة، لذلك يعمد إلى شحنهم ببعض التوتر النفسي، الذي يعاني منه مـــن جــراء الشــعور بالذنب؛ بحيث ينتقل أفراد أسرته من موقع الأبرياء الراضين على أنفسهم إلى موقع الخاطئين المغضوب عليهم، و يتم بالتالي تبادل المواقع، و الأدوار، و لا ينفرد وحده بحمل عبء الشعور بالذنب.

كان لتوافد الجيران، و الأقارب للشفاعة، و التوسط، و عبارات المجاملة، و الدعوات الصالحة أبلغ الأثر النفسي في امتصاص انفعالاته السلبية، و شحنه بالثقة بالنفس، رديف الاتزان النفسي، ممــا حداه لتبني قيم التسامح، و الصلح.

يبدو ياسين من أكثر الأبناء تجسيدا لسمات شخصية أبيه، لا سيما بنيته الجسمية، و عرامة دوافعه الجنسية، التي تحمله على الاهتمام بالنساء، و الإسراف في إنفاق المال من أجل استمالتهن، وقد استهوته فئة من النساء هن "العوالم" دون غيرهن ربما لكونهن أكثر أنوثة، و أقدر على إثارة الرجال، و عانى من جراء ميله إليهن مرارة الكبت، و الإحباط، و اكتشف مباهج اللذة الجنسية. و ما حمله على هذا السلوك الجنسي جملة من العوامل، منها أثر قانون الوراثة الطاغي على السلوك، و عنفوان الدوافع الجنسية وليدة شبابه، و فراغه، و خلو باله، و انصرافه عن وسائل التصعيد الجنسي، التي يلجأ إليها العصابيون كالثقافة، و الرياضة، و العبادة، و الفنون، و السياسة. فضلا عما ورثه عن أمه - طليقة أبيه- المرأة الهلوك، المزواج؛ المطلاق ذات السلوك الجنسي المحاط بالشبهات، مما جعله يجمع في بنيته الجسمية عناصر الوراثة المتجانسة من أبويه معا.

انطبعت في شعوره، و لا شعوره صدمة نفسية، كان لها أبلغ الأثر في سلوكه الجنسي خلال طفولته التي قضاها مع أمه الطالق، التي كانت تستضيف بين الحين، و الآخر في بيتها عشيقا لها، كان يعمل بائع خضار في إحد الدكاكين، و تتمثل هذه الصدمة في مشهد جنسي، يجمع بين أمه وعشيقها، و قد بدا له بحكم مداركه المحدودة، كأنما هو مشهد عدواني، كان الرجل فيه يبطش بأمه، مما أفزعه، وأبكاه. و ارتسمت الذكرى بطابع العدوان في بادئ الأمر، و مالبثت أن باتت ذات طابع جنسي، يوّلد فيه الشعور بالإثم و العار، و يحدوه لممارسة السلوك الجنسي عينه، ليتخفف من وطأة الإثم، والعار، و ينتقل بالتالي من دور المعتدى عليه- لأن العدوان على أمه عدوان عليه- إلى دور المعتدي.

يعزى نزوعه لمطاردة "العوالم" إلى عمق حرمانه العاطفي، الذي كابده من جراء طلاق أبيه لأمه. و عاش في كنفها شبه مهمل منبوذ، و تعرض لتأثير القدوة السيئة من خلال مشاهداته بعض السلوكات الجنسية، التي كانت أمه تمارسها أمامه ظنا منها أن مداركه لا تتيح له معرفة ما يدور حوله، و لذلك تعرضت علاقته العاطفية بأمه للاضطراب سواء حين كان تحت كفالتها، أو بعد فراقه الطويل لها، الذي دفعه إلى إرجاع انفعالية حول صورة الأم الشريرة، و جعله يخفق في تقمص التوجيه

الأخلاقي[1]. و فوق ذلك كله؛ فقد كان حرمانه من حنان الأم من جملة الدوافع، التي حملته على البحث عن المتعة الجنسية، رديف المتعة العاطفية المتمثلة في الحنان .

موقف الأبناء من صورة الأب الأخرى

أتيح لياسين اكتشاف صورة أبيه الأخرى في موقف مشحون بالحيرة و الذهول، و قد دلته عشيقته على مجلس الأنس، الذي كان أبوه يغني فيه، و يطارح خليلته الهوى، و تمزق نفسيا بين صورة الأب المنطبعة في وعيه، المتشحة بالقداسة، و الإكبار، و صورته الماثلة أمامه، التي تجسد الطبيعة البشرية المتجردة من القناع البراق، ولعل ما استشعره من ذهول، يعكس التوتر النفسي الناجم عن تناقض الصورة المتوقعة عن الصورة الواقعية، و أتاح له صدوره من نظام معرفي متنوع في قيمه، ومعاييره تقبل صورة أبيه الأخرى دون رفض، و لا شعور بالعار لأن "الفرد ذو النظام المعرفي المتوافق، قد يرى مثلا أن من الضروري ألا يكون هناك تناقض بين العقيدة الدينية، و السلوك العملي للفرد، وهو يعتقد أن كل ما يتصل بالدين مقدس، فالعقيدة، و رجال الدين، و الطقوس، أو الشعائر الدينية على درجة واحدة من القداسة. بينما يرى الفرد ذو النظام المعرفي المتنوع أن هذه المكونات، أوالجزئيات المعرفية، التي يتكون منها النظام المعرفي الديني ليست بالضرورة متوافقة، أو مترابطة، وليست على درجة واحدة من القداسة، و الاحترام، فقد تكون العقيدة الدينية جيّدة، و مقدسة، ولكن رجل الدين ليس بالضرورة مقدسا، و جيّدا [2]" و كذلك شأن موقف ياسين من أبيه، حيث رأى قداسة سلطته الأبوية، التي فرضها على أفراد جماعته الأسرية، لا تتنافى و حياته الأبيقورية في مجالس الأنس، كما أن اكتشافه لحقيقة أبيه لطف شعوره بالإثم، مما جعله يشعر بالفخر من جراء انتمائه إليه؛ بحكم كون الطبيعة البشرية تجعل الناس يجدون راحة نفسية لدى اتصالهم بمن يجانسونهم في أنماط السلوك، و الميول، و القيم، لأنهم يرون فيهم امتدادا طبيعيا لهم، يعزز لهم الثقة بالنفس، بينما إذا وجدوا في الآخرين ما يخالف قيمهم، و أنماط سلوكهم، اضطربت ثقتهم بأنفسهم، و بالآخرين، و جنحوا إلى السلوك الدفاعي، أو السلوك العدواني بحكم شيوع الاتجاهات التعصبية في السلوك الإنساني.

أما أخوه فهمي، الطالب المتدين، و العاشق المثالي، و الحالم بالثورة على الإنجليز، فقد كانت صدمة اكتشافه صورة أبيه الأخرى حادة، هزت وجدانه من الأعماق، و حدت به إلى التكذيب،

---

[1] دانييل لاجاش: **المنشأ النفسي للجريمة**، ترجمة عبد الحليم السيد "المجلة الجنائية القومية"، العدد 1، مارس ، 1970، المجلد 13 مصر، ص 114.

[2] حامد عبد العزيز الفقي: **سيكولوجية الفرد في المجتمع**، ط1، دار القلم، الكويت، 1984، ص 30.

والتشكيك في صحة في الأخبار، التي قالها له أخوه ياسين، مما جعله يهتف في غمار صدمته بالحقيقة قائلا: " أبي يذهب إلى البيت زبيدة ليشرب و يغني، و يضرب الدف .. أبي يذعن لمداعبة جليلة وتوددها! ... أبي يقترف السكر، و الزنا ..كيف اجتمعت الثلاث!...إذن هو غير الأب الذي عرفته في البيت مثالا للورع و التقوى!. أيهما الصحيح؟ كأني أسمعه الآن و هو يردد : الله أكبر .. الله أكبر...فكيف ترديده لغناء! .. حياة تمثيل ورياء!. و لكنه صادق .. صادق إذا رفع رأسه للدعاء .. صادق إذا غضب .. أيكون أبي فضيلة .. أم يكون الفسق فضيلة[1]".

هكذا يتعرض موقفه الإدراكي للاهتزاز بحكم شحنة الانفعالات التي استولت عليه، لأن تعارض الحقائق الجديدة مع الحقائق القديمة، يفضي إلى رفض الحقائق الجديدة المناقضة للمعارف السابقة، فضلا عن دلالته على الخوف، مما يترتب عن القبول بها من صدمات، و أزمات نفسية، وهي ظاهرة معرفية هروبية شائعة[2]. و يرى فهمي أباه المثل الأخلاقي الأعلى ينهار بجرة من لسان أخيه ياسين، و لذلك تعسر عليه الاقتناع بواقعية الصورة الجديدة، التي رسمها له أخوه مناقضا ما ارتسم في وعيه، و لا وعيه عن ذاته المتألقة بمكارم الأخلاق، التي تستند عليها سلطته الأبوية المهيبة، و لذلك تخلخلت انساق القيم الأبوية الراسخة في الوعي المتمثلة في الورع، و العفة، و الزهد أمام انساق القيم المنحرفة المنسوبة إليه كالإباحية، و اللهو، و الفسق. و لعل ما جعله يرفض صورة أبيه السلبية، كونها لا تتوافق و صورته عن ذاته، و ما تبناه من قيم العفة و الزهد في اللذات الجسدية.

عدوان ياسين الجنسي

تظافرت بعض العوامل النفسية و الاجتماعية على سوق ياسين في طريق الانحراف الجنسي المتمثل في شروعه في اغتصاب الخادم أم حنفي، المرأة الكهلة المحرومة من الأنوثة، و الجمال. و لعل ما أذكى ميوله الجنسية العدوانية، هو انهيار صورة الأب، باعتباره السلطة التي تفرض القيم، و المعايير السلوكية بالإكراه، و العقاب، و المثل الأخلاقي الأعلى، الذي يلهم أبناءه القدوة الواجبة الاحتذاء، ولذلك أجهز سقوطه الأخلاقي على فعاليته النفسية كقوة توجيه للسلوك، و ضبط للنزوات. أما العامل الثاني؛ فيتمثل في تعاطيه كمية من الخمر أبطلت فعالية الأنا في رقابة العقل الباطن، و تزامن ذلك و انتصاف الليل كظرف طبيعي يحدو للاستغراق في الاهتمام برغبات اللاشعور الجنسية، فضلا عن مناسبة زفاف أخته بما يقترن بها في الوعي، و اللاوعي من ممارسة طليقة للجنس، و فوق ذلك كله، فاعتياده على ممارسة الجنس أورثه حاجة نفسية تكاد تكون آلية من حيث إلحاحها في طلب

---

[1] **بين القصرين** ، ص 311.

[2] عبد العزيز القفي: **سيكولوجية الفرد في المجتمع** ، ص 32.

الإشباع، توجت بموقفه السلبي من الخادم، باعتبارها كائنا دونيا، تابعا لا محاذير من ممارسة الجنس معه.

على الرغم من أهمية هذه الدوافع، و العوامل مجتمعة إلا أنها لا تسوغ الشروع في العدوان الجنسي، إذ قد يتعرض بعض الأفراد للظروف نفسها لكنهم لا يجنحون إلى الانحراف. و من ثمة يتكشف لنا أن الغواية استعداد نفسي يكمن في الفرد نفسه، و ليست مجرد مؤثرات خارجية لأنه " لا يمكن أن يكون لأية غواية أقل أثر ما لم تنجذب إليها رغبة من رغباتنا الداخلية التي نقمعها نحن أنفسنا في العادة ... إننا لا نستغوى عن طريق ما في العالم الخارجي من المتع و الملذات ... و إنما نستغوى عن طريق أنفسنا [1]".

هكذا؛ انطوى سلوك ياسين الجنسي على دلالات؛ منها أنه يقوم على رفض قيم العفة، والزهد، والحرمان. و يتبنى قيم المتعة الجنسية، و الحرية الفردية، فضلا عن كونه احتجاجا على الدور الاجتماعي المفروض عليه بوصفه أعزب محروما من الحب، و الجنس، و الاستقلال عن السلطة الأبوية، التي تفرض عليه الحرمان، و التبعية، و تجعله كائنا مجردا من فعاليته الجنسية، رديف سعادته؛ وتحقيقه لذاته، و فحولته، لذلك كان عدوانه الجنسي بمثابة رسالة رمزية، تتضمن رغبته في إعادة ترتيب العلاقات الأسرية على نحو يؤكد ذاته، و استقلاله، و يشبع غرائزه، و حاجاته النفسية.

قد يكون شروعه في العدوان الجنسي على الخادم أم حنفي بمثابة انتقام لا شعوري من السلطة الأبوية المزدوجة الشخصية، لأن والده أباح لنفسه المتع الجنسية بكل أنواعها، و فرض الحرمان العاطفي، والجنسي، و الاجتماعي على أبنائه، و بناته جميعا.

يكتشف السيد عبد الجواد إثر فضيحة العدوان الجنسي مطالب ابنه عن طريق الإسقاط التمثيلي الذي جعله يرى ابنه شبيها به في تكوين شخصيته، و دوافعه، و اتجاهاته " عادة تكون الخصائص التي تنسب للشخص الآخر عن طريق الإسقاط التمثيلي دقيقة لتمكن من حدوث اتصال ذي معنى، أو على إقامة سلوك متبادل مناسب [2]" لذلك تم تزويجه ببنت صديقه "محمد عفت" دون أن يستفسر عنها، أو يطالب برؤيتها، مما ينم عن موقفه من المرأة بوصفها أنثى مانحة للمتعة الجنسية دون أبعاد نفسية، و سلوكية، و عقلية، و لم يكن ذلك في حقيقة الأمر سوى موقف أجيال متعاقبة،

---

[1] ج .أ .ها دفيلد: **علم النفس و الأخلاق**، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم، مكتبة مصر .د. ت. ط 61.

[2] سيدني .م . جوارد: **الشخصية بين الصحة و المرض**، ط 1 ، ترجمة حسن الفقي و سيد خير الله. مكتبة الأنجلو المصرية . 1973. ص 216.

تتبنى قيما اجتماعية قوامها الاحتكام إلى اختيار السلطة الأبوية بحكم كون الزواج مؤسسة اجتماعية، تربط أواصر القرابة بين الأسر، و ما البنين، و البنات إلا أدوات بنائها.

الزواج بين التوقع و الواقع

لعل ما حمل ياسين على التحمس للزواج تصوره الإيجابي له باعتباره رابطة تجمعه بالمرأة الأنثى، المشبعة لرغبات الجسد المكبوتة، التي تكدر عليه استقراره النفسي، و من ثمة؛ فزواجه ينفي عنه كل أسباب الكدر، لكنه ما لبث أن وقف على ما ينطوي عليه الزواج من ملل، و رتابة، إذ استنفد جسد الزوجة جاذبيته، و همدت عرامة شبقه الجنسي، و اكتشف " بأن العروس ليست المفتاح السحري لدنيا المرأة، ليس يدري كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج، و يبدو جانب على الأقل –من أحلامه الساذجة عسير التحقق، و هو ظنه بأنه سيستغني بأحضان زوجته عن العالم الخارجي، و انه سيلبد بكنفها العمر كله، ذلك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها " [1].

يبدو أن الاتصال الإنساني بينه و بين زوجته قوامه الجنس كفعالية نفسية وحيدة؛ تجمعه بها، مما أفضى إلى انسداد قنوات الاتصال بينهما، لأن قيم المتعة الجنسية، محدودة الأثر، و الأجل، حيث أنها قد تعجل بقيام علاقة الرجل بالمرأة، لكنها لا تكفل استمرارها شأن القيم النفسية، و العقلية، والاجتماعية الأخرى .. لذلك استولى عليه الشعور بالاغتراب النفسي عن زوجته بحكم انتفاء شعوره بالانتماء إليها، فضلا عن عدم حاجته إليها. و ظل ظاهر العلاقة الزوجية لا يشي بما في باطنها من توتر، و فتور حيث " قد لا يؤدي توتر العلاقة بين الزوجين إلى الانفصال الفعلي، ولكنهما قد يعيشان تحت سقف واحد في حالة "الطلاق الانفعالي". وقد يتسم سلوك الطرفين بالطابع الرسمي المبالغ فيه، و يبدو زواجهما للعيان مثاليا لندرة الاختلافات الظاهرية، و عادة ما يكون الزوجان غير ناضجين. و من الأسباب الجوهرية الكامنة وراء توتر العلاقة بين الزوجين وجود هوة بين الحاجات الشعورية الممكن تحقيقها، و بين الحاجات الشعورية البعيدة المنال " [2].

يسعى الزوجان الحديثا عهد بالزواج لممارسة السلوك الترويحي دفعا للملل و الرتابة، اللذين يهددان استمرار العلاقة الزوجية، لذلك تقترح الزوجة على ياسين الخروج إلى أحد الملاهي، فتستولي مشاعر الغيرة على زوجة أبيه، و أخته، و تتقنع بقناع الدفاع عن قيم الحياء، و العفة و تجنب

---

[1] **بين القصرين** ، ص 353 - 354.

[2] أنطوانيت جورجي: **ديناميات التوافق في الحياة الزوجية** "المجلة الاجتماعية القومية"، العدد 1. يناير 1967 المجلد 4، مصر ص 80-81.

الشبهات. يبدو أن ما أذكى في المرأتين نوازع الغيرة كونهما قعيدتي البيت، تعانيان الوحدة والوحشة، و الملل دون أمل في الترويح عن نفسيهما بالخروج. و من ثمة؛ فهما مخفقتان فيما و فقت فيه زوجة ياسين، لذلك يحز في نفسيهما أن تستمتع الكنة بما هما محرومتان منه، كما أن خروجها مع ياسين يحرك فيهما الشعور بالحرمان من الحرية، و من التسلية، و الترفيه، مما يترتب عنه بروز دوافعهما العدوانية.

لعل إيعاز الأم للسيد عبد الجواد بوجوب ضبط سلوك ياسين، كان مدفوعا برواسب عقاب زوجها لها على خروجها لزيارة ضريح الحسين، لذلك تحدوها رغبة لا شعورية لإيقاع العقاب على الكنة المتمردة على القواعد السلوكية السائدة، و تنتقل بالتالي من موقع الضحية المضطهدة إلى موقع الجلاد المضطهد. و قد يكون حبها لابن زوجها حداها للتعبير عن غيرتها عليه، و غيرتها من زوجته التي استأثرت بحبه، و اهتمامه دونها، و اتخذت من الاحتجاج على الخروج للسهر ذريعة للتنفيس عن ميولها العدوانية اتجاه الكنة الغريمة .

تعرض ياسين للعقاب المعنوي بسبب تبنيه قيم التسامح، و الانفتاح، و إشباع الرغبات في تعامله مع زوجته، لا سيما و أن محيطه العائلي تسود فيه قيم التشدد، و الانغلاق، مما أفضى إلى عدم تجانسه الثقافي مع قيم السلطة الأبوية، التي اتخذت العقاب وسيلة ضبط للسلوك المنحرف عن توقعات الجماعة القرابية، و المتمثل في خضوع ياسين لزوجته الميالة للسيطرة؛ بحكم كون العلاقة الزوجية؛ غالبا ما تقوم على طرفين، يستمتع أحدهما بالسيطرة، و يركن الآخر إلى الخضوع في متعة مازوخية.

أما المنظور الاجتماعي التقليدي؛ فيكرس حق السيطرة للرجل، و يفرض الخضوع على المرأة، و إذا اختلت انساق القيم الاجتماعية، تمنع الرقابة الاجتماعية، و قوانين ضبطها الخلل تماما، أو تخفف منه عن طريق الضغوط التي تمارسها الجماعات الأساسية، و المرجعية، بصورة مباشرة، أو مواربة.

تزداد و تيرة الرتابة في الجو النفسي للحياة الزوجية، مما يحمل ياسين على ارتياد الحانات، حيث يغرق وعيه المصدوم بخيبة أمله في الزواج؛ لا سيما، و قد تعذر عليه التكيف مع متطلباته، بحكم فعالية قوانين الوراثة المتحدرة إليه من والديه معا، لذلك تماهي بصورة أبيه عن طريق الوعي، واللاوعي معا. و عند مقارنته بين لذة الخمر، و لذة الزوجة، يرجح لذة الأولى على الثانية، لا سيما وأن لذة الخمر متجددة، دائمة؛ بينما لذة الزوجة متلاشية، زائلة تورث الملل، مما يدلل على رؤيته المادية الشيئية للمرأة لكونه تفاعل معها كجسد استنفذ أغراض إغرائه، و بات غير ذي جدوى، أما تفاعله النفسي معها فكان ذا نزعة عدوانية تشي بخيبة أمل أحدهما في الآخر، و اغترا بهما عن

بعضهما البعض، و انعدام شعورهما بالارتباط العاطفي، و الأخلاقي، و الاجتماعي؛ مما جعل أحدهما يرى في الآخر نقيضا لذاته، و عنصر استلاب لها، و لذلك اضطربت قنوات الاتصال الإنساني بينهما.

تشي طريقة تعاملهما مع بعضهما البعض بتصور أحدهما للآخر، حيث كلما كان تصور أحدهما للآخر إيجابيا، انعكس ذلك على سلوكه اتجاهه، بينما ينم سلوك اتصالهما اللفظي و الحركي عن تصورهما السلبي لبعضهما البعض، و قد تشكل من تراكم ملاحظات سلوكاتهما كبيرها، وصغيرها منذ تعارفهما في ليلة الزفاف، حيث كلما ساءت التصرفات ساءت التصورات، مما يحد من تفاعلهما الإنساني البناء، و يسوقهما إلى سوء الاتصال، الذي يزعزع العلاقة القائمة، أو ينسفها من الأساس [1].

يجنح سلوك ياسين الجنسي إلى الإنحراف المتمثل في الخيانة الزوجية، كشكل من أشكال الثورة على نمطية الممارسة الجنسية، ورتابتها في الزواج، و دلالة نفسية على الطلاق العاطفي بينه و بين زوجته؛ تنم عن ميوله الانتقامية منها، فضلا عن كون الخيانة الزوجية، بمثابة رسالة رمزية موجهة إلى الزوجة تحمل رغبته الملحة في الطلاق. و تطالب زوجته بالتطليق بحكم انتفاء مبررات استمرار الحياة الزوجية المتمثلة في عدم تحقيقها للإشباعات النفسية و الاجتماعية المنوطة بها.

يطرد السيد عبد الجواد ابنه ياسين من البيت، و يجسد ذلك أحد أشكال النبذ الاجتماعي للابن المنحرف عن قيم السلطة الأبوية المعلنة، لا القيم المسكوت عنها، أما الجذور النفسية التي غذت نقمة الأب على ابنه؛ فتتمثل في رغبته في التطهر من عقدة ذنبه، لذلك اتخذ ابنه "كبش فداء"، ووقف موقف تجريم له، حيث ينم انفعال الغضب عن عمق الشعور بالذنب، بحكم كون حالات القلق، والشعور بالذنب مواقف ضاغطة بقوة، و تؤدي في معظم الأحيان إلى البحث عن أشكال السلوك التي تعمل على تخفيفها [2].و من ثمة، فلم يكن السيد عبد الجواد يرى في ابنه سوى صورة ذاته الآثمة، و كان بالتالي يتوخى بطرد ابنه من بيته، نفي الجانب سلبي من ذاته، بحيث لا يبقى في البيت إلا الأب المتزه عن الخطايا ما دام وجود ابنه الآثم يثير في وجدانه كوامن الشعور بالذنب.

---

[1] حامد عبد العزيز الفقي: **سيكولوجية الفرد في المجتمع**، ص 34-36-37.

[2] سامي محمد ملحم : **مشكلات التوافق لدى المرأة العاملة**، "المجلة العربية للتربية"، المجلد 13، العدد2، ديسمبر 1993، تونس، ص 104.

تعددت مستويات التفاعل النفسي لشخصيات الرواية مع الواقع السياسي المتمثل في الاحتلال الإنجليزي، و حركة الوفد السياسية المطالبة بالجلاء و الاستقلال، حيث بدا الطفل كمال؛ وقد عقد علاقة صداقة مع الجنود الإنجليز المرابطين في الحي لكونه طفلا محدود المدارك، حاجته النفسية للحب، و التقدير الاجتماعي أقوى من حاجاته الاجتماعية الأخرى، لذلك وجد ظالته في التقرب منهم، و التودد إليهم، لا سيما و أهم عزوا اتصاله الإنساني بهم عن طريق الإثابة، و الحوافز المتمثلة فيما كانوا يزودونه به من حلوى و شوكلاطة؛ لأنهم كانوا يتوسلون به لاقتحام عالم الجنس الآخر.

أما أمينة زوجة السيد عبد الجواد؛ فقد كان موقفها النفسي من جنود الاحتلال متأرجحا بين التعاطف معهم، و اللامبالاة بهم لكونها لا ترى في الاحتلال الإنجليزي لبلدها ضيرا، حيث علقت على ابنها فهمي الوطني المتحمس قائلة :

-كيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقامة طالت هذا الدهر كله؟! لقد و لدنا و ولدتم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة، و الجيرة نقول لهم بصريح العبارة -و في بلادنا أيضا- أخرجوا!؟!"[1].

يعكس منطوق تعليقها منطق تفكيرها الأمي الساذج، الناجم عن تهميشها تهميشا ثقافيا، واجتماعيا جعل مستوى تفكيرها، و هي بنت الأربعين، لا يرقى فوق مستوى تفكير ابنها كمال ذي الست سنوات؛ حيث يبدو عمرها العقلي أصغر من عمرها الزمني، و فضلا عن ذلك؛ تبدو السياسة شأنا خاصا بالرجال وحدهم بحكم اغتراب العنصر النسوي عن واقعه السياسي .

أما حضور فهمي السياسي؛ فهو أقوى من حضوره العاطفي؛ لأنه الشخص الوحيد الذي تؤرقه مجريات أحداث السياسة، حيث كان يبذر بأخباره، وتعاليقه بذور الوعي السياسي في فضاء أسرته الضيّق، العاكف على ترديد أخبار الحياة اليومية، لذلك كان ينقل السياسة من الواقع الخارجي إلى الجلسات العائلية الحميمة، لا سيما و قد كان منتميا إلى إحدى اللجان السرية المكلفة بتوزيع المنشورات المحرضة على شن الإضرابات، و المظاهرات، و لعل ما أذكى حماسه الثوري إحباطه العاطفي الذي انتقل من شخص المرأة الأنثى إلى شخصية الأمة بديل المرأة المحبوبة، و إذا كان والده؛ قد رفض تزويجه بالمرأة المحبوبة استصغارا لسنه، و تهوينا من شأنه باعتباره عاجزا عن حمل أعباء

---

[1] **بين القصرين** ، ص 372.

الزواج، فهو بجنوحه إلى العمل السياسي السري بكل المحاذير المحيطة به يسعى لاسترداد اعتباره لذاته، ويؤكد لنفسه؛ و للآخرين أن قدرات شخصيته النفسية، و العقلية، و الجسمية كفيلة بحمل أعباء تفوق الزواج بمراحل عديدة. لذلك استبدل فهمي السلوك العاطفي، و الجنسي بالسلوك السياسي لأن نتائج السلوك "إذا كانت محققة لأهداف الفرد، مشبعة دوافعه، و حاجاته النفسية و المادية، فإنها ستحدو لتكرار السلوك نفسه. أما إذا كانت غير ذلك، فإنها ستحمل الفرد على إعادة تقييم الموقف، وتفسيره، وتعديل السلوك ليكون محققا أهدافه، و دوافعه[1]". لذلك كان العمل السياسي بالنسبة لفهمي صمام أمان من التوتر النفسي الحاد وليد الإحباط العاطفي.

تعكس اتجاهات أفراد الأسرة من نفي الإنجليز لسعد زغلول موقفهم من الحركية السياسية، حيث بدا العنصر النسوي لا مباليا، أما السيد عبد الجواد، و أبناه فقد تفاعلوا تفاعلا دالا على مشاركتهم الوجدانية لسعد زغلول و رفاقه في محنة النفي، فضلا عن تماهيهم به باعتباره يجسد رغبتهم، و إرادتهم المقموعة؛ لأنه بديل الأب الساعي لتحقيق الحماية بثورته على الاحتلال ، و بسط سلطته الأبوية رديف الأمن، و الحماية والحنان.

أما ياسين؛ فهو يبدو متقلب المزاج النفسي، لأنه يتحمس للحركية السياسية الوطنية بكل فعالياتها، و رموزها حينا، لكنه ما يلبث أن يجنح إلى الفتور، واللامبالاة حينا آخر بسبب ضحالة وعيه السياسي، و مستواه التعليمي، و استقطاب المتع الحسية لاهتماماته، و استنزافها لطاقته العصبية، وأوقات فراغه أيضا. أما السيد عبد الجواد فقد امتدت ازدواجية شخصيته إلى انتمائه السياسي نفسه، حيث يدين بالولاء للثورة على المستوى النفسي لكنه يتنكر لها على المستوى العملي إيثارا للسلامة مما قد يطاله من قمع السلطات، و يتمثل ذلك في موقفه من ابنه فهمي لدى اكتشافه حقيقة نشاطه السياسي السري، فيدفعه إشفاقه عليه لتهديده بالعقاب ليزرع فيه الخوف باعتباره حاجزا نفسيا يمنعه من ممارسة السلوك السياسي، لكن ابنه يعمد إلى آلية التبرير النفسي لسلوكه بوصفه جهادا في سبيل الله عساه يثير عاطفة أبيه الدينية، و يمتص سخطه عليه؛ لكن ذلك لا يشفع له بحكم طغيان غريزة الأبوة على عاطفة الولاء للوطن بحيث عجزت المسوّغات الدينية عن تطويع إرادة رفضه للنضال السياسي في صفوف الثورة .

و من ثمة بدت شخصيته متمركزة حول الذات، و ما يمت لها بصلة كالأبناء و الممتلكات، والمصالح الاجتماعية الأخرى. و لعل غلبة عاطفة الأبوة على العاطفة الوطنية لها ما يبررها، حيث كلما اصطرعتا فيما بينهما تنتصر أقواهما، و ألصقهما بالتكوين النفسي، و النظام المعرفي للفرد . كما

---

[1] محمد فرغلي فراج: **السلوك الإنساني**، دار الكتب الجامعية، مصر ، د .ت. ص 34 – 35 .

يعزى موقف السيد عبد الجواد إلى تصوره لابنه باعتباره طالب علم يجمع بين السمعة الاجتماعية الإيجابية، و المستقبل الواعد؛ بينما دوره كمناضل سياسي يجعل سمعته مشبوهة، و مستقبله محفوفا بالمحاذير، فضلا عن أن دوره الاجتماعي كطالب علم يعزز مكانته الاجتماعية، و الموقع الطبقي لأسرته البراجوزية الصغيرة، أما دوره الاجتماعي كمناضل سياسي، فيهدد مكانته الاجتماعية الراهنة والمستقبلية، و الموقع الطبقي لأسرته. كما أن نتائج دوره الاجتماعي كطالب علم تكاد تكون مؤكدة، بينما نتائج نضاله السياسي غامضة، و بعيدة المدى، و سلبية أيضا.

يرابط جنود الاحتلال في الأحياء الثائرة عند تفاقم المظاهرات، و الإضرابات، و يحظرون على الأهالي الخروج و التجول، و يحجرون على حقهم في العمل، و التعليم، و الاستبضاع، والتسلية. ولذلك يلمس أفراد الأسرة ظاهرة الاحتلال عن كثب كظاهرة اجتماعية سلبية، و ينتقل الاحتلال من كونه مجرد موضوع حديث يومي إلى معاناة نفسية، و اجتماعية تبلغ ذروتها المأساوية بسقوط فهمي صريعا برصاص الجنود الإنجليز، و هو في طليعة مظاهرة حاشدة، و لعل ما حمله على التحمس للنضال الثوري إلى مستوى السلوك الاستشهادي كونه شابا تواقا إلى إعادة بناء المجتمع وفق المثل العليا التي تشبع بها في محيطه الجامعي، و في جماعته المرجعية التي ينتمي إليها، فضلا عن توقه إلى تحدي الأخطار توكيدا لذاته المسحوقة، المقهورة.

المنظور الاجتماعي للتعليم و المعلمين

يستعرض الفصل الأول من رواية قصر الشوق -الجزء الثاني من ثلاثية بين القصرين- حياة كمال الدراسية بعد حصوله على شهادة البكالوريا، حيث يقرر الانتساب إلى مدرسة المعلمين، بحكم جملة من الدوافع الكامنة في ذاته، و العوامل الجاذبة في تلك المؤسسة بعينها، لا سيما و قد رأى أن تنوع مقررها، و ثراءها كفيل بإشباع ميوله المعرفية، و الجمالية لكونه يحب الشعر و الفنون، التي لا يجد لها إشباعا نفسيا إلا في مدرسة المعلمين على الرغم من سمعتها السيئة.و يتمزق نفسيا بين الصورة الاجتماعية للمدرسة، و صورتها النفسية المرتسمة في ذاته بحكم ما بين الصورتين من هوة سحيقة. ولذلك يتجاذبه دافعان، أولهما يحدوه إلى المجاراة الاجتماعية المتمثلة في تفضيل كلية الحقوق لما تتمتع به من صيت، و مركز اجتماعي لكونها تخرج القضاة، و الساسة، كما أنها مطمح أبناء الطبقة المترفة، و المتوسطة بحكم إتاحتها فرص الصعود الاجتماعي. أما التيار الشعوري الثاني، فيجنح به إلى تفضيل مدرسة المعلمين، حيث يجد نفسه بين موقفين إمّا إشباع ميوله الذاتية، و إن تعارضت مع سمعته المهنية و الاجتماعية، أو إرضاء القيم الاجتماعية السائدة، و لو تعارضت و ميوله النفسية. و يكون موقف السلطة الأبوية مؤيدا للتفضيلات الاجتماعية السائدة، حيث يبدي والده رفضه لاختياره قائلا له :

-أتدري شيئا عن مهنة المعلم، أم علمك بها لا يعدو علمك بمدرستك؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، أني عليم بما يقال عن هذه الشؤون، أما أنت؛ فغر صغير، لا تدري من أمور الدنيا شيئا، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة، و الجلال، ولقد عرفت أناسا من الأعيان و الموظفين المحترمين يأبون الأباء كله أن يزوجوا بناهم من معلم مهما تكن مكانته[1] .

هكذا يتكشف لنا أن السلطة الأبوية لا تراعي الميول النفسية للابن بقدر ما تتبنى ضرورة مسايرة الاتجاهات الاجتماعية السائدة التي تعتبر التعليم الجامعي، مجرد وسيلة لبلوغ غايات اجتماعية تتمثل في الصعود الطبقي. و من ثمة يغدو الانتساب إلى مدرسة المعلمين بمثابة سقوط اجتماعي بحكم تخريجها لمعلمين أجورهم زهيدة، و أعمالهم شاقة، و صورهم الاجتماعية شوهاء، مما يجعل من اختيارها سلوكا منحرفا عن التوقعات الاجتماعية يوجب النصح و الإرشاد، لا سيما و أن السيد عبد الجواد يرى في ابنه امتدادا لذاته، و سمعته الاجتماعية، لذلك سعى إلى حمله على تفضيل التخصص الدراسي الذي يستكمل به نقصه، و يعزز ثقته بابنه، و بنفسه على حدّ سواء. لأن انتماء ابنه إلى مدرسة المعلمين يكرس شعوره بالدونية اتجاه ذاته، و اتجاه الآخرين.

يعمد كمال إلى إثارة عاطفة أبيه الدينية لاقناعه بسلامة اختياره و جدواه:

" -أن الأزهريين يتعلمون كذلك بالمجان، و يشتغلون بالتدريس، و لكن أحدا لا يستطيع أن يحتقر علومهم ...

فأومأ بذقنه باحتقار، و هو يقول :

-الدين شيء، و رجال الدين شيء آخر!..

فقال مستمدا من اليأس قوة، يستعين بها على مناقشة الرجل الذي لم يتعود إلا طاعته:

-و لكنك يا بابا تحترم علماء الدين و تحبهم.

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة:

-لا تخلط بين الأمور، أنا احترم الشيخ متولي عبد الصمد، و أحبه كذلك، و لكن أن أراك موظفامحترما أحب إليّ من أن أراك مثله، و لو سرت بالبركة بين الناس، و دفعت عنهم السوء بالاحجبة و التعاويذ، و لكل زمن رجال، و لكنك لا تريد أن تفهم" [2].

---

[1] نجيب محفوظ : **قصر الشوق**، دار مصر للطباعة، ص 55.

[2] م.ن : ص 56- 57.

يبدو أن والده يرى علماء الدين في قاع السلم الاجتماعي، حسبما تعارف عليه الناس في جيله، وعصره على السواء. و لا يشفع لهم تدريسهم الدين في نيل التقدير الاجتماعي، الذي كان كمال يعتقد أنهم يحظون به. و تبين له بالتالي أن ما يحيط به أبوه علماء الدين من مظاهر الاحترام، لا تعدو كونها تملقا يدفعه إليه شعوره بالذنب، الذي يحدوه لإبداء الاحترام لهم، عسى تودده يلطف توتر الشعور بالذنب، فضلا عن كون القيم الدينية التي يدعون الآخرين للامتثال لها تعجز عن حل المشكلات الاجتماعية، مما يجعلها قيما مغتربة عن الواقع، و غريبة عنه أيضا؛ لذلك انحاب عن دورهم الاجتماعي بريقه القديم، و انحسرت مكانتهم الاجتماعية المتميزة.

لم يكن كمال في دخيلة نفسه يقر بمركزهم، و لا بنفوذهم، إنما اتخذهم ذريعة يحاجج بها والده، عسى قداستهم الدينية التي تحصنهم حصانة معنوية، تقنعه بوجاهة المدرسة، التي أراد الانتساب إليها. و يبدو الخلاف الأسري الناشب بين كمال و أبيه مرده اختلاف انساق القيم الاجتماعية الموجهة لسلوكهما، لأن كمال يتبنى القيم المعرفية، و الجمالية، التي تتوخى إشباع الميول النفسية، وهي ذات طابع مثالي، بينما يتبنى والده القيم الواقعية المادية، و هدفها تحقيق المركز الاجتماعي، والرخاء المادي، و ليست انساق القيم الاجتماعية سبب الخلاف الوحيد، بل عامل السن، و هو الذي عمق فجوة الخلاف بينهما، لأن الأب- كسلطة إرشادية- يصدر في مواقفه من مرحلة متقدمة في العمر، جعلته يرفض مدرسة المعلمين، باعتبارها مؤسسة تعليمية، تكوينية، يتخرج منها ذوو الأدوار الاجتماعية السلبية، بينما كان كمال في مطلع المراهقة، محدود النضج، رومانسي الإيمان، و الهوى استغرقت الكتب الأدبية وقته، و جهده حتى امتصها بناؤه النفسي، و نظامه المعرفي، فغدت من مصادر تكوين شخصيته، تمده بالقيم و المعايير السلوكية، التي قد لا تتجانس، و مقتضيات الواقع الاجتماعي.

أدرك أخوه ياسين بفطنته جوهر أزمة كمال النفسية، التي تتمثل في كونه مستلبا في عالم القيم المثالية، لا سيما، و أن عمله كضابط في مدرسة النحاسين أتاح له الاتصال الفعال بالمعلمين، والوقوف على تكوينهم العلمي، و مركزهم الاجتماعي، و أنماطهم السلوكية، مما أفضى به إلى تشكيل صورة سلبية عنهم، قد تكون ذاتية أملتها عليه نزعته الانتقامية منهم بسبب حسده لهم لأنهم أعلى منه مستوى وظيفيا، و علميا، بحيث تطاولوا عليه، و استصغروا شأنه، بوصفه مجرد ضابط، مما جعله هو بدوره يتطاول عليهم، و قد يكون سر استصغاره شأنهم، أنهم دون مستوى الطموح المهني، الذي يتوق إليه. و لعل نظرة السيد عبد الجواد، و ابنه ياسين للمعلمين مجرد انعكاس للمنظور الاجتماعي السائد.

أما موقف أمينة أم كمال؛ فقد كان إيجابيا حيث شجعته قائلة بحماس:

"-من ذا الذي يحتقر المعلم يا ابني؟. ألم يقولوا في الأمثال "من علمني حرفا صرت له عبدا".

فقال مرددا حجة أبيه الذي هاجم بها اختياره، و كأنما يستوهبها رأيا يؤكد به موقفه:

-و لكنهم يقولون أن المعلم لاحظ له في المناصب الرفيعة!

فلوحت بيدها باستهانة قائلة:

-المعلم موفور الرزق ..أليس كذلك .. حسبك هذا، أني أسأل الله لك الصحة، و طول العمر، وصالح العمل، كان جدك يقول " أن العلم أعز من المال " [1].

يكشف هذا الموقف تشبع الأم بالقيم الدينية التقليدية؛ باعتبارها سليلة أسرة محافظة، مغتربة عن قيم الواقع الاجتماعي؛ لذلك تضفي على العلم قداسة بالغة مستمدة من اقترانه بالدين في حد ذاته؛ لكونها تصدر عن نسق القيم الاجتماعية التبريرية التعويضية، التي تتوخى تعويض أهل العلم والتعليم عما يعانونه من حرمان مادي عن طريق إضفاء القداسة على أدوارهم الاجتماعية، بحيث يحل الاستحسان الأخلاقي محل المكانة الاجتماعية و " تقوم القيم الخلقية، و المعنوية بدور عزائي، وتعويض سيكولوجي، فالمجتمع يعوّض أولئك الذين بقوا حيث هم على حين صعد الآخرون، يعوّضهم بنوع من الاستحسان لشيء طيب عندهم، لقيمة مستحبة لا تزال فيهم "[2]، ليحفظ لهم توازنهم النفسي المعرض للاضطراب من جراء شعورهم بالحرمان، و الظلم الاجتماعي بسبب عدم تكافؤ حظوظهم الاجتماعية مع الآخرين، الذين هم دونهم مستوى علميا، و يمارسون عملا لا يرقى إلى مستوى عملهم أيضا.

يبدو موقف الأم في جوهره بمثابة دعم نفسي لابنها؛ لكونها أدركت بغريزة الأمومة أن ثقته بنفسه قد اهتزت من جراء رفض أبيه تفضيلاته الدراسية، لذلك انساقت مدفوعة بالمجاراة الخضوعية لمباركة تفضيله، و تعزيز ثقته بنفسه، و ميوله لأنها تحتكم لغريزة الأمومة، و القيم الاجتماعية التقليدية. و هكذا يبدو أن دينامية العلاقات الأسرية يسود فيها نسقان من القيم الاجتماعية، أولهما نسق القيم الواقعية المادية التي يتبناها السيد عبد الجواد، و ابنه ياسين، و ثانيهما نسق القيم المثالية التي يؤمن بها كمال و أمه. و من ثمة يعكس الخلاف المتعلق بالتعليم الجامعي الاختلاف القيمي الناجم عن اختلاف التجربة الاجتماعية، و العمر العقلي، و العمر الزمني، و أثر الوراثة، و الانتماء الأسري أيضا.

---

[1] **قصر الشوق** : ص 65.

[2] محمد محمد الزلباني: **القيم الاجتماعية**، ص 195.

التفضيلات الدراسية لأفراد الجماعة المرجعية

كان لكمال ثلاثة أصدقاء هم حسين شداد، إسماعيل لطيف، حسن سليم، ينتمون إلى الطبقة المترفة. و يمثل حسين شداد؛ نموذج الطالب البرجوازي الحائر الواقف من شتى الاختصاصات موقف التردد بحكم فتور ميوله العلمية، مما حمله على تفويض أمره لأبيه، الذي أشار عليه بوجوب اختيار الحقوق، فقبل بتسليم يشي بقابليته للإيحاء، و فجاجة تكوينه الثقافي، فضلا عن اغترابه الثقافي عن وسطه الاجتماعي؛ لأنه يرى فرنسا محجة طلاب العلم و المعرفة بحكم صدوره عن المنظور الاستعلائي للطبقة البرجوازية، الذي يرى واقع التعليم في مصر دون مستوى الطموح بسبب تخلف مناهجه، ومقرراته، و سوء تكوين أساتذته، فضلا عن المحيط الاجتماعي، الذي يغرق الطلاب في اغتراب نفسي، و ثقافي يتمثل في كون الكم المعلوماتي الجامعي، لا يمت بصلة للواقع الاقتصادي، و السياسي، والاجتماعي السائد في شتى مؤسسات المجتمع، بينما يتح محيط فرنسا الحضاري مجال التجانس الثقافي بين طبيعة التعليم الجامعي، و الواقع الاجتماعي السائد، الذي يتيح مجال إشباع الحاجات النفسية، والاجتماعية. و على الرغم من صحة رأيه في واقع التعليم العالي في مصر إلا أنه أراد بإبداء رغبته في استكمال دراسته العليا في فرنسا توكيد ذاته باعتباره أعلى مقاما من زملائه، مما يشي باستصغاره لهم بحكم إزماعهم استكمال دراستهم العليا في مصر .

أما صديقه حسن سليم؛ فالتعليم الجامعي بالنسبة له وسيلة لغاية تعلو عليه، و يتمثل ذلك في قوله:" ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائما، إني مثلا في غنى عن السعي إلى الرزق، و لكن يهمني بلا شك أن أشغل وظيفة سامية، فإنه يجب على الإنسان أن يعمل، و أن العمل السامي هدف يراد لذاته" [1]. ينم رأيه عن نزعته البرجوازية الاستعلائية، التي جعلته يرى نفسه في غير حاجة لممارسة العمل كسبا للرزق؛ لكونه مكفولا لكن طموحه النرجسي يحدوه لممارسة وظيفة متميزة بنفوذها، وراتبها، وصيتها؛ بحكم ضرورة ممارسة العمل، لأن الحياة تغدو فراغا رتيبا دونه، فضلا عن ارتباط إشباع الحاجات النفسية، و الاجتماعية بالعمل في حد ذاته؛ لكونه يزود العامل بالثقة بالنفس، وبالأمن النفسي، و بالانتماء الاجتماعي، و التقدير الاجتماعي، و يمتص أوقات فراغه، و يصرف نفسه عن الاستغراق في الهواجس و الوساوس، و يزوّده بمبرر كاف للحياة، و الوجود.

أما صديقه إسماعيل لطيف؛ فيجنح إلى تفضيل مدرسة الحقوق بحكم تخريجها للقضاة، والساسة. وهكذا يبدو الإجماع معقودا على أهمية الانتساب إلى كلية الحقوق، لكونها تستقطب أبناء

---

[1] قصر الشوق ، ص 164- 165.

الطبقة البرجوازية الساعين لتعزيز مواقعهم الاجتماعية، و أبناء الشرائح الاجتماعية الدنيا الطامحين إلى مواقع اجتماعية راقية.

و من ثمة تبدو العلاقة وطيدة بين التعليم الجامعي، و الحراك الاجتماعي على ضوء تفضيلات الطلاب الدراسية. و لم يشذ عن ذلك إلا كمال، لأن اختياره كان نابعا من تكوينه النفسي، و نظامه المعرفي، بحيث لم يعدل عن قرار انتسابه إلى مدرسة المعلمين؛ على الرغم من محاولات أعضاء جماعته المرجعية إقناعه بذلك، فضلا عن ضغوط جماعته الأسرية، و إيحاء الرأي العام، و الاتجاهات الاجتماعية السائدة.

المقهى و دلالته النفسية

تنشأ لدى كمال في مطلع المراهقة حاجة نفسية لارتياد المقاهي صحبة صديقه فؤاد، ويتمزق نفسيا بين نزوعه إلى إشباع هذه الحاجة، و خشيته من العقاب الاجتماعي، الذي قد يطاله إن ضبط في المقهى بحكم عدم جواز ارتياد الأحداث للمقاهي تجنيبا لهم عدوى التدخين، و السكر، ومعاشرة المنحرفين، و غيرها من الآفات السلوكية. و كان كمال يسعى إلى إشعار الآخرين أنه قد شب عن الطوق، و غدا رجلا، و تحرر بالتالي من الشعور بقصور الطفولة. و من ثمة يغدو ارتياد المقهى بمثابة ارتياد للرجولة، و يكون الانتساب إلى المكان دلالة نفسية على الرغبة في الانتساب إلى رواده. و إذا لم يكن بمقدوره تحقيق الرجولة بكل سماتها كالاستقلال المادي، و النضج العقلي، والقدرة على تحمل المسئولية، فوجوده في المقهى يسبغ عليه الشعور بأنه رجل مكتمل الرجولة، لا سيما وأنه كان يضيق بمعاملة أهله له باعتباره طفلا تجب إحاطته بالموانع، و المحظورات المدللة على قصوره، مما يقتضي خضوعه للوصاية الأبوية، و السلطة الإرشادية لئلا يتعرض للانحراف، و الجنوح. وقد أورثته هذه الوصاية شعورا حادا بالدونية، تضاعفت وطأته ببلوغه سن المراهقة بكل ما يصاحبها من نزعة قوية لتوكيد الذات المسحوقة تحت قمع السلطة الأبوية، و تدليل الرعاية الأمومية لكونه أصغر اخوته.

السلوك الجنسي و عقدة الذنب

كانت لكمال علاقة جنسية بصبية صغيرة السن، ما لبثت أن انقطعت بينهما الصلة، و حاول صديقه فؤاد جمع الشمل بينهما بعد أن نضجت أنوثتها لكن كمال يرفض قائلا:

"- كلا

- لم؟

- لم أعد أطيق القذارة!.

ثم بحدة نمت عن ألم دفين :

-لا أستطيع أن ألقى الله في صلاتي و ثيابي الداخلية ملوثة!.

فقال فؤاد بسذاجة :

-تطهر و اغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال، و هو يهز رأسه للاستعارة الضائعة:

-إن الماء لا يطهر من الدنس[1]".

يبدو أن تعلقه العاطفي بعايدة أخت صديقه حسين شداد، كبح ميوله الجنسية، و تسامي بها إلى مستوى الحب الرومانسي العفيف، فضلا عن نضج حسه الأخلاقي المتمثل في شعوره بالإثم، الذي يمحو أثر المتعة الجنسية، مما جعله يتذبذب نفسيا بين متعة جنسية عـابرة، و آلام الشـعور بـالذنب الطويل، و لذلك جنح إلى العفة الجنسية، رغم ما يصاحبها من آلام الكبت و الحرمان؛ لأنه وجـد في الصلاة بوصفها سلوكا دينيا مدعاة لتعميق عقدة الذنب بعد كل سلوك جنسي، بحكم التناقض بـين أهداف السلوك الجنسي المتمثلة في إشباع حاجات الجسد الحيوية، و أهداف السلوك الديني؛ المتمثلـة في تصعيد الدوافع الجنسية؛أو تكييف حاجات الجسد حسب قيم العفة الجنسية.

و لعله لو كان مصابا بانحطاط في حسه الأخلاقي ما وجد تعارضا بـين ممارسـة السـلوك الديني، و إشباع الحاجات الجنسية؛ لكن نضج حسه الأخلاقي؛ منعه من الجمع بين النقائض. كما أن سلوكه الجنسي قد تغير من مستوى الاتصال بالأنثى ككائن جنسي نمطي، إلى مسـتوى الاتصـال الإنساني بالمرأة المحبوبة، ككائن متسام، و نموذجي. و من ثمة، فقد تم كبت الدافع الجنسي، و حـل الميل العاطفي محله بوصفه قناعا يداريه، و يرمز له أيضا.

ينم هذا الموقف عن عمق تشبعه بالقيم الدينية، التي تلقاها على يد والدته المحافظة، مما خفـف من حدة الصراع النفسي الناشب في طوايا نفسه من جراء اختلاف حاجات الجسد الجنسـية عـن انساق القيم الدينية. و لعل الصراع النفسي، الذي عاناه من جراء انسياقه وراء الإغـراء الجنسـي، وتأنيب الضمير الذي يعقبه، كان وليد اختلاف قوانين الوراثة المنحدرة إليه من أمه و أبيـه، حيـث بقدر ما تدفعه آليات الوراثة المنحدرة إليه من أبيه إلى ممارسة السلوك الجنسي؛ تتدخل رواسب التربيـة التي مارستها أمه عليه، و ترده إلى قيم العفة الجنسية .

---

[1] **قصر الشوق** ، ص 82 - 83.

تختلف الأسباب النفسية، و الاجتماعية التي حملت السيد عبد الجواد، و زوجته على رفض مشروع زواج ياسين بمريم بنت الجيران، حيث تحججت أمينة بكون ابنها الراحل فهمي، كان قد رغب بدوره في الزواج منها، لولا اعتراض والده على إرادته؛ مما أفضى إلى توتر علاقة الأسرتين، فضلا عن سمعة البنت المشبوهة، بحكم ما أشيع عن علاقتها بالجنود الإنجليز، لأن قوانين العقاب الاجتماعي تدين الانحراف عن القيم الاجتماعية المقبولة بالوصمة الأخلاقية؛ التي تحكم على المنحرف بصورة إطلاقية؛ تكرس إدانته، و تحرمه من تبرئة ذمته الأخلاقية. كما أن الرأي العام يؤول طلاق مريم باعتباره دلالة على عدم أهليتها للاستقرار الزوجي؛ بحكم عيوب تكمن في سلوكها، و أنوثتها منعت استمرار زواجها، و من ثمة؛ فالمنظور الاجتماعي التقليدي يجرم المرأة، و يبرئ ذمة الرجل، لأنه لا يعتبر الزواج مؤسسة اجتماعية تقوم على كاهل المرأة و الرجل معا، و هدفها إشباع الطرفين لحاجات بعضهما البعض النفسية و المادية، و كلما تعذر تحقيق الإشباع المتبادل تنتفي أسباب بقائها، و يكون الطلاق حلا مقبولا من الوجهة الاجتماعية و القانونية، و لا يستتبع تجريم أحد الطرفين، وتبرئة ذمة الآخر إلا عند قيام قرائن و أدلة تبرر ذلك.

لعل ما حدا بالسيد عبد الجواد لرفض زواج ابنه ياسين من مريم لكونه على علاقة جنسية بأمها، مما جعله يتحرج من مباركة زيجة يترتب عنها شيوع الإباحية في علاقات المصاهرة، فضلا عن خشيته من إجهاض علاقة المصاهرة لعلاقته الجنسية، كما قد تتيح لأهله اكتشاف ازدواجية شخصيته المحاطة بالكتمان. و تضاعف حرجه بتعذر مكاشفته لابنه بسوء سمعة أم مريم إشفاقا على سمعته من انفضاح سلوكه الجنسي من جراء ذلك. و يشي رفضه مصاهرة أم مريم بازدواجية موقفه منها، حيث كان يميل إليها باعتباره عاشقا لأنوثتها المشبعة لرغبات الجسد، لكنه ينفر منها بحكم كونه أبا، بسبب انحرافها عن القواعد السلوكية المقبولة، التي تتبناها سلطته الأبوية، و بحكم اختلاف دورها الاجتماعي كعشيقة عن دورها الاجتماعي كصهرة له.

تنحرف ميول ياسين الجنسية عن الموضوع الجنسي المنشود؛ و هو مريم إلى موضوع آخر؛ هو أمها التي استهوته سمات أنوثتها، و تعطل عرامة شبقه الجنسي السيكوباتي فعالية حسه الأخلاقي؛ بحيث لا يراعي القيم الاجتماعية المقبولة، و ينتقل من دور خطيب مريم، و صهر أمها، إلى دور عشيق الأم، وابنتها معا. و جارته أم مريم في سلوكه الجنسي السيكوباتي بسبب انحطاط حسها الأخلاقي، وحرمانها العاطفي، و الجنسي، فضلا عن استشعارها للغيرة الشعورية، و اللاشعورية من ابنتها باعتبارها مؤهلة للاستمتاع العاطفي، و الجنسي في ظل الزواج؛ بينما هي محرومة من كل ذلك؛

مما جعلها تنساق مدفوعة بميول تنافسية تحملها على محاولة الحلول محل ابنتها، و لتنتقل من دور الحماة السلبي الهامشي إلى دور العشيقة الإيجابي الفعال، إذ قد تغار بعض الأمهات من بناتهن غيرة لا شعورية؛ لكونهن يتمتعن بما لم يحظين به من متع، و انطلاق؛ لا سيما إذا كان جيل الأمهات محروما من فرص تحقيق الذات؛ بحكم ما يسوده من نزوع إلى المحافظة على التقاليد.

هكذا ظلت أم مريم تداوم على زيارة بيت ياسين، حتى صدها عنه، بعد أن استنفدت أنوثتها عناصر الجاذبية، و أزاحها بالتالي إلى الدور الاجتماعي المنوط بها؛ باعتبارها حماة على الرغم من احتجاجها على الصدود، و إصرارها على ممارسة دور العشيقة. و تم زواجه بمريم في جو عائلي مشحون بالتكهرب النفسي بسبب رفض أهله مباركة زيجته، و ما زاده إصرارا على موقفه كونه يحتكم في شتى سلوكاته إلى دوافعه، و قيمة الذاتية دون مراعاة القيم و التقاليد الاجتماعية، التي تحاول جماعته الأسرية فرضها عليه بحكم ضعف شعوره بالانتماء إليها، فضلا عن انعدام السلطة الإرشادية المقنعة الكفيلة بالتأثير عليه، بحيث تعدل سلوكه؛ لأن السلطة الأبوية كانت دون رصيد أخلاقي؛ يكفل لها تجسيد القدوة الحسنة، أما زوجة أبيه السلبية الشخصية، فلا تستطيع حمله على العدول عن قرار زواجه؛ أما صورة أمه الشائهة المنحرفة فتمثل القدوة السلبية، التي تدعم ميوله الثنائية المتناقضة إلى الزواج و الطلاق، مما جعله ينتقل من دور الابن الساخط على الأم المزواج المطلاق إلى موقع الابن الوريث الوحيد لنزواتها [1]، حيث قد يعمد الابن إلى ممارسة السلوك الجنسي لدى نشوب خصام بين أبويه انتقاما لنفسه، و توكيدا لذاته المقهورة من جراء الخلاف المحتدم بينهما ، لا سيما و أن مشروع زواجه، كان بمثابة سلوك جنسي منحرف، اعترض عليه أهله، فحداه ذلك إلى ممارسة الجنس مع أم خطيبته إمعانا في تحطيم قيود السلطة الأبوية الزائفة.

الولاء السياسي و الانتماء الطبقي

كان كمال وفدي الانتماء السياسي، بحكم انتمائه إلى الطبقة البرجوازية الصغيرة، و تعزز انتماؤه السياسي بسبب رواسب صدمة مصرع أخيه فهمي، و هو في طور الطفولة في مظاهرة وفدية التنظيم، و الأعضاء ،و المبادئ، مما عمق انتماءه لمبادئ الحزب، و زعيمه التاريخي سعد زغلول، و لم يكن أعضاء جماعته المرجعية يشاطرونه انتماءه السياسي نفسه؛ لجملة من الأسباب، لعل أقواها انتماؤهم الطبقي البرجوازي، مما جعل تطلعاتهم الثقافية و الاجتماعية و السياسية البرجوازية، لا تتجانس و إيديولوجية حزب الوفد، التي تمثل الفئات الاجتماعية الوسطى.

---

[1] Charles BAUDOUIN : **Psychanalyse de Victor HUGO**, Librairie Armand Colin, Paris, 1972, P 41.

لذلك ساءه أن الزعيم، الذي توّحد به نفسيا، و أسقط عليه صورة الأب القوى الحامي، لم يكن " إلا مهرجا شعبيا في نظر حسن سليم، و كان يردد هذا الوصف في تقزز و ازدراء مثيرين خارقا المعتاد من أدبه و دماثته، ثم يمضي في السخرية من سياسته، و مأثوراته البلاغية، منوها في الوقت نفسه بعظمة عدلي و ثروت، و محمد محمود، و غيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا في نظر كمال إلا خونة، أو إنجليز مطربشين [1]".

لعل فجاجة وعي كمال السياسي، و شدة تمركزه على ذاته؛ جعلتاه يتصور زعيمه باعتباره زعيم الشعب كله، و هو بالتالي لا يدرك أن الشعب يتشكل من تركيبة طبقية متناقضة المواقع، والمصالح، مما يقتضي مبادئ مختلفة، حيث تتمخض كل الطبقات الاجتماعية عن أحزاب سياسية، تتبنى مطامحها الاقتصادية و الثقافية، و تتصدى للدفاع عنها بشتى أشكال النضال السياسي، الذي تقتضيه فلسفة الحزب، و التكوين النفسي، و الثقافي لقادته، و مناضليه، و رواسب تقاليده النضالية، وظروف المجتمع المحلية، و الدولية. و فضلا عن ذلك؛ فالتوحد النفسي القائم بين كمال و شخصيته زعيمه، جعلته يراه باعتباره امتدادا عظيما لذاته المأزومة بالدونية، بحيث يعيش انتصارات الزعيم، واخفاقاته بوصفها انتصاراته، و اخفاقاته، لذلك اعتبر نقد جماعته المرجعية لسعد زغلول تجريحا لنرجسيته، لأنهم هزوا ثقته بنفسه، و بانتمائه السياسي، و بانتمائه إليهم على حدّ سواء .

كان موقف صديقه حسين شداد -شقيق حبيبته عايدة- من زعيمه المقدس أشد إيذاء لنرجسيته بحكم لا انتمائه السياسي، رديف انعدام ثقته بالأحزاب، و الساسة، بحيث تشكلت في وعيه صورة سلبية عن الممارسة السياسية الحزبية، مما أفرغ وجدانه من شحنات الانفعال بالعمل السياسي، باعتباره يقتصر على خدمة مصالح الجماعات الضاغطة في الأحزاب، و مراكز القوى في أجهزة الدولة، و مؤسسات المجتمع، و من ثمة؛ فلا تعدو المبادئ و الشعارات كونهما وسائل استقطاب للجماهير، والضغط على السلطة القائمة للحصول على بعض الامتيازات الاقتصادية، و الاجتماعية ينتفع منها قادة الأحزاب، و بطانتهم ممن تربطهم روابط القرابة، و الصداقة، و المصالح المتبادلة.

لعل الاعتبارات النفسية، كانت أشد إيلاما له من الاعتبارات السياسية؛ لكونه رأى في تعليق صديقه؛ بمثابة هوة اجتماعية، و نفسية عميقة، تفصله عن أخت صديقه المحبوبة، و ترمز إلى استحالة نيله تقبل الآخر المحبوب.

---

[1] **قصر الشوق** ، ص 169 – 170.

استشعرت أمينة زوجة السيد عبد الجواد فراغا نفسيا، و اجتماعيا أو رثها إياهما غياب أبنائها، إذ انتقلت عائشة، و خديجة للعيش في كنف عائلة آل شوكت بعد زواجهما، و لقي فهمي مصرعه في إحدى المظاهرات، و غادر ياسين البيت بعد زواجه بمريم بنت الجيران. و لم يبق في البيت سوى ابنها كمال الطالب بدار المعلمين، و لذلك اتخذت منه متنفسا من حرمانها العاطفي، و فراغها الاجتماعي، لا سيما و أن علاقتها الزوجية بالسيد عبد الجواد شبه فاترة، يغلب عليها الطابع الآلي في التفاعل اليومي، كونه قد زرع مسافة نفسية بينهما قوامها الكلفة و الحرج، و التعامل المجرد من التعبير العاطفي عن طريق السلوك اللفظي، و الحركي معا .

ما دامت الأم تسلك سلوك العطاء العاطفي اتجاه أبنائها، بحكم غريزة الأمومة، و العادة المكتسبة بالتكرار، فقد استقطب ابنها كمال طاقات حنانها بمفرده، لا سيما أن غريزة الأمومة، تجعلها ترى ابنها طفلا صغيرا بحاجة إلى حمايتها، و رعايتها مهما تقدم به العمر، و تعززت مكانته العلمية والاجتماعية، كما أنها تبرر لا شعوريا إشباع غريزتها الفطرية، لأن وعيها بكون ابنها قد استغنى عن رعايتها؛ يعوق استمرار إشباعها حتما. لذلك لاحظ كمال " أن رعايتها له ازدادت في السنوات الأخيرة أكثر مما ينبغي ... و أكثر مما يود، و أن تعلقها به، و حدبها عليه، و إشفاقها مما يضره –أومما تتوهم أنه يضره– باتت شغلها الشاغل إلى حد ضايقه و استفزه للذود عن حريته، و كرامته" [1]

هكذا تستمد أمينة من عنايتها الزائدة بابنها أهمية تبرر وجودها، و تشبع غريزة أمومتها، وتستدرك ما فاتها من قلة عناية بأبنائها الغائبين، أو إهمال لهم، أو إساءة لبعضهم عن قصد، أو دون قصد؛ بحيث تلطف عما أورثها ذلك كله من الشعور بالذنب. كما أن إسرافها في العناية بابنها دلالة على خوفها من فقدانه بالموت، أو الزواج، أو القطيعة شأن مصير أبنائها الآخرين. لذلك فهي توثق علاقتها العاطفية بابنها لتحتل في وعيه، و وجدانه مجال الإدراك و الشعور، بحيث لا يكون له متسع من الجهد، و الوقت للانشغال بامرأة أخرى تنافسها في حبه. كما أنها تكرس بسلوكها تبعيته الطفولية لتعيش عهد ازدهار أمومتها، و خصوبتها التناسلية في سن اليأس، و العجز عن الإنجاب؛ بحيث جعلته يضيق بغلوها في إغراقه بالحنان، لأنه يحدوه للنكوص إلى طور الطفولة في عنفوان سن المراهقة، حيث تشتد دوافع توكيد الذات، و استعراض مظاهر الرجولة، و النزعة الاستقلالية، ورفض كل ما يمت للطفولة من ضعف، و تبعية، و حاجة للرعاية الزائدة.

---

[1] **قصر الشوق** ، ص 181.

تظافرت بعض العوامل التي خولت أمينة حق الخروج لزيارة ضريح الحسين، و بيت ابنتيها المتزوجتين، لعل أقواها؛ هو تقدمها في السن، و اكتهالها، حيث انتقلت من دور الأنثى المرغوب فيها،والمحظور عليها الخروج وقاية لها من التعرض للغواية إلى دور الأم الكهلة غير المرغوب فيها جنسيا؛ مما أجاز لها ممارسة الحركة الاجتماعية الحرة بحكم انتفاء المحاذير الجنسية، التي كانت سبب مكوثها في البيت . كما أن خروجها يخفف أعباء مسئولية زوجها في متابعة شؤون ابنتيه المتزوجتين، فضلا عن كون خروجها من مظاهر التغير الثقافي و الاجتماعي، التي تظهر في مراحل الأزمات السياسية، و الاجتماعية الحادة، و تتمثل فيما تمخضت عنه الثورة المصرية عام 1919 من خلخلة في انساق القيم الثقافية، و الاجتماعية السائدة، لأن المظاهرات النسوية أعادت بعض الاعتبار لمكانة المرأة باعتبارها قوة سياسية فاعلة، أسهمت في النضال السياسي التحرري، مما أفضى إلى تغيير مكانتها في بنية الأسرة النووية تمهيدا لتغيير موقعها في شبكة العلاقات الاجتماعية، لا سيما و أن مراحل الأزمات؛ هي فترات تغيير عنيف في معتقدات الناس، و اتجاهاتهم النفسية، و السلوكية، لأنها تغدو غير مسايرة لروح التغير الاجتماعي .

صورة الآخر المحبوب

كان حسين سليم -أحد أعضاء الجماعة المرجعية التي ينتمي إليها كمال- على علاقة عاطفية بعايدة، لم يطلعا عليها أحد، و قد نما إليه ميل كمال لعايدة لذلك حدثه عنها من باب جس النبض قائلا له:

"-إنها فتاة ممتازة لا تشوبها شائبة، و لو أن منظرها، و حديثها، و أنسها يجر عليها الظنون أحيانا! .

فبادره كمال قائلا بحماس: إن منظرها و مخبرها على السواء لفوق كل ظن! فحنى حسن رأسه بامتنان، كأنما يقول له:"أحسنت" ثم قال :

--هذا ما ينبغي أن تراه عين بصيرة سليمة، غير أن ثمة أمورا تحير بعض الأفهام، و سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح، أن البعض يسئ فهم اختلاطها في الحديقة بأصدقاء أخيها نابذة ما جرت به التقاليد الشرقية، و البعض الآخر يقف متسائلا حيال محادثتها لهذا، و ملاطفتها لذاك، و آخرون يتوهمون وراء الدعابة اللطيفة -تصدر عنها عفوا -سرا خطيرا .. هل أدركت ما أعني ؟[1]"

تتضمن هذه الإفادات بعض سمات شخصيتها المتفتحة بالقياس إلى سمات الأنوثة السائدة في حقبة الثلاثينيات على وجه الخصوص، حيث كانت تمثل في سلوكها الاجتماعي اتجاه الآخرين نموذج الفتاة المتعلمة، التي تتبنى أخلاقيات الفتاة الفرنسية، بوصفها المثل الأعلى، الذي يوّجه نظامها المعرفي،

---

[1] قصر الشوق ، ص 234.

ويدمغ بناءها النفسي، و يشكل أنماط سلوكها. و لعل إثارتها الظنون مردها عدم مطابقة سلوكها الاجتماعي لصورة المرأة الشرقية، التي تتسم ببعض السمات السلوكية المحافظة كالحياء، و التباعد عن الجنس الآخر، مما جعل سلوكها المتفتح مجلبة للشبهات ذات الصبغة الجنسية، لأن اتصالها الإنساني بأصدقاء أخيها، يؤول باعتباره غواية جنسية، بينما هي تسعى لإقامة علاقة صداقة بين الجنسين، يرتفع مستواها الإنساني فوق نداء الجنس، على الرغم من كون احتكاكها بأصدقاء أخيها، ينطوي على استهواء جنسي يتقنع بقيم الانفتاح و التسامح، لأن سعيها إليهم، ينم عن حرمانها العاطفي والجنسي، الذي تجد له بعض الإشباع باتصالها بعالم الذكور. كما أنها تبدو مأزومة بعقدة الشعور بالدونية في وسط اجتماعي يتبنى اتجاهات سلبية تبخيسية من الأنوثة، مما حملها على توكيد ذاتها عن طريق اتصالها الإنساني بأصدقاء أخيها، لتستمد من تجاوبهم العاطفي دعما نفسيا لثقتها بذاتها، وبأنوثتها معا، لا سيما و أن إدمانها قراءة الروايات العاطفية الفرنسية، ساقها إلى الاغتراب الثقافي، والانفصام عن واقعها الاجتماعي؛ حيث باتت تجنح إلى تقمص بعض الشخصيات النسوية؛ التي استهوتها في عالم الرواية الفرنسية؛ لتستكمل ما تستشعره من مواطن نقص في بنائها النفسي، ونظامها المعرفي، وسلوكها الاجتماعي، لأن إغراقها في السلوك القرائي دلالة على سوء تكيفها الاجتماعي في محيط لم يحقق لها إشباع حاجاتها النفسية؛ و الثقافية، و الاجتماعية .

كان حسن سليم يريد برسم هذه الصورة الاجتماعية لعايدة إبعاد سوء الظن عن ذهن كمال، ويكاشفه بما بينهما من حب، و اتفاق على الزواج، و يدعوه للانسحاب عنها، و عدم الإلحاح في التلويح بحبه المرفوض سلفا. و تكون صدمة كمال حادة، تورثه الشعور بالدونية، والإخفاق من جراء اكتشافه الحقيقة الفاجعة، التي تعيد إلى ذاكرته مشاهد آخر لقاء جمعه بعايدة؛ حيث أشارت إلى ضخامة رأسه، و أنفه، و نوهت بضرورة الجمال للرجال و النساء على حد سواء.

و من ثمة يتكشف لنا أنه كان يتوقع مبادلتها إياه الحب، و لولا ذلك ما صدم صدمة نفسية ساقته إلى الاكتئاب النفسي، و سوء تأويله سلوكها سبب هذا التوقع؛ مما يوحي بانعدام الاتصال الإنساني الفعال بينهما، لأنه كان يتعامل مع صورتها النفسية، التي شكلها وعيه، و لا وعيه عن المرأة المحبوبة، و لم يتعامل مع صورتها الاجتماعية، بحكم تعذر تفسير بعض الناس سلوك بعضهم البعض، لأن "ما يبدو للبعض غضبا، قد يراه البعض قلقا، و ما يبدو لامرئ إفراطا في الثقة بالنفس، قد يبدو لغيره غاية في عدم الثقة بالنفس، و ما يبدو رقة و بشاشة في نظر البعض، قد يبدو عداء في نظر الآخرين ..و مثل هذا الاختلاف في التفسير يرجع إلى حد ما إلى أن سلوك الناس، و أفعالهم لا تطابق دائما شعورهم، و أنهم لا يقولون دائما ما يعنون حقيقة، و أنهم لا يتصرفون في معظم الأحيان

تصرفات معقولة، و منطقية، و لكنها تعزى إلى حد ما إلى أن كل فرد، ينظر حتما إلى بقية الناس من وجهة نظره الخاصة، التي تبدو لديه دائما الوجهة الطبيعية، و المنطقية [1]".

لعل ما عاق كمال عن تأويل سلوك عايدة تأويلا سليما، كونه مرتبطا بها ارتباطا عاطفيا، لأن طغيان العواطف، قد يعوق الرجل عن فهم المرأة فهما سليما، فضلا عن استخدامه أساليب الاتصال الملتوية، و الرسائل الرمزية بحكم تعويقه النفسي، الذي حال دون اتصاله المباشر بها، وليد شعوره بالذنب، والدونية الناجمين عن تربيته الطهرانية المحافظة في محيط اجتماعي، تسوده قيم الفصل بين الجنسين، لذلك ظل على اتصال بالصورة النفسية، لا بالصورة الاجتماعية خلال فترات لقائهما المعدودة، مما أسبغ عليها صورة الكائن العلوي المجرد من الأبعاد الجسدية المرتفع إلى مستوى الروح المرفرف في عالم الملكوت.

ينم ذلك عن انحراف علاقته بالآخر المحبوب، لكونه يرى فيه سمات لا تتوفرفيه؛ مما يشي باضطرابه النفسي، الذي شوه إدراكه للآخر، و لعله لو كان متزنا انفعاليا، لكان بمقدوره تشكيل تصور واقعي؛ لكن خداع الإدراك العاطفي حال دون ذلك.

تسوء علاقة كمال بعايدة بعد اغتياب حسن سليم لكمال لدى عايدة، مما أوغر صدرها عليه، و جعلها تجفوه؛ لأن ما بلغها عنه؛ أصاب أناها النرجسي في الصميم، لا سيما و أن المرأة النرجسية، تستمد إشباعها العاطفي من عشقها لذاتها، و عشق الآخرين لها. و يغدو كل من يغتابها مصدر توتر نفسي ينال من ثقتها بنفسها، و بالآخرين على السواء.

يبدو أن الميول التنافسية دفعت حسن سليم إلى إيغار صدرها عليه، بسبب تأذيه من صفاء علاقة الصداقة بينهما، و خوفه من فقدان عايدة، كما أن غيرته عليها تشي باهتزاز ثقته بنفسه، وعدم رضاه عن اختلاطها بأصدقاء أخيها. ولذلك عمد إلى تعديل سلوكها بالمكر، و الكيد، و الكذب بحكم عجزه عن تعديله بالإقناع والحوار. و ليست الافتراءات التي لفقها لكمال إلا ما كان يعيبه هو عليها، و قد أسقطه إسقاطا لا شعوريا على كمال. و ينم استياء عايدة من كمال عن احتجاجها على حرمانه إياها من الحنان والتقدير، و غدت بالتالي تتعامل مع صورة كمال النفسية، التي صنعها له غريمه، و ليست صورته الواقعية التي تجسد الحب، و الإخلاص، و الكتمان. على الرغم من تكذيب كمال الافتراءات، التي لفقها حسن سليم، و استعداده لمواجهته، إلا أن عايدة لم تقتنع بذلك، و لم تكلف نفسها عناء التحري و التحقيق، بحكم حبها لحسن سليم، مما جعل قابليتها لتصديقه تمنعها من

---

[1] أنيت جاريت: **فن المقابلة مبادئه و طرقه**، ترجمة لجنة من المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، دار المعارف مصر، 1958، ص 61- 62.

مواجهتهما أمام بعضهما البعض، لأنهما ليسا ندين في نظرها؛ لأن سليم حبيبها و خطيبها، و كمال مجرد صديق لأخيها.

كان موقف عايدة من كمال صدمة نفسية أخرى، تمثلت آثارها في سيطرة الوساوس عليه حيث لم تزايله" ساعة من ساعات يقظته طوال الأسبوع الذي قضاه بعيدا عن قصر آل شداد، وهالك شعوره في اجترار الخيبة التي قرعته لحظة بعد أخرى، و هو في البيت صباحا يفطر على مائدة أبيه، وهو في الطريق يسير بحواس زائغة، و هو في مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب، و هو يقرأ مساء بانتباه مشتت، و هو يتذلل للنوم ليقبله في ملكوته، ثم يفتح عينيه في الصباح الباكر، فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على عتبة الوعي ترصده، أو كأنما هي التي طرقته بجزع لهم كي تواصل التهامه مرة أخرى .. ألا ما أفظع النفس إذا خانت صاحبها ...[1]".

هكذا انعكس إحباط حاجته إلى الحب، و التقبل من الآخر المحبوب على حاجاته النفسية، والاجتماعية الأخرى بصورة سلبية، حيث اضطربت حاجته إلى الطعام، و النوم، و تعطلت قدرته على الإدراك و الانتباه، لأن إشباع الحاجات النفسية، يمهد لإشباع الحاجات الفيزيولوجية. و قد يترتب عن حرمان حاجة نفسية واحدة من الإشباع، توتر نفسي يؤثر على عمليات إشباع الحاجات الأخرى، بحكم تكامل الحاجات النفسية، و الحاجات الفيزيولوجية، و تأثير بعضها في البعض الآخر. كما أن إشباع حاجة معينة، يستدعي ظهور حاجة أخرى، و هكذا تتسع دائرة الحاجات، لأن السلوك الإنساني، بمثابة فيضان متدفق، لا ينتهي إلا بالموت.

كان جنوح كمال إلى الإلحاد بعد الإيمان من مضاعفات إحباطه العاطفي، لأنه شعر بتخلي العناية الإلهية عنه، فتخلى عن الإيمان بها، و إذا كان الآخر المحبوب قد رفضه، فقد ساقه إلى رفض ذاته بكل قيمها الروحية كالإيمان الديني، و العفة الجنسية، كما أن تخليه عن الإيمان الديني، هي عملية تقمص لشخصية الآخر المحبوب، لأن عايدة لم تكن تمارس السلوك الديني، مما جعل من تخليه عن الدين بمثابة تقرب منها، و تماه بشخصيتها لتخفيف توتر الإحباط، و الإخفاق الناجمين عن رفضها.

يكشف انفصام صلته النفسية بالدين عن موقفه الأوديبي المتأزم، الذي حمله على التنصل من الدين باعتباره من أشكال التحرر من السلطة الأبوية، التي ترتكز على القيم الدينية في فرض الطاعة، والخضوع بحكم تجسيد السلطة الأبوية للسلطة الدينية، حيث " أن الدين، و الوالد مترابطان

[1] **قصر الشوق** ، ص 242.

بالاقتران الزماني، والمكاني، و هما مترابطان بالتشابه. فالدين، و الوالد متشابهان في كون كل منـــهما يعبر عن السلطة على النفس [1]".

يسوقه الحرمان العاطفي؛ وليد رفض الآخر المحبوب إلى تعاطي الخمر للتزود منـــها بنشـــوة التخفيف من وطأة الحرمان، و نشوة نسيان الواقع الفاجع، و يستعيض بالتالي عن الإشباع العـــاطفي مع المرأة المحبوبة، بالإشباع الجنسي مع المومسات، مما ينم عن خوفه اللاشعوري من الارتباط العـاطفي بامرأة بعينها؛ مخافة تكرار التجربة المأساوية، التي ارتسمت في طوايا نفسه ارتسام الصدمة العاطفية .

الصراع بين القيم التقليدية و القيم الحديثة

كان موقف السيد عبد الجواد من مقال ابنه كمال المنشور في إحدى المجلات حـــول أصـــل الإنسان على ضوء النظرية التطورية لتشارلز داروين، بمثابة عملية ضبط اجتماعية لمحاولة التفكير وفـــق القيم العلمية، و العقلانية الحديثة، لكونها تخالف القيم الدينية الغيبية الســـائدة في معظـــم الأوســـاط الاجتماعية. لذلك " هتف الرجل غاضبا:

--لقد كفر داروِن و وقع في حبائل الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قردا، أو أي حيوان آخر .. فلـــم كان آدم أبا للبشر، هذا هو الكفر عينه، هذا هو الاجتراء الوقح على مقام الله و جلاله .. من أي ملـة داروِن هذا؟ .. إنه كافر و كلامه كفر، و نقل كلامه اســـتهتار، خـــبرني أهـــو مـــن أســـاتذتك بالمدرسة"[2].

يجسد هذا الموقف مظهرا من مظاهر صراع القيم، لأن السيد عبد الجواد يؤمن بالقيم الثقافيـــة التقليدية، المستمدة من النظام المعرفي الديني؛ بينما يتبنى ابنه كمال القيم العلمية الحديثة المســـتندة إلى النظام المعرفي العلمي، و لذلك كان خلافهما دلالة اجتماعية على الصراع القيمي بين قيـــم الثقافـــة الشعبية الشفوية، و قيم الثقافة العلمية مما ينم عن اتساع الفجوة المعرفية بين جيلين، و يغذى ظـــاهرة صراع الأجيال أيضا.

يشبع الوالد نزعته التسلطية بقمعه اتجاهات ابنه الفكرية، و دفاعه عن القيم، التي تبرر ســلطته الأبوية؛ بحكم كون الإيمان بالقيم التقليدية المتعلقة بأصل الإنسان، يستتبع تبني قيم الطاعة، و الخضوع

---

(1) يوسف مراد: **الكتاب السنوي في علم النفس**، منشورات جماعة علم النفس التكاملي، دار المعارف بمصر 1954، ص 66.

(2) **قصر الشوق** ، ص 370.

للسلطة الأبوية، لأن الاعتقاد بأبوة آدم للبشر، هو مجرد مفهوم في سلسلة من المفاهيم المشكلة للنظام المعرفي الديني، كما أن الاعتقاد بكون القرد أصل الإنسان، هو بالتالي مفهوم يندرج في سياق المفاهيم المعرفية العلمية العقلانية التي تقدس العقل باعتباره أداة المعرفة الإنسانية الوحيدة.

و تملك الوالد الشعور بالدونية من جراء وقوفه على تفوق ابنه في الإبداع الفكري، مما نال من تضخمه النرجسي، و نزعة توكيد ذاته، و أشعره بقدرة ابنه على فك الارتباط بسلطته الأبوية، لذلك سعى إلى رد الاعتبار لذاته بمناظرة ابنه، لينتقل من موقع الأمي المأزوم بالدونية إلى موقع العالم المتضخم الذات بسلطته المعرفية، و يجرد ابنه بالتالي من دور المثقف المستنير، و يجعله مجرد ابن جاهل، قاصر، مدحوض الحجة، معتذر عما ورد في مضمون مقاله جملة و تفصيلا، و هكذا تستعيد السلطة الأبوية قوتها، و شرعيتها لكونها لم تستند على المناظرة العلمية في صراعها القيمي، بل على النزعة التسلطية، التي جعلت كمال يقف من أبيه موقف البنوة المقهورة أمام حجة القوة، لا قوة الحجة.

كان حماس الوالد في الدفاع عن القيم و المفاهيم الدينية، بمثابة تعبير لا شعوري عن عقدة ذنبه، وليدة انحراف سلوكه الجنسي عن القيم، التي يدافع عنها علنا، و يشذ عنها في الخفاء، لذلك اتخذ من دحض مفاهيم المقال كفارة يلطف بها شعوره بالذنب الدفين. و لعل فتور كمال في الدفاع عن القيم العقلانية دلالة نفسية على عقدة ذنبه الناجمة عن إلحاده بحكم رواسب التنشئة الاجتماعية العالقة في طوايا نفسه.

لم يكن لخطاب السلطة الأبوية أثر في تغيير مفاهيم كمال، و قيمة العلمية؛ بحكم تجذر النظام المعرفي الحديث في عقله، و وجدانه؛ بحيث تعذر الاتصال بينه و بين أبيه؛ بسبب قيام القيم الحديثة على انقاض القيم التقليدية بعد معاناة نفسية، و تأملات فكرية، لا سيما و أن التحرر من القيم التقليدية بمثابة تحرر من السلطة الأبوية التي ترتكز عليها. و طالما أن الثورة على السلطة الأبوية متعذرة، فالثورة على رموزها ممكنة، و التكتم سلوك وقائي من الرقابة الاجتماعية، و قوانين ضبطها أيضا.

شخصية الأب بين الثبات و التغير

كان مصرع فهمي نقلة متميزة في مسار حياة السيد عبد الجواد، حيث تغيرت بعض أنماطه السلوكية من النقيض إلى النقيض، و يتمثل ذلك في انقطاعه عن السكر، و معاشرة النساء، و هجر الجماعات المرجعية التي كان منتميا إليها. و طرأ على شخصيته ما ينم عن اختفاء مظاهر ازدواجية شخصيته بين الظاهر، و الباطن، و لم يتبلور تغيره السلوكي في لحظة شعورية معينة، بل كان مسبوقا

بمرحلة الصراع بين الدوافع، دوافع أنماطه السلوكية المتفتحة، و دوافع أنماطه السلوكية المحافظة، التي يبدو أنه قد جنح إليها مرغما مترددا لأننا " منذ الميلاد، و نحن مضطرون إلى أن نفاضل و نختار مرة بعد المرة، و بعض الأمور التي نفاضل بينها سهلة نسبيا، فإذا أرغمنا على أن نتخير، فإننا نفعل ذلك بكثير من التردد، و لعلنا كثيرا ما نعيد النظر؛ فيما اخترناه مع الحسرة على ما فاتنا، متسائلين عما إذا كنا قد أحسنا الاختيار ...و في كثير من الحالات نتذرع بالعزيمة، فنطرد من أذهاننا التفكير في أشياء قررنا نبذها، و لكننا نكون قد طردناها من عقلنا الواعي فحسب، و لكن جذب الأشياء التي حرمنا أنفسنا منها يستمر ... و أيا كانت الرغبة التي تنتصر في النهاية، و التي تفسح السبيل لها في حياتنا، فإن الرغبة المهزومة لا تموت، و لكنها تثور بين وقت و آخر"[1].

لذلك انحسرت ميوله الإستمتاعية بمباهج الحياة بعد مصرع ابنه فهمي، الذي أورثه صدمة نفسية؛ ظهرت أعراضها في الاكتئاب النفسي الحاد، و غدا رازحا تحت عصاب الموت، وغرق في حالة حداد سوداوية قوامها الخوف من الموت، و توقع حلوله دائما، و الشعور بالاغتراب النفسي عن الحياة، فضلا عن شعوره بالذنب اتجاه ابنه لكونه قمع كل رغباته بسلطته الأبوية الطاغية طيلة حياته القصيرة. و يبدو أن ما غذى شعوره بالذنب ما أسبغه عليه المعزون من مظاهر التقديس باعتباره والد الشهيد، مما حداه لممارسة أنماط سلوكية؛ تكرس هالة التقديس، لكونها ترضي ميوله النرجسية، وتلطف شعوره بالذنب أيضا.

كما أن تقدمه في السن جعل طاقته الجنسية تتراجع عما كانت عليه من قوة، و عنفوان، وتجنح إلى الفتور، فضلا عن انخفاض مستوى طاقته العصبية، و العضلية، لذلك حاول تكييف سلوكه الإنساني؛ حسب سنه، و مستوى طاقته ليتجانس؛ و مقتضيات الدور الاجتماعي المنوط به، بوصفه أبا للشهيد البطل.

و لم تكن الرغبات، و الميول الجنسية قد تلاشت؛ بقدر ما كانت في حالة كمون؛ و ما لبثت أن انبعثت من طوايا نفسه بعد كمون دام أربع سنوات، و هكذا عاد إلى رفاق الأنس، حيث وجد زنوبة العوادة التي استهوته، و تمنعت عنه بسبب كهولته، فعمد لاستخدام إغراء المال ليستكمل نقصه، بحكم حاجته لتأسيس علاقة قوامها المنفعة المتبادلة، يمثل فيها الطرف الطالب للمتعة العاطفية والجنسية، بينما تمثل هي الطرف الطالب للحماية الاجتماعية عن طريق المال أو الزواج.

---

[1] جاريت أنيت : **فن المقابلة ، مبادئه و طرقه**، ص 29 - 30.

يبدو أن دور زنوبة العوادة كعشيقة؛ لم يشبع حاجاقا النفسية للحب و الزواج، و الأمومة، لذلك طالبته بإعادة بناء العلاقة، بحيث يشبع حاجاها المكبوتة، و لم تتخذ هذا الموقف، حتى بلغت علاقتها العاطفية بابنه ياسين درجة من الوثوق؛ تكاد أن تتوج بالزواج . و تمزق السيد عبد الجواد نفسيا بين رغبته في اتخاذها ضرة لزوجته أمينة، و بين نفوره الأخلاقي من الارتباط الاجتماعي بها بحكم سوء سمعتها، رديف انحرافها الجنسي. لأنها لم تكن في نظره سوى أنثى، لا ترقى إلى مستوى الزوجة؛ بكل ما تحمله التسمية من قداسة اجتماعية.كان صراعه النفسي في جوهره مجرد نزاع بين متطلبات مكانته الاجتماعية، و ميوله الجنسية، لأن زواجه بزنوبة العوادة مجلبة للعار الاجتماعي رديف الحرمان من الأمن النفسي، و التقبل الاجتماعي كفرد، و كزوج، و كأب، و كتاجر معا.بينما لا يترتب عن عدم الزواج بها سوى الشعور بالحرمان الجنسي القابل للزوال بالعثور على موضوع إشباع بديل، أو بكبت ميوله الجنسية إليها.و من ثمة غلّب السيد عبد الجواد القيم الاجتماعية على الميول النفسية، مما يشي بتخففه من سيطرة الدوافع الغريزية، بفضل نضج حسه الأخلاقي، و وعيه بمسئوليته الاجتماعية، و وقوفه على حقيقة الجنس، و على اختلاف صورة المرأة المتوقعة قبل الزواج عن صورة المرأة الواقعية في ظل الزواج.

سوء التكيف الجنسي

يتمخض مشروع ياسين الزوجي عن خيبة أمل، لكونه تزوج مدفوعا بحاجته النفسية لتجديد ينابيع المتعة الجنسية، التي ما لبث إشباعها أن أورثه شعورا حادا بالملل، و النفور لكون سلوكه الجنسي؛ يخضع لآلية هذه العادة، التي غذقا رتابة حياته الأسرية، و المهنية التي تسوقه للبحث عن المتعة الجنسية، كمتنفس للملل و الحرمان، و عندما يستنفذ الإشباع طاقته الجنسية، و العصبية يشحنه بالملل، رديف انخفاض الطاقة العصبية، و هكذا يفضي كل سلوك إلى نقيضه في سلسلة من الأنماط السلوكية المتتابعة في تيار شعوري متدفق.

لعل سوء تكيفه الجنسي، و الاجتماعي مع مريم، هو ما حمله على اتخاذ زنوبة العوادة عشيقة؛ ليسترد معها توازنه النفسي المفقود، و قد يكون تقربه منها سلوكا انتقاميا من زوجته، التي يحملها مسئولية الإخفاق، الذي آل إليه زواجه بها. كما أن طبعه الدموي؛ المتقلب المزاج، أضفى على وعيه فجاجة على الرغم من تجربة الطلاق، التي خبرها من قبل، فضلا عن سيطرة الدوافع الغريزية على سلوكه الاجتماعي؛ شأن بعض الرجال، ممن يميلون لتكرار تجارب الزواج؛ حيث يدفعهم التصور الإيجابي الأول، الذي راودهم قبل زواجهم، و زيّن لهم العلاقة الجنسية، و العاطفية باعتبارها متعة لا تزول، لكنهم ما يلبثون أن يكتشفوا زيف تصورهم الإيجابي، و كلما تعلقوا بامرأة عاودهم

التصور الإيجابي نفسه، و دفعهم بالتالي إلى معاودة التجربة نفسها دون طائل، بحكم اختلاف صـــورة الزواج المتوقعة عن صورته الواقعية .

علاقة الأختين بحماهما

كانت علاقة خديجة بحماها على جانب كبير من التوتر النفسي؛ الذي أصابهما معـــا بحكـــم نزعتهما التسلطية، و العدوانية، و شدة حساسيتهما، التي تجعلها متوفزتي الأعصاب دائمـــا. و لعـــل الغيرة المتبادلة بين الحماة و الكنة، ضاعفت سوء الاتصال بينهما، لأن الحماة بحكم نزعتها التســـلطية، تريد من كنتها سلوكا خضوعيا، يشعرها بأنها سيدة البيت بلا منازع، مما يضفي عليها الثقة بـــالنفس، التي فقدتها من جراء زواج ابنها، و استقطاب زوجته كل أفراد الأسرة، و كل شؤون البيـــت، ممـــا أزاحها عن مركزها المتميز في الأسرة؛ فضلا عن استئثارها بحنان ابنها، و اهتمامه دونها.

لعل جوهر الصراع الأسري بين الحماة، و الكنة يعزى لتجانس حاجاتهما النفسية إلى الحنان، و توكيد الذات، و تشابه شخصيتيهما الميالتين للسيطرة؛ مما جعل المرأتين؛ تعوقان بعضهما البعـض في إشباع الحاجات النفسية عينها، و يدفعهما شعورهما بالإحباط إلى السلوك العدواني المتبادل بوصفـــهما تشكلان مصدر الإحباط . و لذلك تصدر عنهما سلسلة من الأفعال، و ردود الأفعال الـــتي تتنـــامى وتيرتها، و تغذى سوء التكيف الأسري عندما تعجز الحماة عن تطويع إرادة كنتها؛ تستعين بالســـلطة الأبوية، التي يمثلها السيد عبد الجواد، و تشكو له من بعض مظاهر الصراع الأسري، الذي تغذيه ابنتـــه خديجة "، و كان يعجب لما يتكشف له من عناد خديجة، وحدة طباعها، الأمر الذي لم يخطر لـــه في خيال من قبل. أكانت على هذا الخلق منذ كانت في بيته؟ أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلـــم؟ هـــل يكتشف على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة لصورة التي كونها كمـــا ســـبق أن اكتشـــف ياسين؟! [1].

لعل استغراب السيد عبد الجواد من سلوك ابنته، مرده اختلاف صورتها ككنة عن صورتهـــا كبنت، حيث بدت له صورة الكنة سلبية، لا تطابق الصورة النموذجية المرتسمة في وعيه عن البنـــت الخاضعة للسلطة الأبوية. و ما ضاعف أزمة الصراع العائلي، أن خديجة انتسبت إلى أســـرة زوجـــها منطلقة من مجموعة من القيم السلبية؛ كالصراع، و الغلبة، و توكيد الذات، مما ترتب عنه ردود أفعـــال من حماتها؛ تنزع بدورها إلى الصراع و الغلبة، و توكيد الذات، لأن كل نمط من أنماط السلوك، يثـــير سلوكا مجانسا له لدى الآخر، بينما يكمن سر التوافق النفسي، و الأسري بين أختها عائشة، و حماتهـــا

---

[1] **قصر الشوق** ، ص 260 - 261.

في تبنيها قيم الطاعة، و الخضوع، و إشباع الرغبات؛ مما جعلها مصدر راحة نفسية لحماتها، فضلا عن طبيعة مزاجها النفسي الهادئ، الذي أحدث التناغم النفسي بينها، و بين ذاتها، و بينها و بين الآخرين، حيث أسبغت عليهم ما يكمن في عالمها الداخلي من سلام باطني، وليد مزاجها الانفعالي، و ثقتها بنفسها، و قدرتها على التكيف الإيجابي ،أما خديجة؛ فقد كانت ضحية مزاجها الانفعالي الحاد الذي حملها على السلوك العدواني اتجاه الآخرين لا سيما حماتها، و انعكس اضطراب عالمها الداخلي على بنية العلاقات العائلية كلها.

بين السلطة الأبوية و السلطة الزوجية

عندما يلتقي كمال بأخيه ياسين مصادفة في أحد المواخير، يكتشف كلاهما صورة أخيه الأخرى، التي لم يكن يعرفها من قبل. و يستشعران ارتياحا نفسيا، لأن المذنب غالبا ما يتخفف من وطأة الشعور بالذنب لدى اكتشافه الآخرين في مواقف الانحراف، لأن تصوره لنفسه باعتباره المذنب الوحيد مدعاة لتعميق عقدة الذنب، لا سيما لدى احتكاكه بمن يعتقد بطهارتهم وعفتهم. كان كلا الأخوين، يلتمس في معاشرة المومسات، و تعاطي الخمر علاجا لأزمته النفسية، حيث كان ياسين يسرى عن شعوره بملل الحياة الزوجية مع زنوبة العوادة، التي إنجابت عنها جاذبيتها الجنسية، التي فكت رابطته الزوجية بزوجته السابقة، و قد دفعتها نزعتها التملكية لتقييد مجال حريته، فضلا عن خوفها من فقدانه بحكم إطلاعها على نزواته الجنسية الساعية إلى تجديد ينابيع المتعة. و كان استبدادها به بمثابة آلية دفاع عن رابطتها الزوجية، تعكس ميولها التسلطية السادية، التي تحقق إشباعها بإخضاع الطرف الآخر، و استضعافه، لذلك عمد ياسين إلى الخمر، و المومسات لتحقيق ذاته، و الانتقام من زوجته. أما أخوه كمال، فقد كانت الخمر، و المومسات بالنسبة له ملاذا نفسيا من إحباطه العاطفي مع عايدة، واستبداد السلطة الأبوية. و عندما يعود في ساعة متأخرة من الليل، يتلقى عقاب السلطة الأبوية المهينة للكرامة، و يتعكر مزاجه الانفعالي، و يقيئ كل ما شربه من خمر، لأن العقاب المعنوي يوقظ فيه الشعور بالذنب، و يكدر نشوة سكره، بحيث يغدو غثيانه بمثابة عملية تطهر من آثار الذنب المادية، رديف التخفف من آثاره المعنوية.

ما دامت قنوات الاتصال بينه، و بين أبيه مسدودة، بحكم استعلاء السلطة الأبوية، فقد حلت المناجاة الباطنية محل الحوار المباشر، مما ينم عن استحالة تبليغ الخطاب الاحتجاجي، بسبب ما يتضمنه من حقائق تجعل السلطة الأبوية، ترى صورتها الشوهاء؛ التي لا تتجانس و تصورها الإيجابي لدورها التربوي، و الإرشادي. و لذلك يناجيه مكاشفا إياه بما في طوايا نفسه:" آذيتنا كثيرا، و عذبتنا كثيرا بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيتك، لا تجزع فإني مازلت أحبك، و أعجب بك، و سأبقى على

الدوام مخلصا لحبك، و الإعجاب بك، غير أن نفسي تضمر لك لوما شديدا يعادل ما جرعتني من ألم. لم نعرفك صديقا كما عرفك الغرباء. و لكن عرفناك حاكما مستبدا شرسا طاغية، كأنما كنت أول مقصود بالمثل القائل "عدو عاقل خير من صديق جاهل؛ لذا سأكره الجهل أكثر من أي شيء في الحياة، فهو المفسد لكل شيء حتى الأبوة المقدسة"[1].

ترصد هذه المناجاة عمق المعاناة من قهر السلطة الأبوية، التي زرعت في تكوينه النفسي ثنائية وجدانية، تجمع بين الحب و الكراهية، و الرغبة في الخضوع، و الرغبة في التمرد. و يعزو كمال استبداد أبيه إلى الجهل. لكنما الأمر أبعد من أن يعزى إلى الجهل وحده، لأن الاستبداد ينم عن نزعة السيطرة السادية التي تستمتع بإخضاع الآخرين، و قهرهم، و يدل عن الشعور بالدونية؛ و تتمثل أعراضها في الحذر، و الشك، و انعدام الثقة بالذات، و بالآخرين على السواء.و تصدر السلطة الأبوية من نظام معرفي يوجهها، و يبرر ممارستها قوامه تصور الزوجة، و الأبناء باعتبارهم قصرا معرضين للجنوح، والانحراف، مما يوجب إخضاعهم للوصاية الاجتماعية عن طريق قمع نزواتهم بزرع حواجز الخوف في نفوسهم، مما يكفل امتثالهم للضوابط السلوكية.ينم غلو الوالد في فرض هيبته عن خوفه من ضياعها، وإذا سعى إلى فرض الطاعة فلكونه يخشى من العصيان. و من ثمة يكمن الخوف المرضي وراء شتى أنماط السلطة الأبوية التي يختلف طابعها بحسب اختلاف التكوين النفسي، و الثقافي لصاحبها، فقد تكون شخصيته ديكتاتورية، أو ديمقراطية، أو فوضوية، و لعل ما جعل كمال يعي استبداد السلطة الأبوية وعيا فاجعا كونه تلقى قيم التسامح، و الانفتاح، و الحرية الفردية في رحاب الجامعة، و في جماعته المرجعية المشكلة من أبناء الطبقة الاجتماعية المترفة، حيث كان آباؤهم مثقفين، مستنيرين. لذلك تبينت له الهوة الواسعة بين قيم الترهيب و العقاب، و الإكراه التي عامله بها أبوه، وقيم الترغيب، و الحوار، و الإقناع، و الحنان، التي يحيا الآخرون في ظلها تحت سلطة أبوية ديمقراطية.

تلاشي السلطة الأبوية

يستعرض الجزء الثالث من الثلاثية؛ الموسوم بعنوان "السكرية" حياة كمال المهنية بعد تخرجه من دار المعلمين، و مباشرته وظيفته كمعلم في مدرسة السلحدار. و يتغير موقعه في شبكة العلاقات الأسرية، و يتلاشى من حوله ثقل السلطة الأبوية، التي كانت ترهقه بقوانين ضبطها و رقابتها. ويغدو والده أكثر إيناسا له، و انفتاحا عليه لكونه استقل عنه ماديا بالعمل، و معنويا بالمؤهل العلمي، ونفسيا بتقدمه في العمر، و اجتماعيا بتقدير الآخرين له. و تظافرت هذه العوامل مجتمعة على إحلاله موقعا متميزا في جماعته الأسرية. و هكذا يبدو تغير سلوك الوالد اتجاه ابنه بمثابة تكيف مع تغير سلوك

---

[1] **قصر الشوق** ، ص 412.

الابن اتجاه والده. فقد كان من قبل قاصرا، وتابعا، فعومل معاملة قهر، و استصغار. و لما حقق الاستقلال المادي و النضج تغيرت المعاملة الوالدية؛ كشكل من أشكال التكيف مع التغير النفسي والاجتماعي.وكأسلوب اعتراف بجدارة الابن بالتقبل الوالدي، جزاء ما حققه من استقلال اجتماعي، وفوق ذلك؛ فقد كان تغير سلوك الوالد متأثرا بأنساق القيم التربوية التي تنقسم إلى نوعين: قيم الترهيب، و العقاب، و الإكراه خلال الطفولة، و غايتها تشكيل أسس الشخصية القاعدية وفق القيم والمعايير السلوكية المقبولة. أما أنساق القيم التربوية المتمثلة في الترغيب، و الإقناع، و الحوار، فتكون خلال مرحلة الرشد بسبب التزام الابن بالأنماط السلوكية المقبولة.

لعل شبه العزلة التي كان يعيشها السيد عبد الجواد بعد إيغاله في الشيخوخة جعلته يستشعر فراغا نفسيا، و اجتماعيا حداه للإنفتاح العلائقي على ابنه بحثا عن الحنان، و التسلية، لا سيما و أن حوله حركية سياسية، و اجتماعية لا يقوى على متابعة إيقاعها بحكم سنه، و صحته المتداعية، لذلك اتخذ ابنه قناة اتصال فعال بالعالم الخارجي البعيد عنه.

عزوف كمال عن الزواج

يزهد كمال في الزواج بعد خيبة حبه لعايدة؛ لكونه ما عتم مرتبطا بها نفسيا، حيث مازالت ذكراها تطفو على سطح ذاكرته، و تستقطب صورتها المثالية المتعالية عواطفه، إذ لم يول امرأة أخرى إلا اهتماما محدودا، لا يعدو لحظة الاتصال الجنسي العابر، حتى باتت علاقته بالجنس الآخر آلية، غريزية غرضية، بلا عمق، و لا إبعاد، و لا أثر نفسي أيا كان . و يتمثل ذلك في علاقته بعومس طلق كان يزورها كلما لجت حاجته الجنسية في طلب الإشباع؛ لكنها لم ترق إلى مستوى المرأة المحبوبة؛ أوالتي يكن لها بعض التجاوب العاطفي؛ بحكم الطابع الجنسي لعلاقتهما، التي اتخذها متنفسا من قلقه النفسي، و حرمانه الجنسي معا.

تمارس الرقابة الاجتماعية، و قوانين ضبطها دورها في تعديل سلوكه الاجتماعي ليتوافق والأنماط السلوكية السائدة، لكنه يقول لأهله مبررا عزوبته :

"-إني مشغول نهاري بالمدرسة و ليلي بكتبي !

فقال أحمد بحماس :

--حياة عظيمة يا خالي، و لكن الإنسان ينبغي مع ذلك أن يتزوج ..

و قال ياسين الذي كان أعرف الجميع بكمال:

-أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب الحقيقة، و لكن الحقيقة في الشواغل، لن تعرف الحياة في المكتبة، و لكن الحقيقة في البيت و الشارع [1]".

يبدو أن المعاذير التي تعلل بها؛ لا تعدو كونها رفضا للدور الاجتماعي المراد منه الاضطلاع به، لا سيما و أن في طوايا نفسه تعويقا نفسيا يعوقه عن الزواج، و يتشكل من شعوره الحاد بالدونية، الذي نما فيه منذ طفولته المبكرة عند اكتشافه قبح صورته الجسمية من جراء معايرة أخوته له بضخامة الرأس، و الأنف، و تأصل شعوره السلبي لدى مواجهة عايدة له بحقيقة قبحه معيرة إياه به؛ مؤكدة له ضرورة الجمال للرجال شأن ضرورته بالنسبة للنساء. و بذلك أجهزت على ثقته بنفسه، فغدا يتحرج من الارتباط بامرأة، قد تغذي شعوره الممض بالدونية، و فضلا عن ذلك؛ تنم عزوبته عن تبنيه قيم الثقافة الفرعية المغايرة للثقافة الاجتماعية السائدة، و عن ثورته على القيم الأبوية التقليدية التي تتبنى الزواج، و الإنجاب كشكل من أشكال الحفاظ على استمرار السلطة الأبوية، رديف الحفاظ على انتقال الثروة عن طريق الإنجاب. كما أن خبرته بالزواج حددت موقفه منه باعتباره علاقة سيطرة وخضوع في زواج أبيه بأمه، و علاقة ملل، و خيانة و طلاق في زواج أخيه ياسين بزينب و مريم، وزنوبة العوادة. و هو علاقة صراع و خصام في زواج أخته خديجة .و من ثمة ترسبت في نفسيته رواسب نفور من هذه العلاقة الاجتماعية المحفوفة بالمحاذير، و ربما وجد في نمط حياته المتحررة من الالتزامات ما كان يشبع حاجاته النفسية، و الاجتماعية، مما صرفه عن الاهتمام بالزواج، لكونه يفرض عليه تكيفا مع أنماط سلوكية، و عادات اجتماعية مغايرة تماما لما درج عليه في عزوبته، لذلك اتخذ قيمتين مقدستين ذريعتين تقيانه صرامة الضبط الاجتماعي، و هما العلم، و التعليم باعتبارهما يستقطبان الجهد، و الوقت، وقداستهما الاجتماعية تجعلهما جديرين بالتضحية بالزواج في حد ذاته، لكونه لا يرقى إلى مستوى قداستهما معا.

ربما كان الحسد الشعوري و اللاشعوري من أسباب إلحاح خديجة، و ياسين على كمال للزواج لأنه ينعم بالحرية، وراحة البال من تكدير متاعب الزواج، لا سيما و انهما من أكثر اخوته معاناة من سوء التكيف الزوجي، لذلك أرادا أن يقاسمهما أخوهما بعض معاناتهما، فيجدا في ذلك عزاء، يخفف عنهما، و يشعرهما، أنهما لا ينفردان وحدهما بحمل أعباء الزواج، و لعل ذلك من أكثر العوامل النفسية، التي تحمل المتزوجين على حث العزاب على الزواج، كما أن العزوبة بوصفها شكلا من أشكال عدم التجانس الثقافي، و الاجتماعي مع المجتمع تحدو الآخرين إلى حمل العزاب على الزواج لتحقيق التجانس الاجتماعي، رديف التقدير الاجتماعي. و طالما أن كل سلوك يراد به دفع

---

[1] نجيب محفوظ: **السكرية**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989. ص 35.

ألم، أو استجلاب لذة، فكمال يتجنب الزواج باعتباره مصدرا من مصادر التوتر النفسي، و لو كان تصوره له باعتباره استقرارا نفسيا؛ لا قدم عليه من تلقاء نفسه.

اللاانتماء السياسي

كان كمال في حيرة فكرية جعلته يرفض القيم، و المبادئ، و العقائد التي اعتنقها طفلا، فمراهقا، و زادته قراءته، و تجارب حياته الملأى بالإحباط، و الخيبة حيرة، غدت شكا في جدوى كل العقائد، و الفلسفات بعدئذ.و صار الشك بعد تفاقمه نزعة عبثية، اعتبر -على ضوئها- السياسة والزواج، و الإنجاب، و التاريخ و الدين عبثا لا طائل وراءه. و على الرغم من الحركية السياسية التي كان مجتمعه يشهدها في الثلاثينيات، إلا أنه لم يكن منتميا لتيار من تياراها المتصارعة على استقطاب الجماهير، و مقاليد السلطة. و يتمثل ذلك بجلاء في موقفه من الحشود، التي اجتمعت حول زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس، حيث اندمج في الجو النفسي للحشود التي انضم إليها تلقائيا على الرغم من لا انتمائه السياسي، و شكه في نوايا الساسة، و أعمالهم لكن سيكولوجية الجماعة، أثرت في وعيه السياسي، و صبغته بصبغة نفسية متميزة، جعلته يترك حياده، و لا انتماءه، و ينتمي إلى الحشود بالغريزة القطعية؛ لا سيما و أن للحشود آلياها النفسية المؤثرة في معظم الأفراد، منها الخطاب الديني المقدس عن طريق صوت التراتيل القرآنية، و الخطاب السياسي البليغ، الذي ألقاه الزعيم ذو الاستهواء الجماهيري، و هتافات الحشود الحماسية، كل هذه المؤثرات النفسية، تشل الوعي الفردي، و تشحنه بالجو النفسي المتوتر، الذي أحدثه الزعيم بجاذبيته، وإيحائه، بحيث يطوّع الأنا الجمعي لإرادة أناه الفردي، حتى تندمج الحشود في ذاته، و يندمج فيها في اتصال نفسي، تحكمه الغريزة القطيعية، التي تجعل الحشود تنقاد انقيادا آليا، تدعمه المجاراة الخضوعية السلبية. و هكذا يغدو السلوك السياسي للحشود متنفسا للقهر، و الحرمان، و الإحباط، الذي ترزح تحت وطأته نفسية الجماهير، لا سيما وأن الخطاب السياسي، يتغنى بالقيم الاجتماعية المنشودة كالحرية، و العدالة، و القومية، و الرفاهية، والأمجاد الغابرة، و الراهنة، و المستقبلية. و يرسم صورة الواقع كما يتوقعه الأنا الجمعي لأن الخطاب يتضمن الوعود، التي تستهوي سيكولوجية الجماهير المقهورة، و تمتص شحنات سخطها على الواقع، و تشحنها بالآمال باعتبارها طاقات نفسية، تعزز قدرها على مواجهة التحديات، التي يفرضها الواقع، أو قوانين الطبيعة.

ظل زواج ياسين بزنوبة العوادة مرفوضا بحكم سمعتها المشبوهة، و ظروف زواجها الفاضحة، و تعرضت للمقاطعة كشكل من أشكال النبذ الاجتماعي للقيم المنحرفة، التي لا تتجانس و قيم الجماعة، التي تنتمي إليها عن طريق المصاهرة.و أورث هذا الموقف الاجتماعي زنوبة أعمق مشاعر الرفض، و الإخفاق في تحقيق التقبل الاجتماعي، الذي كانت محرومة منه، حيث كان سعيها للزواج بمثابة بحث عن تقبل الآخرين لها؛ لكن زواجها لم يحقق لها إلا تقبلا نسبيا من زوجها وحده، بينما ظل أهله يحرمونها بتجنبهم الاتصال بها، أيا كانت الأسباب الداعية إليه. لذلك تعمقت عزلتها الاجتماعية، و شعورها بالرفض الاجتماعي؛ مما جعلها تعمد إلى آلية دفاع تقيها النبذ الاجتماعي؛ تمثلت في إسرافها في تبني قيم العفة، و الحياء؛ عساها تنال بعض التقدير الاجتماعي، رديف الثقة بالنفس، و تصحح انحراف ماضيها، و تتخلص من وصمة العار الاجتماعي، التي دمغها بها الآخرون.

هكذا تعزز مركزها في جماعتها القرابية من جراء تكيفها الزوجي الإيجابي، و جعلها تنال التقدير بحكم تجانس سلوكها، و التوقعات الإيجابية، لا التوقعات السلبية، التي صدر منها أعضاء جماعتها القرابية لدى زواجها في أول الأمر.

و لعل ما نشأ بينها و بين زوجها من شجار و خلاف في أول عهدهما بالزواج، كان شكلا من أشكال التكيف؛ بسبب اختلاف عاداتهما، و أذواقهما، و أنماطهما السلوكية المختلفة. و ما أن تحقق التكيف الإيجابي، حتى انتفت أسباب الصراع الزوجي بينهما.

يبدو أن اضمحلال جاذبية أنوثة زنوبة، و مداهمة معالم الكهولة المبكرة لها أشعرها بتدني مركزها في العلاقة الزوجية، و زرع فيها بالتالي قلق الهجر، و مخاوف الطلاق، التي كانت تتفاداها بوسائل إغرائها الجنسي، التي تلاشت، فعمدت للاستعاضة عنها بوسائل التأثير العاطفي. و لم تكن تحرص على زوجها حبا فيه، بل حبا في نفسها، لأن طلاقها مدعاة للضياع الاجتماعي، لا سيما و ألا دور اجتماعي لها خارج مؤسسة الزواج؛ مما حملها على التفاني في آداء دورها في المؤسسة الاجتماعية التي تشبع حاجاتها النفسية، و المادية في الحاضر، و المستقبل .

و لذلك اضطرت للتسامح اتجاه سلوك زوجها الجنسي المتحرر من قيم العفة، و الأمانة الزوجية بسبب سيكوباتيتها الكامنة، و خوفها من المضاعفات السلبية لاحتجاجها العقيم على سلوكه، و لذلك كانت تفصلها عن زوجها مسافة نفسية تنم عن طلاقهما العاطفي، و على الرغم

من ذلك، فقد ظلت متشبثة به من أجل استمرار الزواج الصوري؛ لكونه يحقق لها إشباع غريزة الأمومة، التي قد تغنيها عن كل الاشباعات النفسية، التي يزوّدها بها زوجها.

الفروق الفردية بين الأخوين

تألقت بعض السمات النفسية، و العقلية التي تميز شخصيتي الأخوين عبد المنعم و أحمد -ابني خديجة- خلال مرحلة المراهقة، التي ظهرت فيها بعض الفروق، التي تكمن وراءها عوامل عضوية، ووراثية، و نفسية، و اجتماعية، و تربوية تتظافر فيما بينها على تشكيل سمات شخصية الفرد. وهكذا يجنح عبد المنعم إلى ممارسة السلوك الديني، بحكم تبنيه للقيم، و المعايير الدينية، التي زرعتها أمه فيه بنزعتها الدينية المتمثلة في مداومتها على آداء شعائر الدين، و تغذى انتماؤه الديني بانتسابه إلى إحدى خلايا الأخوان المسلمين، التي كانت تعقد حلقاتها، و دروس مواعظها في المساجد، و المقاهي بقيادة زعيمها الروحي الشيخ على المنوفي. يبدو أن ما حمله على سلوك التقرب الاجتماعي من هذه الجماعة الدينية المرجعية، هو بحثه عن إشباع حاجته النفسية للانتماء الاجتماعي في مرحلة عمرية حرجة، لا سيما و أن انتماءه الأسري كان مضطربا، فضلا عن حاجته النفسية إلى تحديد هوية الذات، لأن المراهق يعاني غالبا من عدم اعتراف مؤسسات المجتمع بأناه المتضخم النرجسية، لأنه ليس طفلا، فيتقبل معاملة الأطفال، و لا هو براشد، فينال معاملة الراشدين، لذلك تهتز المعايير الاجتماعية في وعيه، و يجنح إلى نقد انساق القيم السائدة لكونها لم تعترف بحقوقه، و دوره الاجتماعي، كما أن نمو طاقته الجنسية العارمة يجعله يراها خطرا محدقا بذاته، و بالآخرين، و بالقيم الاجتماعية الإيجابية، مما يحمله على الجنوح إلى السلوك الديني الطهراني لمقاومة جموح دوافعه الغريزية، التي تحدوه لممارسة العادة السرية، و الاستغراق في أحلام اليقظة الجنسية، و كلاهما مدعاة للشعور بالذنب، مما يعزز ارتباط المراهق المأزوم بالقيم الدينية باعتبارها بلسما لصراعه النفسي المحتدم بين ميوله الجنسية، وتطلعاته المثالية. كما أن المراهق بطبعه مستعد نفسيا للانتماء لكل جماعة مرجعية ذات خطاب مثالي المبادئ، والشعارات متعال فوق الضعف الكامن في السلوك الإنساني، و الاختلال السائد في المجتمع، لأنه يتوق إلى سيادة القيم الاجتماعية الإيجابية، بحيث تنتفي كل مظاهر الفساد، و لعل ما يحمله على هذه النزعة المثالية قلة نضجه العقلي، و وعيه الاجتماعي، مما يجعله يعتقد بإمكانية القضاء على الفساد في هذا العالم تماما؛ بينما يمثل الفساد حقيقة ثابتة يمكن التخفيف من آثاره، و يستحيل القضاء عليه إطلاقا[1].

---

[1] أرنست فيشر: **ضرورة الفن**، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971.

يبدو أن هذه النزعة المثالية، هي التي حملته على الانتساب إلى جماعة الأخوان المسلمين، وحملت أخاه أحمد على الانتماء إلى خلية ماركسية، كانت تشرف على إصدار مجلة الإنسان الجديد، و تتشكل من طائفة من الطلاب الحالمين بمجتمع تنتفي فيه مظاهر الاستغلال، و الظلم الاجتماعي. ولذلك يحقق الشقيقان ما كانا يتوقان إليه من حاجات نفسية، و اجتماعية كالحاجة إلى الحب، والانتماء، و التقدير الاجتماعي، لأن الجو النفسي لكلتا الجماعتين مشبع بالحنان، و التقدير المتبادل بين أفرادها، مما أسبغ عليهم تصورا إيجابيا لذواتهم، باعتبارهم أصحاب أدوار اجتماعية، تنويرية، طلائعية، تقود حركة التغيير السياسي، و الاجتماعي نحو اليمين ، أو اليسار.لعل فراغهما الاجتماعي؛ حداهما لممارسة النضال السياسي؛ عساه يكون وسيلة إزجاء لأوقات الفراغ، تمتص شعورهما الممض بالملل، والرتابة، و قد يكون و عيهما السياسي؛ هداهما إلى حقيقة إفلاس الأحزاب السياسية المتناحرة على السلطة، وحقيقة إفلاس النظام الملكي الخاضع لدوائر الانتداب البريطاني، لذلك حاولا طرح مشروع سياسي جديد، يصحح المسار، و يطهر الفضاء السياسي.

تؤثر القيم الاجتماعية التي يتبناها كلا الأخوين على موقفهما من الاختيار الزوجي؛ حيث يعرض عبد المنعم على أهله أن يزوجوه بطريقة تقليدية دون أن يختار عروسا بعينها، و يحمله على هذا الموقف إلحاح الحاجة الجنسية، و نصيحة الشيخ على المنوفي بوجوب الزواج المبكر. و يقرر أهله تزويجه ببنت خالته مكرسين بسلوكهم القيم الاجتماعية المحافظة التي صدر عنها هو نفسه.

أما أخوه أحمد؛ فقد أثرت القيم الاجتماعية الحديثة في نفسيته، و سلوكه معا، حيث تبنى قيم الحب، وحرية الاختيار الزوجي، و وجوب التعارف تمهيدا للزواج، و ضرورة عمل المرأة، على الرغم من رفض أهله قيمه غير المتجانسة مع انساق قيمهم التقليدية، و أصرّ على موقفه الاجتماعي المتفتح، حتى طوّع إرادة جماعته الأسرية لإرادته الفردية الحرة. و لم يكن موقفه، و سلوكه الاجتماعي حالة خاصة منفصلة عن سياقها الاجتماعي، بل كانت مظهرا من مظاهر التغير الاجتماعي، الذي كان يحاول إحلال القيم الاجتماعية الحديثة محل القيم التقليدية، حيث سعى بعض أفراد الطبقة البرجوازية الصغيرة للتأسيس لها باعتبارها مرجعية ثقافية تحكم السلوك الاجتماعي .

حرمان عائشة العاطفي

تظافرت جملة من العوامل على إغراق عائشة في اكتئاب نفسي سوداوي، منها وفاة زوجها، فاضطرارها للرجوع مع ابنتها إلى بيت والدها، فوفاة ابنتها بعدئذ، و هي حامل بعد زواجها، لذلك فقدت كل مصادر الحنان، التي كانت تزودها بالتوازن النفسي، و تشبع حاجتها إلى الحب، و الأمن النفسي، و الانتماء، و التقدير الاجتماعي. و باتت صلتها القرابية شبه منقطعة بأبيها المقعد، و أمها

الكثيرة الغياب عن البيت. و من ثمة انكفأت على ذاتها، تجتر أشجانها، و تحاور موتاها. و تأزمت حالة الاكتئاب النفسي، حتى غدت مزمنة، بحكم حرمانها العاطفي، لاسيما وقد تكيفت من قبل مع دور الزوجة فترة طويلة، ثم ما لبثت أن فقدت هذا الدور الاجتماعي بوفاة زوجها، و اضطرت للتكيف مع دور الأرملة بكل ما يصاحبه من حرمان، و شعور بالدونية، و الإخفاق، و اتسع مجال حرمانها العاطفي، و فراغها الاجتماعي بزواج ابنتها، مما حملها على معاودة التكيف مع كونها أرملة وحيدة، وبلغت أزمة حرمانها العاطفي أعلى مستوياتها المأساوية بوفاة ابنتها، مما أورثها صدمتي الترمل، والثكل معا. و انعكس حرمانها العاطفي، و اكتئابها النفسي على صورتها الجسمية، التي غدت تجسد ملامح عالمها النفسي المأزوم حيث " اضمحلت أيما اضمحلال، و انقلبت هيكلا عظميا كسي جلدا باهتا، وأخذ شعرها في السقوط حتى اضطرت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالبت عليها العلل حتى أشار عليها الطبيب بالتخلص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلا الاسم[1]".

لعل ما ضاعف أزمة حرمانها العاطفي، انعدام بدائل التعويض، في مجالها الاجتماعي الضيق الآفاق، حيث لم يكن لها عمل يمتص وقتها، و فائض طاقتها العصبية، و لا مشروع تعليم يستقطب تفكيرها، و فراغها، و لا مشروع اجتماعي يبرر وجودها، مما عمق حاجتها النفسية للحب باعتباره يحقق ذاتها، و أمنها النفسي، و يقيها من القلق، و الإخفاق، و الانقباض النفسي الذي تعانيه.

تتفاقم أزمتها النفسية، حيث تصاب ببعض الهلاوس البصرية، تتمثل أعراضها فيما روته لأمها"و هي ما تزال تلهث:

-كنت في السطح أراقب غروب الشمس، و كنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل. وفجأة فتحت من السماء نافذة من نور بهيج فصحت بأعلى صوتي: يا رب .

اتسعت عينا الأم في تساؤل، أهي الرحمة المنشودة، أم هاوية جديدة من الأحزان؟

و تمتمت:

-لعلها رحمة ربنا يا ابنتي !

فقالت ووجهها يتهلل بشرا:

نعم صحت يا رب، و كان النور يملأ الدنيا.

و راحوا جميعا يفكرون في الأمر، و يراقبون الحال في قلق بالغ [2]".

---

[1] **السكرية**، ص 223.

[2] م.ن : ص 225 - 226.

هذا المشهد الذي رأته عائشة، لا يعدو كونه مجرد هلاوس بصرية، تنشأ من إدراكات متخيلة نابعة من طوايا النفس يتمثلها المهوس حقيقية لا يتطرق له الشك فيما يراه كما تبدو نزعة التسول العاطفي في قولها لأمها :

"-كلما نمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة الأولى...

-وحّدي الله .. ذقت ما تعانين طويلا، أنسيت فهمي؟ و لكن المؤمن المصاب مطالب بالصبر، أين أيمانك؟..

فهتفت بامتعاض ..

-إيماني !

-نعم اذكري إيمانك، و توسلي إلى ربك تنزل عليك الرحمة من حيث لا تدرين...

-الرحمة .. أين الرحمة أين ؟! [1]"

تشي أحلامها التي ترى فيها زوجها، و أبناءها بحاجتها المكبوتة إلى الحب، و الانتماء، حيث حل الإشباع التعويضي الرمزي عن طريق الحلم محل الإشباع العاطفي في الواقع. و لعل استقطاب ماضيها لأحلامها دلالة نفسية على جدب حاضرها، و غموض مستقبلها معا. كما ينطوي سلوكها على حاجتها إلى التسول العاطفي لاستدرار أكبر قدر ممكن من المشاركة الوجدانية الكفيلة بالتسرية عنها، فضلا عن حاجتها إلى التنفيس عن نزعتها المازوخية المستعذبة للآلام، التي تتمثل في شكواها باعتبارها من أشكال التسول العاطفي، و النكوص اللاشعوري إلى طور الطفولة، التي تمثل القصور والعجز، لا سيما و أن الإنسان؛ قد يسلك سلوكا نكوصيا؛ لا يناسب سنه، و نضجه في مواقف الإخفاق، والعجز.

ياسين في المحيط المهني

يشيع القلق في نفوس بعض الموظفين في مرحلة الترقيات، و ينم عن الشعور بالخوف غير المحدد المصدر، لذلك عمد ياسين إلى التهوين من شأن الترقية إلى الدرجة السادسة، و مكافآتها المالية كآلية دفاع نفسية ضد القلق الناجم عن توقع الإخفاق في نيلها. و يتوسط بابنه رضوان -المصاب بالشذوذ الجنسي- ليسعى له عند ذوي النفوذ تيسيرا لإجراءات الترقية، بحكم كون الوساطة قد تبطل فعالية القوانين التنظيمية للترقيات، و تلغي القيم المهنية التي تتقرر الترقيات على ضوئها كالكفاءة المهنية، و المؤهلات العلمية، و الخبرة، و حسن السيرة، و السلوك، و تحل محلها قيم القرابة العائلية، والمصلحة الشخصية، و التملق، و التزلف لذوي النفوذ، مما يوحي بانعدام القيم العقلانية في

[1] **المرجع السابق** : ص 224.

الحراك المهني بمؤسسات الدولة و المجتمع معا. و تغذي هذه القيم الاجتماعية السلبية الصراع بين الموظفين، الذي يتخذ أشكالا متعددة من سوء الاتصال كالشجار، و الخلاف المدللين على الغيرة، والحسد لكون الترقيات تشمل موظفين دون غيرهم بطريقة اعتباطية، تخلو من الإنصاف، والموضوعية. و من ثمة لا تكون الترقية مفخرة لصاحبها، بل مجلبة للشبهات، بحكم عدم تنزهها عن الأغراض . و يتمثل ذلك في الموقف العدواني، الذي وقفه أحد زملاء ياسين، حالما بلغه أنه سينال ترقية تحجب عنه، على الرغم، من كونه أطول خبرة مهنية منه لذلك قال له محتجا:

-" أنا أقدم منك ..

-كلانا موظف قديم، سنة لا تقدم و لا تؤخر!

-في سنة تولد نفوس، و تزهق نفوس!

-تولد، تزهق، كل واحد و قسمته...

-و الكفاءة؟

فقال ياسين منفعلا :

-الكفاءة ؟ هل نقيم جسورا، أو ننشئ محطات كهربائية؟ كفاءة، ماذا يتطلب عملنا الكتابي من كفاءة ؟ كلانا بالابتدائية، و فضلا عن ذلك فأنا رجل مثقف..

فضحك ابراهيم أفندي ضحكة ساخرة و قال:

-مثقف ؟ أهلا يا سي مثقف! .. أتظن نفسك مثقفا بالشعر الذي تحفظه، أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة "[1] .

يرصد هذا الاتصال الحاد اللهجة المشحون بالميول التنافسية العدوانية القيم السلبية التي يصدر منها الموظفون في الحكم على سلوك بعضهم البعض، و قوامها سوء الظن، و الاتهام، الشك، التبخيس، الرفض، الاستعلاء، و هو أسلوب التعامل مع الآخر باعتباره منافسا غير مرغوب فيه، يهدد المصلحة الخاصة، و يعوق إمكانية تحقيق الترقية، و تحقيق الذات. لأن كل ما يناله الآخر من امتيازات مهنية يلحق الأذى بنرجسية الذات، و مصالحها. و من ثمة، فنجاح الآخر، هو إخفاق للذات، وقدرات الآخر، هي مواطن ضعف في الذات، مما يسوّغ التهجم على مواطن قوة الآخر للتهوين من شأنها، بحيث يصير الشعر ملهاة تافهة، وجودة الأسلوب مجرد زخرف عقيم. و هكذا تطعن الميول التنافسية التدميرية في كفاءة الآخر، حتى تجرده من كل عناصر التفوق، التي تشعر الذات بالدونية،

---

[1] **السكرية** ، ص 187 - 188.

والإخفاق، بحيث يغدو الآخر المتفوق في موقف ضعف، و دونية بعد تسليط النزعة العدوانية التدميرية عليه.

و ينفسح المجال في سياق الصراع بين الموظفين لتوكيد الذات، لا لتأكيد الحقيقة، لذلك تستباح كل قداسة مرتبطة ببعض القيم، و الأنماط السلوكية، و تضفي التبريرات على القيم السلبية كالوساطة، و المحسوبية، و الوصولية، و لعل انتشارها الاجتماعي جردها من الشبهات، و فرضها على الرأي العام حتى غدا لا يستهجنها، و لا يدينها، لأن القيم السلبية؛ كلما ضاقت دائرة انتشارها، اتسعت دائرة استهجانها، و سهل الإجهاز عليها.

ينعكس أثر الوساطة سلبا على العلاقات التراتبية في هرم الإدارة، حيث يزول احترام المرؤوس للرئيس، بحكم عدم جدوى تزكية الرئيس للمرؤوس في الحصول على الترقية، لأنها تتعدى مجال صلاحياته، ويتمثل ذلك في معاملة ياسين لمديره، بعد أن علق على حصوله على الترقية قائلا:

-من الإنصاف أن أصارحك بأنه يوجد من هو أحق بها منك و لكنها الوساطة!.

فغضب ياسين، و كان كثيرا ما يغضب حيال هذا الرجل، و قال :

-الوساطة! مالها ؟ هل تتم حركة كبيرة أو صغيرة دون وساطة ؟ هل ترقى مخلوق في هذه الإدارة، في هذه الوزارة بما فيهم حضرتك دون وساطة؟.

فكظم الرجل غيظه ثم قال:

-لا يأتيني من ناحيتك إلا وجع الدماغ، تترقى دون وجه حق، ثم تثور لأقل ملاحظة عادلة، ما علينا مبارك يا سيدي، فقط أرجو أن تشد حيلك أنت الآن رئيس قلم!.

فتشجع ياسين بتراجع المدير، و قال دون أن يخفف من حدته:

-أنا موظف منذ أكثر من عشرين عاما، و عمري إثنان و أربعون عاما، فهل تستكثر علي الدرجة السادسة، أن الغلمان يعينون فيها بمجرد تخرجهم من الجامعة[1]" .

مكاشفة المدير ياسينا بأحقية زميله بالترقية أكثر منه ينم عن صلاحياته المحدودة، لأن إجراءات الترقية تمت في قمة هرم العلاقات الترتبية للسلطة الإدارية، لذلك لا مجال للطعن فيها، أو الاعتراض عليها، أو سحبها ممن لا يستحقها، و إسنادها لمن هو جدير بها. و مادامت الوساطة من القيم الشائعة التداول في شتى مستويات السلطة الإدارية من أعلاها إلى أدناها، فاتهام المدير ياسينا بكونه نال الترقية عن طريق الوساطة؛ أوقع المدير في التهمة نفسها، و لم يكن بمقدوره الدفاع عن نفسه، و تبرير وصوله إلى منصبه بالكفاءة وحدها، مما جعل من شخصيته المعنوية- باعتباره ممثلا

---

(1) **السكرية** ، ص 191 - 192

للسلطة البروقراطية–مهزوزة لا تملك وسائل العقاب و الردع، لا سيما و أن المدير يدرك أن مرؤوسه يستند على ذوى النفوذ، مما حمله على التسامح معه بحكم عجزه عن فرض هيبته الإدارية عليه.

يرى ياسين أن مدة خدمته، و عمره من الحيثيات، التي تخوله حق الحصول على الترقية، لأنه يتبنى قيما، و معايير تقليدية و شكلية يسوّغ بها ما يزعم بأنه حقه، و هي قيم لا تمت بصلة لمعايير الترقية المهنية العقلانية، و يكشف موقفه من خريجي الجامعة عن غيرته منهم؛ لأنه نعتهم بأنهم غلمان نالوا الدرجة السادسة بمجرد توظيفهم، و اتخذ سنهم الصغير مطعنا للنيل من كفاءتهم، و جدارتهم على السواء، لأنه ليس بمستطاعه الطعن في مستواهم العلمي المسوّغ الوحيد لحصولهم على الوظيفة، والدرجة معا، و لعل كونه حاصلا على الشهادة الابتدائية، هو ما حمله على التطاول عليهم لأن نرجسيته منعته من إدراك الواقع كما هو على حقيقته.

كما أن إدراك ياسين لكونه صاحب نفوذ، يؤثر على آدائه المهني بصورة سلبية، حيث تغدو وتيرة إنجازه متهافتة، و يجنح إلى التسيب، و لعل ذلك ما جعله يستخف بسلطة المدير، و علاقته التراتبية به. و انتفت بالتالي علاقتهما التنظيمية، و باتت علاقة ذاتية قوامها الندية تضعف من جرائها فعالية الآداء المهني للمرؤوس،و الرئيس معا، لا سيما و أن الرئيس يتعثر في ممارسة سلطته التراتبية على مرؤوسه، و على غيره أيضا، لأن الموظفين كلما لاحظوا فوارق في التعامل بين الرئيس و المرؤوسين تسيب سلوكهم المهني احتجاجا على السلطة المنحازة.

كمال و بديل الآخر المحبوب

كان كمال يتردد على الجامعة الأمريكية للاستماع إلى بعض المحاضرات، التي نصحه أحد أصدقائه بحضورها، و يلتقي هناك مصادفة ببدور أخت عايدة، التي مازالت رواسب حبها عالقة في طوايا اللاشعور و "خيلّ إليه أول الأمر أنه يرى عايدة، غير أنها لم تكن عايدة دون ريب ... هذه الفتاة التي لا يمكن أن تجاوز العشرين، و لم يتح له وقت كاف كي يتفحص قسماتها، و لكن جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه، و القامة و الروح، و مجتلى العينين، أجل لم ير هاتين العينين في غير وجه عايدة من قبل، أتكون شقيقتها؟ ... المهم صورتها أيقظت قلبه، ردته و لو إلى حين إلى شيء من تلك الحياة الغامرة التي اكتظ بها زمنا [1]".

تزامن لقاؤه بأخت عايدة، باجتيازه مرحلة نفسية حرجة، تتمثل في معاناته من بعض المتاعب النفسية، التي اشتدت وطأتها عليه، كمعاناته من الحرمان العاطفي، و الجنسي، الذي لم تشبعه

---

[1] **السكرية** ، ص 287.

المومس التي كان يعاشرها، و من القلق الفكري الناجم عن عدم وصوله إلى الحقيقة، رغم تلال الكتب، التي قرأها، و من التمزق النفسي بين الأقدام على الزواج، و الإحجام عنه، و هما دافعان متعادلا القوة، لا يرجح أحدهما الآخر. و ازداد مركزه حرجا بزواج كل أقاربه، و باتت كل معاذيره، التي يتنصل بها من الزواج غير مقنعة للآخرين، مما عمّق شعوره باللاتجانس الاجتماعي، لذلك كان ظهور أخت عايدة في فضاء حياته في وقت كان فيه بحاجة نفسية إليها. و من ثمة انتقلت شحنات تعلقه العاطفي من شخص عايدة إلى بديلتها بدور في لحظة اللقاء الأولى، لا سيما و أنها تحمل كثيرا من سماتها الجسمية، والنفسية، و تعرف هذه الحالة النفسية بالعزو أو التحويل اللاشعوري و هو " افترض الشخص بأن شخصا جديدا عرفه يحمل خصائص مطابقة لشخص له أهمية في حياته الخاصة [1]. إذ " عندما تقابل شخصا آخر، فقد ترى فيه مميزات مشابهة ظاهريا لخصائص في أمك، أو في مدرسك السابق، أو في خادم الأسرة، أو في صديق في الطفولة، و الخاصية التي تقود إلى هذا الافتراض بالتشابه قد تكون أحيانا طفيفة مثل لون الشعر، أو نغمات الصوت، إلا أنه عندما يتكون افتراض التشابه، فإن الفرد يتصرف في ضوئه، فإذا كنت قد أحببت الشخص في الماضي، فستشعر بدفء مع الشخص الجديد وثقة فيه[2]".

و كذلك كان شأن كمال لدى تحدثه مع بدور، حيث استشعر تعلقا عاطفيا بها؛ ازداد بمرور الزمن نموا و رسوخا. و ظل مستوى اتصالهما الإنساني دون ما كان يتوق إليه، لأنه كان مجرد أحاديث بين طالبين يتبادلان الأخبار، و الآراء، مما جعل علاقتهما تفتقر إلى الطابع الذاتي المتميز لكونها أشبه ما تكون بالعلاقات النمطية السائدة بين الطلاب، و الطالبات الذين يلتمسون التنفيس عن كتبهم العاطفي، و الجنسي عن طريق أحاديث؛ لا تمت بصلة للحب، و الجنس في الظاهر، لكنها في جوهرها كذلك .

ظل كمال يعامل بدور لا باعتبارها كائنا بشريا ذا صورة واقعية، و دور متميز في شبكة العلاقات الاجتماعية، بل باعتبارها امتدادا لصورة عايدة المترسبة في العقل الباطن. و لذلك رسم لها صورة نفسية، ترضي نرجسيته الجريحة، و تعد بإشباع حرمانه العاطفي، حيث كان يتوقع أنها باتت قريبة المنال بحكم السقوط الاجتماعي لأهلها بعد إفلاس أبيها و انتحاره، و انتقال أسرتها للإقامة في حي شعبي، مما جعله يرى نفسه جديرا بتقبل أهلها إن تقدم لطلب يدها. و ظلت تتنازعه قيم الحب، والزواج، و الإنجاب، و التجانس الاجتماعي مع الآخرين من جهة، و قيم العزوبة، و الحرية الفردية،

---

[1] جورارد سيدني :**الشخصية بين الصحة و المرض** ، ص 218.

[2] المرجع نفسه : ص 218.

والاغتراب الثقافي عن محيطه الاجتماعي من جهة أخرى، و كلما جنح إلى تفضيل القيم الاجتماعية التقليدية، نازعته نفسه لمكاشفة بدور بحبه، و رغبته في الزواج، لكنه عندما يلتقي بها تترسب رغباته في طوايا وجدانه، و تطفح إلى السطح القيم الاجتماعية الحديثة، التي تجعله يحجم عما كان يتوق إليه ويظل الإقدام و الإحجام يتجاذبانه طيلة فترة علاقته بها. و لعل ما جعله يتذبذب نفسيا بين هذه الاتجاهات الاجتماعية المختلفة، تصوره السلبي للزواج، كمشروع اجتماعي، و للمرأة كشريك في هذا المشروع، و خوفه من صعوبة التكيف الاجتماعي مع التزامات الحياة الزوجية، و واجباتها، فضلا عن رواسب تجربته العاطفية الخائبة، التي تركت بصماتها، بحيث صار يتوقع الرفض عند مكاشفته للآخر المحبوب برغبته في الزواج بحكم أوجه الشبه القائمة بين حبيب الماضي، و الحبيب البديل. ولذلك كان امتناعه عن إبداء رغبته بمثابة سلوك وقائي، يتجنب به تكرار الإخفاق العاطفي، و من ثمة، فقد نبذ نفسه خشية أن ينبذه الآخر المحبوب.

يحسم الموقف عند التقائه ببدور تتأبط ذراع شاب، بدا في الظاهر خطيبها، و كان ذلك بمثابة الحل الحاسم لأزمته النفسية، لكونه أعفاه من مشقة اتخاذ قرار؛ لا يقوى بطبعه على اتخاذه، وهكذا غدت قضية الزواج في نظره معضلة فلسفية خلافية؛ كالقضايا الميتافيزيقية الكبرى، و ليست مجرد مؤسسة اجتماعية و قانونية. و بات موقفه من الزواج سلوكا هروبيا؛ جعله يعيش الزواج بوصفه تجربة معرفية، لا كتجربة واقعية.

الفصـــل الرابـــــع

تفسيـــر السلـــوك الجنســـي

تفسير السلوك الجنسي

الموقف العبثي السلبي

تطالعنا في رواية القاهرة الجديدة أول سمات شخصية محجوب عبد الدائم المتمثلة في سلبية موقفه من كل القيم، و المبادئ، و الاتجاهات المعرفية؛ بحكم شكه في أهميتها، وجدواها؛ مما جعله متميزا عن كل زملائه في الجامعة، لا سيما زميليه على طه الماركسي، و مأمون رضوان الإسلامي، هذان الطالبان المتشربان بمبادئ أيديولوجية متباينة في شكلها، و مضمونها، لكنها متغلغلة في نفسيهما حتى النخاع.

يكشف محجوب عبد الدائم عن ذلك بصريح العبارة في سياق المناظرة التي تطارح فيها علي طه، ومأمون رضوان، وجهات نظرهما بشأن الدين، و المجتمع، و السياسة، و العلم، حيث سأله أحد الزملاء قائلا:

-و أنت يا أستاذ محجوب ما رأيك في المناظرة؟

فأجابه بهدوء: طظ..

-هل المبادئ ضرورية؟ ..

-طظ ..

-غير ضرورية إذا ..

-طظ ..

-الدين أم العلم؟

-طظ ..

-في أيهما ؟ ..

-طظ ..

-أليس لك رأي ما؟

-طظ ..

-و هل هذه طظ رأي يرى؟

فقال محجوب عبد الدائم بهدوئه المصطنع.

-هي المثل الأعلى[1].

---

[1]نجيب محفوظ: **القاهرة الجديدة**، الطبعة السادسة، مكتبة مصر 1966، ص 9 – 10.

لعل لنشأته في محيط أسرى يفتقر إلى العناية الوالدية، و التربية الإيجابية دورهـــا الفعـــال في تشكيل نزعته العبثية، التي جعلته سلبيا اتجاه المبادئ، و الاتجاهات الفكرية، بحكم كونهـــا ضوابـــط سلوكية، تكبت نداء الغرائز، كما أن صورة الوالدين، ذات أثر في نشأة الضمير الخلقي، لذلك يبـــدو أن صورة والديه، كانت باهتة بحكم عدم تأثيرها في تكوينه النفسي، لكونه عاش بعيدا عن ســلطتهما الإرشادية الكفيلة بغرس بذور القيم الأخلاقية؛ و الاجتماعية، لذلك تعتبر ســلبيته اتجـــاه الخطـــاب الاجتماعي لجماعته المرجعية، استمرار لسلبيته اتجاه الخطاب التربوي لجماعته الأسرية.

لعل إسرافه في رفض القيم، و المبادئ، يعد شكلا من أشكال تأكيد الذات، بين أفراد جماعته التي ينتمي إليها، لا سيما و أنه يضمر لزميليه الغيرة و الحسد إذ "نفس عليهما ما يتمتعان بـــه مـــن طمأنينة وثقة، مأمون رضوان أبوه مدرس بالمعاهد، ذو مرتب حسن، فلا تعيـــش أســرته في ظـــل الخوف، وهو يعطي الشاب ما يكفيه و أكثر؛ و لولا حمق مأمون الذي جعله يوقف حياته على العلـــم و العبادة لكانت له لذات الحياة [...]. أما على طه فأبوه مترجم ببلديـــة الإســـكندرية ذو مرتـــب ضخم، والشاب يقبل على التمتع بالحياة في حدود مثله، فهو شاب سعيد، و حسبه إحســـان كـــي يكون سعيدا، و لعل إنسانا لم يثر حسده كما يثيره هذا الشاب الجميل الموفق، هو البـــائس [....] إنه يميل إليهما كثيرا، فنقاش مأمون يستهويه، و روح على تجذبه إليه [...] إنه مع ذلـــك يحســـدهما ويمقتهما ! و لا يتردد عن إبادتهما لو وجد في ذلك نفعا[1]".

يبدو أن مشاعره السلبية اتجاه زميليه قد نجمت عن شعوره بالدونية وليد قبحـــه، و فقـــره، وحرمانه العاطفي و الجنسي بالقياس إليهما، لأنهما يتمتعان بالوســـامة، و الاســـتقرار الاجتمـــاعي، والإشباع العاطفي على حد سواء، لذلك تبنى رفض المبادئ التي يؤمن بها زميـــلاه، كشـــكل مـــن أشكال الرفض المقنع لهما في حد ذاتهما.

كما يخفى سلوكه المازح ميوله العدوانية؛ التي اتخذت أسلوب العـــدوان المـــازح؛ لمـــداراة الرغبات المستهجنة، التي تؤدي وظائف عديدة، كتأكيد الذات عن طريق إثارة الضحك المدلل علـــى الكبت، فضلا عما ينطوي عليه الرفض من إغراء بإشباع ميولهما المكبوتة، و ذلـــك مـــن أســـباب اهتمامهما برأيه، و وقوفهما عنده للتأمل فيه.

كما أن مصادر تشكيل صورة الذات من العوامل، التي أسهمت في تبنيه هذا الاتجاه المعـــرفي، ويتمثل ذلك في طبيعة علاقة الشخص بالعالم الخارجي خلال الطفولة، حيث كلما كـــانت علاقتـــه

---

[1] **القاهرة الجديدة**، ص 30 - 31.

إيجابية بالعالم الخارجي، زودته بصورة مشرقة عن نفسه باعتباره شخصا محبوبا محاطا بالحنان والتقبل، و كلما واجهه العالم الخارجي بالرفض و الإحباط، تشكلت لديه صورة سلبية عن ذاته، باعتباره مرفوضا، مكروها، و بدا له العالم الخارجي حافلا بالأخطار، و المخاوف، و التهديد [1]، حيث "لا يخطئ الناظر إليه ما يدل عليه منظره من التحدي، فما ينفك في خوف من أن يقذفه أحدهم بنكتة، أو دعابة، أو ملاحظة لاذعة"[2]، مما جعله في حالة توفز عصبي دائمة كآلية دفاع عن نفسه، التي يشعر بأن العالم الخارجي يهددها .

يبدو أن بناءه النفسي المضطرب، شكلته ظروف ماضيه، و ظلت رواسبه عالقة، تدفعه إلى توقع العدوان من الآخرين، لا سيما و أن الشعور بالرفض، قد صاحبه خلال مراحل نموه النفسي والعقلي، فأورثه جفوة، و نفورا منهم؛ شكل في وعيه، ولا وعيه تصورا سلبيا لهم، باعتبارهم يمثلون رفض الذات، لذلك عمدت الذات إلى رفضهم، و ما دام رفض المجتمع بكل أفراده، و مؤسساته غير ممكن، فالنزعة العدوانية تتجه إلى قيم المجتمع، و معاييره، و مثله العليا.

كما أن دراسته الجامعية في قسم الفلسفة أغرقته في أزمة القيم، لا سيما و أن علوم النفس، والاجتماع، و الإنسان ترتكز على القيم العقلانية، و المادية، و التجريبية في صياغتها لمناهج البحث العلمي، و أدواته التي تفسر الأخلاق، و الأديان تفسيرا علميا؛ بوصفها ظواهر اجتماعية خاضعة للملاحظة، و الفرضية، و التجربة، و تجردها بالتالي من الطابع الميتافيزيقي، بحيث تتساوى عبادة الله بعبادة الطوطم من الوجهة العلمية، إذ ليس في العلم ظواهر مقدسة، و ظواهر خالية من القداسة.

الشعور بالحسد وليد الحرمان

تتغير حالة عيد الدائم المزاجية لدى وصول رسالة والده من الريف تحمل خبر إصابته بالشلل النصفي الذي يعوقه عن العمل، و عن تزويده بالمبلغ الشهري المقدر بثلاثة جنيهات لاستكمال دراسته الجامعية، مما يضطره للاكتفاء بجنيه واحد؛ لا يفي بمتطلبات حياته اليومية. و من ثمة لم يتفاعل مع شلل والده من موقع المشاركة الوجدانية لآلامه، بل من موقع الرثاء للذات؛ لكونه خسر بمرض والده موردا ماليا؛ مما ينم عن نزعته النفعية المادية، التي يصدر عنها في تعامله مع أفراد جماعته الأسرية، لا سيما و قد توقف الوالد عن القيام بوظيفته المتمثلة في الإنفاق عليه[3] فضلا عن أن علاقته بأبيه خلال الطفولة، هي التي حدته إلى هذا السلوك، حيث كان والده يقتصر "على إلزامه بالقيام ببعض فروض دينه، مستعينا بالعصا في أحايين كثيرة، لذلك جميعه نشأ

---

(1) سعد المغربي: **سيكولوجية تعاطي الحشيش**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986، ص 113.

(2) **القاهرة الجديدة:** ص 24.

(3) عثمان بدري : **بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ** ، ص 42.

محجوب على خوف أبيه، و انطلق إلى الشارع الذي أتم تربيته، و تكوينه، و لذلك كـــانت صلتـــه بوالديه واهية باهتة"[1].

لعله وجد -لاشعوريا- في مرض أبيه، وأصابته بالشلل متنفسا عن ميوله الانتقاميـــة اتجاهـــه بسبب رواسب قسوة السلطة الأبوية، و ما دام انتقامه المباشر منه لا تجيزه الأخلاقيات السائدة، فقـــد جاءت إصابته الطبيعية به، بمثابة تحقيق لرغبات عدوانية مكبوتة في طوايا نفسه.

نَمَّى فيه الحرمان المادي الشعور بالحسد لزميليه، لأن انخفاض المنحة، التي كان يزوده بها أبـوه، جعله يفرض على نفسه أنماطا استهلاكية تقشفية؛ ضاعفت توفزه العصبي، بحكـــم انخفـــاض طاقتـــه العصبية من جراء سوء التغذية. كما أنه اكتشف الهوة الاجتماعية السحيقة ، التي تفصلـــه عنـــهما، وازدادت معاناته من آلام الحسد، بوعيه الفاجع أن زميليه ينعمان بالاســـتقرار النفســـي، و الرخـــاء المادي، فضلا عن استمتاعهما بحياة عاطفية واعدة بالزواج، بينما هو يعـــاني الحرمـــان العـــاطفي، والجنسي، و الشعور بالنبذ من الجنس الآخر؛ بحكم دمامته، و رثاثة هندامه، و قلة ذات يده، و عـــدم تشربه بقيم الاختلاط و تقاليده.

يكابد محجوب عبد الدائم متاعب نفسية؛ من جراء انخفاض المعونة المالية، التي تجعله يتخلـــى عن ميوله الاستهلاكية، و يقتصر على الضرورات القصوى، و يتعمق بالتالي شعوره بالدونية؛ بحكـــم اضطراره لارتياد المطاعم الشعبية، بينما كان من عادته التردد على المقصف مع زملائه في الجامعة، ممـــا جعل انفصاله عنهم في مناسبة الغداء بمثابة الهيار لانتمائه الثقافي و الاجتمـــاعي بـــالمحيط الجـــامعي، ويكون اضطراره إلى تناول طعامه مع العمال في المطاعم الشعبية شـــكلا مـــن أشـــكال الانتمـــاء الاجتماعي إلى طبقة لا يرضيه الانتساب إليها؛ لأنها لا تلائم تصوره لذاته؛ باعتباره طالبـــا جامعيـــا موعودا بالانتماء إلى الطبقة البرجوازية الصغيرة.

يقع في عقدة الشعور بعار الفقر، مما يجعله خائفا من ظهور أعراض الجوع عليه، لأنه كـــان من التضخم النرجسي، بحيث يستعرض مظاهر قوته، و تفوقه، ويداري بالتـــالي مظـــاهر ضعفـــه، ودونيته. ويجنح إلى سلوك التحدي؛ كاستجابة انفعالية؛ تحفظ له بعض التوازن في مواجهة الآخرين.

---

[1] **القاهرة الجديدة**، ص 38.

التكيف مع القيم الاجتماعية السلبية

يصطدم بسلبية القيم الاجتماعية السائدة في عالم التوظيف، بعد تخرجه من الجامعة لكون مؤهلاته العلمية؛ لا تشفع له في الحصول على وظيفة بسيطة في المكتبة؛ لأن معايير التوظيف غير الرسمية أشد فعالية من المعايير الواردة في النصوص التشريعية؛ بحكم أولوية وساطات أهل النفوذ على غيرها من المعايير المتعارف عليها. لذلك يسعى إلى تبني القيم السائدة، حيث يستعين بأحد أقاربه المدعو سالم الأخشيدى؛ لكنه يخذله بسبب نزعته النفعية، التي تجعله لا يخدم إلا من ينتفع بخدمته، مما جعله لا يرى في محجوب عبد الدائم ما يغري بتحقيق المنافع، فصرفه محبط الرغبات. و هكذا يشعر بالإخفاق في تحقيق حلمه بالصعود الطبقي، و يتزامن ذلك بإحباطه العاطفي المتمثل في رفض بنت قريبه التجاوب معه عندما سعى إلى التودد لها.

يغرق في الاكتئاب النفسي؛ لدى اتساع الهوة بين الحاجات التخييلية، و الحاجات الواقعية، حيث ارتفعت نسبة حاجاته التخييلية كالتملك، و الاستقلال، و النشاط الجنسي، لكن الضغوط الاجتماعية؛ عاقتها عن التحقق في الواقع. و ظلت مجرد نشاط تخييلي؛ بحكم انغلاق مجاله الاجتماعي، وانعدام بدائل الإشباع فيه، لذلك غدا سلوكه الإنساني قوامه السلبية، و الإخفاق، و الجمود، والانتظار العقيم .

أثار العمل الصحفي الذي أسند إليه حاجاته التخييلية، و يتمثل في قيامه بتغطية فعاليات جمعية الضريرات، حيث وقف على مظاهر الرفاه الاجتماعي، الذي ينعم به أبناء الطبقة المترفة إذ "تاه في وادي الأحلام و الآمال، ثم ذكر طويلا السهرة التي عاش فيها نصف الليل كله: جمال الرفاهية، ومشاهد النعيم، و مجالي الحسن، وروعة العشق، و جنون الإباحة، تلك الحياة الباهرة التي تذوب روحه شوقا إليها.."[1].

هكذا استقطبت اهتمامه القيم الاستهلاكية السائدة في الأوساط البرجوازية، التي اتصل بها اتصالا عابرا، فأثارت تطلعاته الطبقية، و أشعرته بالهوة الاجتماعية، التي تفصله عنها، و زادته نفوراً من قيم الصبر، و التقشف، و تاقت نفسه إلى قيم المتعة، و القوة، و الشهرة.

يعرض سالم الأخشيدى على قريبه محجوب عبد الدائم العمل كسكرتير في مكتب قاسم بك فهمي؛ حيث يحصل على الدرجة السادسة، التي هي مطمح كبار الموظفين مقابل زواجه بعشيقته، وبدت له "الحقيقة سافرة، و أدرك ما يراد به و عرف ثمن الوظيفة الفاخرة! إن الأخشيدى لا يرسل

---

[1] **القاهرة الجديدة** ، ص 101 – 102.

الساعي في طلبه حبا في سواد عينيه، و لكن ليستغل بؤسه، و إنه ليمقت الأخشيدى. و لكن ليس هذا بيت القصيد. لقد تضرج وجهه بالاحمرار، و أحس بالحرارة تسري في رأسه. فجعل يستصرخ ما جبل عليه من جسارة، و استهانة، و فجور. أجل ما الذي يخجله؟ ما الذي يؤلمه؟ أيؤمن بالزواج؟ أيؤمن بالعفة؟ أيشعر بإهانة في تصريح صاحبه .. إن الحياة تنبري لامتحان فلسفته، لتثبت بالتجربة المحسوسة إن كانت سفسطة وجدلا أو عقيدة و عملا ...[....] أينسى ليالي الجوع؟ أينسى الفول المدمس؟ أينسى التخبط في شوارع القاهرة شحاذا متسولا؟[1]".

هكذا يتجاذبه شعور الإقبال والأحجام، و يقع في صراع نفسي حاد بين التروع إلى إشباع حاجاته التخييلية، أو التوافق مع القيم الاجتماعية الإيجابية، كالشرف، و الكرامة، و ترجح كفة الإقبال بحكم كونه يحقق التطلعات الطبقية؛ رديف إرضاء الحاجات التخييلية كالتملك، و النشاط الجنسي، والنفوذ، التي لا يستطيع إرضاءها إلا بهذا العرض، لا سيما و أن فرص الحراك الاجتماعي غير متاحة له تماما. و يدرك -بشعور حاد بالحسد- لدى مقارنة نفسه بزملائه أنهم أفضل حالا منه؛ بحكم كونهم إندمجوا في عملية الحراك الاجتماعي الكفيل بنقلهم إلى أعلى المستويات الاجتماعية سواء بتعليمهم الجامعي في مصر، أو الخارج، بينما هو يعاني من الانسحاق الاجتماعي في سفح الهرم الطبقي.

كما أنه كان يرزح تحت وطأة الحرمان العاطفي الذي عانى منه خلال الطفولة، ولازمه حتى مرحلة الشباب؛ مما أثر على بنائه النفسي، و جعله شخصية مضادة لنظم الحياة الاجتماعية؛ لأنه لم يعرف الحنان في ظل علاقة إنسانية دافئة؛ تربطه بالآخر، سواء أكان أما، أم أخا، أم رفيقا. و غدا بالتالي غير قادر على إعطاء الحب، أو تلقيه، مما يدمغ شخصيته بالتبلد الوجداني، الذي يحمله على ممارسة السلوك العدواني التدميري؛ غير المتبوع بالشعور بالذنب[2].

لعل ذلك ما يجعله قادرا على التحرر من الشعور بالذنب لدى انتهاك شرفه الأخلاقي؛ لكونه يحتكم في سلوكه الاجتماعي لقيم المتعة الترفية، و المكانة الاجتماعية؛ لا لقيم الشرف، والكرامة، فضلا عما كابده من رفض خلال طفولته؛ جعله لا يتشرب قيم الأسرة، و المجتمع بحكم انفصام علاقته بوالديه، مما أفضى إلى إخفاقه في التعيين الذاتي مع أبويه، ترتب عنه اختلال بناء ضميره.وتتظافر هذه العوامل النفسية، و الاجتماعية على حمله على قبول العرض، لا سيما و قد كان

---

[1] **القاهرة الجديدة:** ص 107 - 108.

[2] عبد الفتاح محمد دويدار: **في الطب النفسي و علم النفس المرضى و الإكلنيكي** ، دار النهضة العربية، بيروت ، 1995، ص 90 - 91.

مهيأ نفسيا، و ثقافيا بحكم تبنيه نسقا من القيم العدمية، العبثية، الفوضوية، المضادة للقيم الاجتماعية الإيجابية، بحيث يسرف في نزعته النفعية، التي تجرد القيم الاجتماعية من أهميتها، وجدواها ما لم تحقق نفعا، أو تدفع ضررا، لذلك ينبذ قيم الشرف، و العفة، و الكرامة لكونها تكرس حرمانه الجنسي، والمادي، و يتبنى القيم الاجتماعية المنحرفة؛ بوصفها قيما واقعية نافعة؛ تحدث آثارا اجتماعية إيجابية مباشرة كالعمل، و المسكن، و الزوجة الحسناء، و المركز الاجتماعي المتميز.

يسوقه قلق الأقدام و الأحجام إلى استخدام التبرير وسيلة لا شعورية تحسم تردده، و تدفعه إلى الاستمتاع باللذات الحسية، حيث يتخذ من نسبية القيم الاجتماعية، و تغيرها مسوّغا يجعله في حل من الالتزام بها، ما دام ما يعد شرفا في هذا المجتمع؛ يعد عارا في مجتمع آخر، و ما تعارف عليه أفراد هذه الطبقة الاجتماعية بوصفه عفة جنسية، قد يراه أفراد طبقة اجتماعية أخرى باعتباره حرمانا جنسيا.

و يتخذ من الاستدلال المنطقي ستارا للتبرير النفسي، بحيث صارت النتيجة، التي ظن أنه وصل إليها بفضل تفكيره المنطقي مجرد نتيجة قد سلم بها من قبل دون أن يشعر، و لم يكن ما ساقه من قرائن، و براهين سوى تبريرا لهذه النتيجة، التي فرضتها عليه نزعات اللاشعور، و على الرغم من ذلك، فقد أصابه شيء من الشعور بالإثم، و هو يخطو لإنجاز مشروع صعوده الطبقي، و ما مثول صورة والديه في ذاكرته إلا دلالة نفسية على استمرار الصراع النفسي دون أن يعوقه ذلك عن قطع مراحل هامة في مشروعه الاجتماعي. و هكذا لم يواكب سلوكه الخارجي إيقاع سلوكه الداخلي بكل فعالياته كالتذكر، و التخيل، و الشعور، مما جعله يقع في تمزق نفسي بين ما يبدو عليه في الظاهر من تكيف مع الدور الاجتماعي المنوط به آداؤه، و ما هو عليه في الباطن من توتر، و قلق، و شعور بالإثم، حيث "مضى يحادث نفسه ثم ذكر في طريقه والديه! و انقبض صدره على رغمه ...وفرق .. و تفصد جبينه عرقا .. تمثلت له والدته التي تؤمن بأنه لا يخطئ أبدا، و تمثل له والده الرجل الريفي بطيبته و تقواه، و غيرته. إنه يتزوج دون علمهما، و لا يدري متى يعلمان .. و لكن يحتمل أن يعلما بالحقيقة، لا فلسفته، ولا أعصابه بمستطيعة أن تجعله يواجه مثل هذا التحدي! .. إن ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده من مخيلته[1]" .

هكذا يبدو أن ما غذى أزمته النفسية الهوة السحيقة الفاصلة بين صورة ذاته المتألقة بالمحاسن في عقل والديه، و صورته عن ذاته باعتباره غارقا في الآثام، لكونه احتكم في سلوكه لنزواته، ومصالحه الخاصة، دون مراعاة القيم التربوية الأبوية، التي شذ عنها في زواجه، لكن صورة عروسه

---

[1] **القاهرة الجديدة** ، ص 112 - 113.

الواعدة بالإشباع الجنسي، تلطف توتره، و قلقه، حيث قام إشباع حاجات الجسد الحيوية مقام إرضاء الضمير، لا سيما و أن أزمة شعوره بالذنب؛ كانت بمثابة حالات شعورية عابرة، تتأرجح بين ارتفاع، و انخفاض بحكم ضعف شعوره بالانتماء إلى أبويه لذلك قال :"إن أسرتي لن تورثني ما أسعد به، فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به"[1].

هكذا تغدو أسرته مؤسسة اجتماعية سلبية الدور، و الأثر، بحكم تعويقها لإرادته الحرة في المشاركة الإيجابية في الحراك الاجتماعي، بحكم عدم تزويدها إياه بوسائل مواجهة الواقع كالمال، والجاه، لذلك يصير التحرر منها بمثابة تحرر من الخوف، و الفقر، لا سيما و أن قيمها الاجتماعية؛ تكرس الفقر، و الحرمان، و تضطره إلى إعادة إنتاج تاريخها التعيس، بحكم الارتباط الجدلي بين الطبقة، و التنشئة الاجتماعية، التي تمارسها الأسرة. لذلك أقصى والديه من مجال تفكيره، و تذكره لفك ارتباطه النفسي بهما، و بأنساقهما القيمية، و موقعهما الطبقي من أجل التحرر من معوّقات الإنجاز، والحراك الاجتماعي.

التطلع البرجوازي و الانحراف

كانت العروس المعروضة على محجوب عبد الدائم؛ هي إحسان شحاته، حبيبة زميله الماركسي علي طه، و قد تعرضت لجملة من الإغراءات النفسية، و المادية، و الضغوط العائلية التي حملتها على قبول هذه الزيجة. و قد بدأ سقوطها الأخلاقي؛ بتظافر اغراءات قاسم بك فهمي، وضغوط أبيها بائع التبغ الفقير؛ الذي مهد سبيل سقوطها؛ بتسفيه اختيارها الطالب الوسيم الفقير، والإشادة بمناقب قاسم فهمي، باعتباره فارس أحلام الصعود الطبقي.

هكذا يثير والدها ميولها الاستهلاكية الترفية، التي ترضى أناها النرجسي الجريح، بسبب تدني موقع أسرتها الاجتماعي، و كان والدها قد عمد إلى إثارة مشاعر ذنبها؛ محملا إياها مسئولية ما يصيب اخوتها الصغار من ضياع؛ برفضها المشروع الاجتماعي المعروض عليها، لا سيما و أن لأسرتها دورا فاعلا في تشكيل قيمها، و أنماط سلوكها؛ لكونها جماعة قرابية عضوية تهتدي بقيمها، و لا تستطيع التحرر منها؛ لكونها ذات شخصية امتثالية، خضوعية .كما أن قاسم فهمي كان ذا جاذبية بسبب وسامته، و أناقة هندامه، و براعته في عقد العلاقات الإنسانية من حيث فعالية اتصاله، و قدرته على الإقناع؛ بحيث زرع الثقة فيها؛ حتى اطمأنت إليه، و استهواها بمظاهر ترفه الاجتماعي، الذي جعلها تتوقع تحقيق أقصى إشباع ممكن لحاجاتها النفسية، و الاجتماعية.

---

[1] **القاهرة الجديدة**، ص 25.

أما محجوب عبد الدائم؛ فيقع فريسة الوساوس المدللة على اضطرابه النفسي الناجم عن أدائه دورا اجتماعيا مستهجنا، مما يشي بعدم تناغم سلوكه الخارجي، و بنائه النفسي الرازح تحت وطأة الشعور بالذنب، و العار، و يتخذ السلوك المهني متنفسا، حيث يغدو محيطه المهني مجالا للتداوي، إذ كلما توافد الناس على حجرة مكتبه لمقابلة قاسم فهمي "استقبلهم دون ارتباك و عاونته جسارته الطبيعية على تمالك أعصابه، و الظهور بمظهر الرزانة، و الثبات و استقبل أحد الباشوات المعروفين، الذين لم يكن يراهم إلا من بعيد، فسلم عليه، و استأذن له، و دعاه إلى مقابلة البك،و على رغم تظاهره بالهدوء كان يكتم بعنف انفعال السرور و الفرح. و مضى نهار العمل في حركة دائبة، ونشاط متصل، و سرور لا مزيد عليه. و بهذا النشاط غير المنقطع نسي أفكاره، و وساوسه، فارتاح باطنه، و هو لا يدري، و غادر الوزارة معافى كأنما ينهض من نوم عميق"[1].

هكذا؛ فاستعانة طلاب الحاجات به تشعره بأهمية دوره الاجتماعي، حيث يسبغ عليه استقباله لأعيان المجتمع ثقة عالية بالنفس باعتباره ندا لهم، لا يقل عنهم مركزا، و يكون سروره مجرد انفراج عرضي للانقباض النفسي، وليد شعوره المكبوت بالذنب. و من ثمة، فهو يلتمس من خلال سلوكه المهني استرداد اعتباره لذاته، و علاج انجراحه النرجسي، لا سيما و أن علاقته بزوجته لا تشبع حاجته إلى الحب، و الأمن النفسي، و الثقة بالذات، و بالفحولة الجنسية؛ بقدر ما تورثه الشعور بالإثم، و الدونية، و الخصاء الجنسي، و الاغتراب، بحكم وجود عشيقها، مما يجعله لا يحقق ذاته في علاقته بزوجته؛ لكونها تراه في موقع أدنى منه، لذلك يعمد إلى محاولة تحقيق ذاته في محيطه المهني. وتقوم فعالية السلوك المهني بتعويضه شعوره بانعدام فعالية السلوك الجنسي في حياته الزوجية.

اختلاط الشعور باللذة بالشعور بالذنب

تعرض مزاجه النفسي للتكدير شأن زوجته من جراء استيلاء عقدة الذنب عليهما، مما عاق تكيفهما معا، فاستعانا بالخمر لتخدير و عيهما المفجوع، لأن صحوهما؛ لا يتيح لهما أداء دورهما بوصفهما زوجين صوريين، فضلا عن كونه يسد قنوات الاتصال الإنساني الفعال بينهما، و يظهر التكلف في سلوكها العاطفي، و الجنسي، مما يحرمهما من الشعور بالإشباع الجنسي، الذي لا يتم إلا في جو من الحرية، و التلقائية، و الثقة بالذات، و بالآخر، و صفاء البال من التنغيص، و ليس أدل على ذلك من كونهما بعد تعاطيهما كمية من الخمر تخففا من معوقات الاتصال النفسية، و صارا أكثر ثقة بنفسيهما، و ببعضهما البعض، مما رفع مستوى فعاليتهما الجنسية معا.

---

[1] **القاهرة الجديدة**، ص 130.

لعل مشاعر الغيرة، و الشك التي كانت تراوده ، تعزى لكون علاقتهما، لم تكن سوية بحكم عجز أحدهما عن نقل ذاته الحقيقية إلى الآخر. و بدا كلاهما بشخصية مضطربة، تقتصر في اتصالها بالآخر على تبليغ الرسائل غير الشخصية، بينما يغلب الجمود الانفعالي عليهما في مواقف التعبير عن الرغبات، و المشاعر،و الآراء الخاصة، لذلك تنامت مشاعر الغيرة، و الشك مدللة على اختلال اتصالهما، فضلا عن كون علاقتهما؛ تقتضي من كليهما تجاهل مشاعره الحقيقية، ورغباته، و مطالبه، و محاولة الشعور، و التفكير بما يفترض منهما؛ لأنهما مجبران على ممارسة سلوك بعينه، بحكم توقعات الآخرين، و إلا يضطران لمواجهة مشاعرهما، و أفكارهما، و مطالبهما الحقيقية، مما يفجر فيهما الشعور بالذنب و القلق، و يفضي إلى رفضهما ذاتهما، و يعرضهما لرفض الآخرين، و إدانتهم الاجتماعية القاسية.

هكذا يبدو شخصا منفصلا عن ذاته بحكم خوفه من ذاته الحقيقية خجلا منها من جراء مشاعره المرضية المتمثلة في الشك، و الغيرة، و الخوف، و الذنب، و القلق بسبب غموض شخصية زوجته، لكونها لم تكاشفه بدخيلة نفسها، و حرصت في الوقت نفسه على إخضاع سلوكها لمقتضيات دورها الاجتماعي، حيث كانت تتوزعها جملة من المشاعر، و العواطف المتضاربة كاحتقار زوجها بحكم دونية مركزه بالقياس إلى عشيقها الذي كانت تحقد عليه لكونه استدرجها إلى السقوط الأخلاقي المتمثل في اتخاذها عشيقة له، بكل ما ينطوي عليه هذا الدور الاجتماعي من مهانة، و إثم، و دونية، و عار. و تمادي في اختزال وجودها بتزويجها زواجا صوريا، يكرس استغلالها الجنسي هي وزوجها، و يسبغ عليه غطاء اجتماعيا براقا. و ينم حنينها لعلى طه الماركسي عن عمق شعورها بالذنب اتجاهه، و تشي كآبتها بخلو حياتها من الحنان، و عدم قدرة الرفاه المادي على إضفاء الأمن النفسي، لا سيما إذا كان رفاها زائفا يتقاضى منها الحرية و الكرامة.

التفاعل مع مواقف الشذوذ

كانت الحانة الملاذ الوحيد، الذي يلجأ إليه محجوب عبد الدائم في مواجهة مواقف إهدار الكرامة، حيث يغدو ارتيادها آلية دفاع نفسية عن أناه الجريح، لأن قدوم عشيق زوجته إلى البيت، هو بمثابة خصاء جنسي لفحولته، و تعزيز لدونيته، و إثارة لذنبه، و تبخيس لوجوده، و من ثمة تمور في وجدانه مشاعر الغيرة مدللة على انعدام أمنه النفسي؛ بحكم منافسة رجل يفوقه وسامة، و مالا، ونفوذا، فضلا عن تبعيته التامة له، و تتضاعف أزمته النفسية بوعيه أن رواسب القيم الاجتماعية في تكوينه النفسي، لا تسعفه على مواجهة الشذوذ، بل تسوقه إلى التحرج و التأذي، مما يضطره إلى الانسحاب من مجال الشذوذ إلى مجال التخدير بالإغراق في الخمر، و يوحي ذلك بعدم نضج

استعداده النفسي لتقبل مواقف الشذوذ، حيث كان يحاور ذاته قائلا: " هل الغيرة طبيعية أم تقليد اجتماعي كالعرض! إن هذه الغيرة توشك أن تفسد عليه جميع ما أفاد من فلسفته و تحرره؟!فما الفائدة؟! إنه ينتقد و يحلل و يحطم، و لكنه وراء ذلك تتخايل لعينيه أشباح مخيفة؛ سيارة تقف أمام عمارة شليخر ... ينزل منها البك الأنيق ... المصعد ... الجرس .. باب الشقة يفتح .. مساء الخير أيتها العروس جاء زوجك الطبيعي .. ثم كيف تلقاه؟ .. في نفس الحجرة، و على نفس الفراش وصفق بشدة يطلب كأسا جديدة"[1].

هكذا يعمد إلى تبرير شذوذه بإفراغ القيم الاجتماعية من مضامينها النفسية ليجعلها مجرد قيم فكرية تجريدية، لا تهز الوجدان، بحيث يعتبر العرض مجرد فكرة ليتحرر من عقدة الذنب؛ لكن تبريره الفلسفي لم يكن بمقدوره إسكات صوت المجتمع الكامن في طوايا نفسه؛ بحكم كونه رهينة عذابين، عذاب الضمير الناجم عن شذوذه، و عذاب الضمير من جراء تصنيفه كمنحرف وقد يتحمل عذاب الضمير بوصفه معاناة داخلية؛ لكنه لا يتحمل مواجهة تبخيس الآخرين له، و من ثمة بات بين القلق الناجم عن ارتكاب الإثم، و هو الشعور بالذنب، و الخوف الناجم عن السقوط الاجتماعي والأخلاقي، و هو الشعور بالعار.

و من ثمة، فإغراقه وعيه بالخمر؛ هي عملية تلطيف للقلق النفسي الكامن فيه، و القلق الأخلاقي الذي قد ينفجر بانكشاف سلوكه الشاذ، لذلك يكون قلقه بمثابة توقع للفضيحة بكل ما يستتبعها من عقاب اجتماعي، بحيث تغدو الخمر وسيلة تكيف مع ظروف اجتماعية شاذة، صادمة، جارحة للأنا النرجسي، فضلا عن عدم وضوح تصوره لدوره الاجتماعي؛ بحكم طبيعة شذوذ الدور نفسه، و عدم امتصاصه للأنماط السلوكية التي يقتضيها؛ بحيث لم يكن يدري هل يشرف على استقبال عشيق زوجته، أم يتجنب رؤيته تماما؟ هل يمكث بالبيت أم يغادره ؟! و كيف يتفاعل مع الحالات الشعورية السلبية الناجمة عنه.

كان تصوره للدور الاجتماعي الشاذ يتنافى و صورة الدور الحقيقية بكل ملامحها الشائهة، إذ بدا له هين الأداء، محتمل الآثار، لكن ممارسته له نفت تصوره، حيث اضطربت معاييره، و أنماطه السلوكية، و غمض في وعيه أداؤه، مما حمله على التماس الدعم النفسي عن طريق الخمر. و لذلك تتألق ثنائية شخصيته بين سلوكه الخارجي، و سلوكه الداخلي حين خاطبه شاب غريب في الحانة قائلا له:

-رأيتك آخذا في حديث عنيف مع نفسك، فوددت لو حملت عنك بعض العناء ...

---

[1] **القاهرة الجديدة** ، ص 147، 147.

فضحك محجوب ضحكة عالية جدا دلت على انفلات الزمام من يده و سأله:

-أحقا كنت أحادث نفسي؟..

-أجل و كنت محتدا .. بل حانقا ..[1]".

هكذا يبدو سلوكه ذا مستويين، حيث يجسد سلوكه الخارجي الشذوذ، و الانحراف، بينما سلوكه الباطني يبدو سويا، و مما ينم عن ذلك توتره الانفعالي الحاد، الذي ظهر أثناء سكره، حيث منعته الضغوط الخارجية من التعبير عن غضبه لكرامته المهدودة، فعمد إلى تفريغ شحنات انفعاله المكبوتة، خلال سكره بتخيله للأشخاص، و المواقف، و تغدو فعالية التخيل قناة تنفيس عن السخط الكظيم على الذات، و الآخرين معا.

يبدو أن السلوك الشاذ يصدر عن أشخاص بلغ اضطرابهم النفسي حدا شديدا، لكنهم على درجة عالية من السواء في بعض الحالات، و يتمثل ذلك في سلوك محجوب عبد الدائم لكونه لم يتبن الأنماط السلوكية المنحرفة مقتنعا بسوائها، بل اتجه إليها مدركا طابعها الانحرافي الشاذ، و اتخذ التبرير العقلي وسيلة مقاومة للشعور بالذنب، و عندما عجز عن إضفاء الاتزان النفسي عليه، استعان بالمفعول النفسي و العصبي للخمر حسما للصراع النفسي المحتدم، لكنها كشفت توتره الكامن المتمثل في الهذاء كسلوك مرضي، يشي باختلال العلاقة بين الشخص وذاته، بحكم اضطراب فعالية الإدراك المتمثلة في محاورة الفرد ذاته بصوت جهير، و مثول الأشخاص الغائبين في ذاكرته، كأنما هم حاضرون أمامه، مما يجعله يعاملهم بوصفهم على اتصال إنساني مباشر به.

عقدة الشعور بالعار

عندما يزوره مأمون رضوان -زميله الأسبق في الجامعة- في مكتبه يراوده هاجس الشعور بالعار؛ لدى ذكره اسم زميله الصحفي أحمد بدير، بحكم ما تتيحه له وظيفته الإعلامية من إطلاع واسع على أسرار المجتمع؛ لذلك توجس خيفة من انفضاح سلوكه المنحرف، لا سيما و أن الوظيفة رغم سموها ليست مدعاة للمباهاة الاجتماعية؛ بحكم المسالك المنحرفة؛ التي أفضت إلى الحصول عليها، و أصبحت الشهرة محفوفة بمحاذير العار، و بات الاتصال بأعضاء الجماعة المرجعية مجلبة للتوتر لكونهم يمثلون مرحلة البراءة من الذنب، و غدا الاحتكاك بهم يثير القلق الناجم عن توقع العقاب الاجتماعي، بينما اتصاله بالغرباء؛ يتيح له مجال إشباع حاجاته النفسية؛ لتوكيد الذات عن طريق استعراض مظاهر الوجاهة الاجتماعية، المتمثلة في المنصب العالي، و الزوجة الجميلة، و السيارة

[1] **القاهرة الجديدة** ، ص 148.

الفخمة، و البيت الأنيق، مما يجعل من الوجاهة الاجتماعية بلسما يداوي الجراح النرجسية، كلما يخلو بنفسه، أو يواجه أعضاء جماعته المرجعية، و هي تتشكل من زميله ذي الانتماء الإسلامي، و زميله الآخر ذي الانتماء الماركسي، و زميله الثالث العامل في الصحافة. و يمثل زميله الإسلامي في وعيه، ولا وعيه الإدانة الأخلاقية الصامتة بحكم طبيعة القيم و المعايير السلوكية، التي يدعو إليها، بينما يجسد زميله الماركسي -حبيب زوجته الأسبق- الإدانة الأخلاقية لكونه طرفا ضالعا في خيانة حبيبته له، والإدانة الاجتماعية؛ باعتباره رهن ذمته الأخلاقية للطبقة البرجوازية في سبيل تحقيق انتماء اجتماعي زائف إليها. أما زميله الصحفي، فهو بحكم وظيفته الإعلامية؛ صوت المجتمع الناطق بقيمه، و معاييره الاجتماعية السائدة.

و هكذا يغدو أفراد جماعته المرجعية السابقة مرجعية طاردة لا جاذبة، لا سيما و قد كان في مرحلة تكيف نفسي محفوف بالتوتر الحاد، مما جعله أحوج ما يكون للانتساب إلى الجماعات المرجعية المجانسة له في أنماطه السلوكية المنحرفة؛ لتمده بالدعم النفسي الكفيل بتحصين مركزه الاجتماعي.

المقاومة اللاشعورية للاستلاب

حاولت إحسان شحاته إشباع ميولها الاستهلاكية الترفية، و حاجتها إلى الإعجاب، والتودد، حيث كانت تتلقى عبارات الغزل، و نظرات الاشتهاء التي ترضي نرجسيتها في محيطها الاجتماعي الجديد، و لذلك باتت ميالة لاستعراض مظاهر الوجاهة الاجتماعية عن طريق عنايتها بأنوثتها، وهندامها لتوكيد ذاتها المستغلة، المبخسة، المشيأة، و استقطاب الإعجاب، و الاهتمام لكونها محرومة عاطفيا بحكم فتور علاقتها بزوجها، و عشيقها معا.

إذا كان اختلاؤها بنفسها مجلبة للوساوس، و الهواجس لعدم توافق سلوكها و القيم الاجتماعية المقبولة، فإن مشاركتها في نوادي المجتمع الراقية؛ تزودها بالثقة بالنفس، و تلطف توترها النفسي، وليد شعورها بالذنب، حيث تنتقل من موقف إدانة الذات عند الخلوة بنفسها إلى موقف تمجيد الذات لدى اتصالها الفعال بالآخرين، لأنها ترى ذاتها في الخلوة مجرد امرأة آثمة، منحرفة، جمعت بين دورين اجتماعيين متناقضين شكلا و مضمونا . أما اتصالهما الفعال بالآخرين، فيجعلها مجرد امرأة جميلة، أنيقة، و متزوجة زواجا رسميا "أما القبوع في البيت تنتظر أحد رجليها، فهو فوق ما تحتمل .. بيد أنها رغم كل شيء ما انفكت تشعر بفراغ، و ملل .."[1] لأن مكوثها في البيت يكرس

---

[1] **القاهرة الجديدة**، ص 155.

مشاعرها السلبية، و وعيها بأنها زوجة خائنة، و عشيقة نهمة، و هي في الدورين مجرد مومس ترتـــزق بأنوثتها، و قد اختزل وجودها في حدود جسدها، الذي تقدمه للمتعة الجنسية؛ مقابل إشباع ميولهــــا الاستهلاكية، التي تنامت بشعورها بوطأة علاقة القهر المفروضة عليها؛ بحكم التبعية المزدوجة للزوج، والعشيق معا.

هكذا يغدو إشباع الميول الاستهلاكية مجرد تعويض للحاجات النفسية المكبوتة، لذلك "كلما ألح عليها هذا الشعور تمادت في التهالك على حياة المســرح، و الــترف حــتى فــاقت زوجــها في طموحه[1]". و من ثمة؛ فقد اتخذت السلوك الاستهلاكي؛ بمثابة تعويض عن حاجاتها النفســـية غــير المشبعة، لا سيما لكونها كائنا مستلبا استلابا ثلاثيا؛ يتعلق بأبعادها الجنسية، و العقائدية، والاقتصادية، و صارت بالتالي كائنا لغيره، لا لذاته، حيث يتمثل الاستلاب الجنسي في كونها كائنا مانحــا للمتعــة الجنسية، لا متلقيا لها، مما جعلها مغتربة عن جسدها، و منفصمة عن ذاتها.أما اســـتلابها العقــائدي؛ فيتمثل في خضوعها لنسق من القيم المنحرفة؛ سيقت للامتثال إليها بغير إرادتها الحرة، أمـــا اســـتلابها الاقتصادي، فيتمثل في استفادة أهلها، و زوجها ماديا من تبخيس كيانها أكثر مما استفادت هي مــــن ذلك.

الميول الاستهلاكية و التوتر النفسي

ازدادت وتيرة استهلاك محجوب بارتفاع دخله، الذي لم يعد يفي بحاجاتـــه الاســـتهلاكية، بحيث بدا له أقل مما يستوجب أن يكون عليه، لا سيما و أن الأوساط الاجتماعية المترفة، التي كــــان يتردد عليها، تقتضي منه نفقات باهضة له، و لزوجته. كما يعكس إسرافه في الاستهلاك مدى التوتــر النفسي، الذي كان يكابده، و قد اتخذ من السلوك الاستهلاكي متنفسا له، فضلا عن كون النفقــات تزداد بطبيعة الحال بارتفاع المداخيل. و لعل سنين الحرمان، التي عاشها خــلال طفولتــه، و شـــبابه الباكر؛ شحنته بميول استهلاكية، جعلته كأنما يريد -بوعي أو دون وعي- استدراك ما فاته من أوجــه الإنفاق للتخفيف من توتر الحرمان، و تعزيز انتمائه الطبقي الجديد. كما أن استيلاء المغريات الماديـــة على وعيه أفقده القدرة على ضبط ميوله الاستهلاكية حسب قدرته الشرائية، فضــــلا عـــن كـــون استهلاك الأطعمة، و الألبسة، و الخمور، و وسائل الترفيه، يعكس عمق الحرمان العــــاطفي الـــذي يتوارى وراء الميول الاستهلاكية المادية.

---

(1) **المرجع السابق** :ص 165.

ما دام مأزوما بعقدة الذنب، و الخصاء الجنسي، فهو محبط تراكمت شحنات عدوانيته الانتقامية اتجاه صانع خصائه، و إحباطه ، و هو عاجز عن تصريفها في شخصه، مما جعله يصب نزعته العدوانية الانتقامية على راتبه، لكونه سبب أزمته، حيث ينم تبديده له عن رغبته اللاشعورية في التحرر من اثمة،و عاره، و خصائه. كما يشي امتناعه عن تزويد والده بشيء من المال عن انفصام روابطه العاطفية بجماعته القرابية الأولى، و يمثل هذا الموقف السلبي شكلا من أشكال العدوان المقنع؛ بحكم ما يترتب عنه من تعرضهما للحرمان، و إهدار الكرامة؛ لأن عدوان الابن على أبويه قد ينم عن حرمانهما إياه من الحب، و الأمن، و التقبل .

كما أن انتفاء المنافع الصانعة للعلاقات الاجتماعية؛ زهده في التعلق بوالديه؛ بحكم فلسفة حياته القائمة على النفعية؛ كقيمة أساسية؛ تحكم علاقاته بالآخرين، حيث اتصل بوالديه عندما احتاج إليهما، و تنكر لهما بمجرد أن استغنى عنهما. فضلا عن كون خوفه من انفضاح انحرافه؛ صرفه عن الاتصال بهما، لكونه مدعاة للشعور بالذنب، بحكم تخليه عن القيم الأبوية، لذلك يجنح إلى تسفيه القيم الأخلاقية الأبوية، ليتحرر من شعوره بكونه مدينا للرعاية الأبوية، ماديا و معنويا، لأنه عاجز عن الوفاء بالتزاماته الأخلاقية نحوها.

السقوط الاجتماعي

يبدو أن سالم الأخشيدي الطموح إلى منصب سكرتير الوزير، شعر بالدونية من جراء رفض قريبه محجوب عبد الدائم تلبية رغبته في تبادل منصبيهما؛ لكونه يرى نفسه أحق بالمنصب المعروض عليه منه، لا سيما و أنه يعامله باعتباره دونه وجاهة، و نفوذا، بل يستشعر لذة سادية من جراء استعلائه عليه، لكونه ولي نعمته، لذلك لم يتقبل احتلال قريبه الفقير مركزا يجعله تابعا له بعد أن كان متبوعا، كما أن محجوب عبد الدائم كان ينطوي على الشعور بالدونية اتجاهه، و الحسد له، و الميول الانتقامية منه؛ لكونه أسهم في سوقه للانحراف و السقوط. لذلك ما إن انفتحت أمامه آفاق الحراك الاجتماعي، حتى انبرى لاحتلال المنصب السياسي المعروض عليه رافضا ما عرضه عليه قريبه؛ بغرض تكريس دونيته، و تبعيته له. و هكذا فقد ارتاح محجوب عبد الدائم مما كان يعانيه من توتر انفعالي من جراء احتلاله منصبا أعلى من منصب قريبه المحسود. أما قريبه، فقد اختل توازنه النفسي، مما حمله على السلوك العدواني الانتقامي من وزيره قاسم بك فهمي، و قريبه محجوب عبد الدائم، لكونهما طعنا أناه النرجسي في الصميم.

هكذا تغدو الوشاية، و السعاية من القيم السلوكية السلبية، التي تعيد الاعتبار للذات الجريحة، وتلحق الأذى بصانعي انجراحها، و يتم تبادل الأدوار، و المواقع، بحيث يغدو صانعا الإحباط من

ضحايا الإحباط، و ينتقلان من موقع الصعود الاجتماعي إلى موقع السقوط الفاجع، و من ثمة يتخفف المأزوم بالدونية، و الإحباط من متاعبه النفسية بإطلاق ميوله العدوانية الانتقامية، لأن بقاء الجانين عليه بمنأى عن الانتقام؛ يضاعف شعوره بالدونية، و القهر، و الإحباط.

كذلك كان شأن زوجة قاسم فهمي التي أشعرها خيانة زوجها بكونها غير مرغوب فيها، وغير جديرة بالحب، و الوفاء، و الانتماء لذلك حملها الإحباط على السلوك العدواني الانتقامي. ومن ثمة فإذا كانت خيانة زوجها بمثابة تحرر من الارتباط الزوجي بها، و إقصاء اجتماعي لها من أقدس مؤسسة اجتماعية، فقد عمدت إلى عزله من رأس الوزارة -بحكم نفوذها- لأن منصبه خوله حقوقا لم يكن بمقدوره الحصول عليها لولاه، حيث أمده بالفحولة الجنسية، و يغدو عزله بمثابة خصاء جنسي له يجرده من النفوذ، و الجاه،و المال مثلما جردها الخيانة الزوجية من الثقة بالنفس، و بالأنوثة، و من الشعور بالحب، و التقدير، و الانتماء.

يتعرض محجوب عبد الدائم لشتى أنواع العقاب النفسي، و المهني، و الاجتماعي، و يتمثل العقاب النفسي في حضور أبيه موقف الفضيحة الأخلاقية، الذي فجر عقدة شعوره بالعار، التي كانت في حالة كمون. أما عقابه الاجتماعي؛ فيتمثل في انحلال روابطه القرابية مع كل أعضاء جماعاته القرابية، و المهنية، حيث يغدو منبوذا مرفوضا. أما عقابه المهني؛ فكان بعزله من منصبه؛ كسكرتير للوزير المخلوع، و تعيينه في وظيفة مغمورة في أقاصي الصعيد؛ باعتباره قمة النبذ الاجتماعي المدلل على زيف صعوده الطبقي.

اللاانتماء الأسري و العدوان

تتألق في رواية زقاق المدق بعض سمات شخصية حميدة، منها كونها فقيرة مجهولة النسب؛ إلا أنها كانت تبدو ذات ثقة عالية بالنفس، لعلها مجرد قناع براق، تدارى به شعورها بالدونية، و العار من جراء إحباط حاجتها للانتماء الأسري، باعتباره من مكونات التوازن النفسي، و لعل " لحسنها الملحوظ الفضل في بث هذه الروح القوية في طواياها، و لكن حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده، كانت بطبعها قوية، لا يخذلها الشعور بالقوة لحظة من حياتها [...] فلم تفتأ أسيرة لإحساس عنيف، يتلهف على الغلبة و القهر، يتبدى في حرصها على فتنة الرجال، كما يتبدى في محاولتها التحكم في أمها و يتعرى في أسوأ مظاهره فيما يشتجر بينها و بين نسوة الزقاق من شغب و سباب و عراك، حتى أبغضنها جميعا "[1].

---

[1] نجيب محفوظ: **زقاق المدق**، ط5، مكتبة مصر، القاهرة، 1963، ص 43، 44.

هكذا يتكشف أن سلوكها العدواني؛ ناجم عن دوافع داخلية كامنة في طبعها نفسه، فضلا عن نزوعها إلى التسلط في علاقتها بالآخرين، مثلما هو شأن ذوي النزوع إلى الخضوع، و التبعية للآخرين. كما أن ميلها لممارسة القوة، و تحقيق الغلبة في صراعها مع الآخرين؛ يوحي بانعدام أمنها النفسي، الذي يشحذ عدوانيتها لوقاية نفسها من التهديد المتوقع من العالم الخارجي، لذلك عكست حدة خصامها مع الآخرين حدة صراعها النفسي؛ فضلا عن كونها ترى الآخرين باعتبارهم منافسين، و خصوما ينبغي سحقهم تحقيقا للذات المبخسة.

لعل كراهية جاراتها لها؛ ما هي إلا انعكاس مباشر لكرهيتها لهن؛ لكونهن يمثلن المرجعية الاجتماعية، التي ترفض و جودها؛ لأنها بلا انتماء أسرى، كما أنهن يتمتعن بهوية ذاتية، و انتماء أسرى، تفتقر هي إليه، مما جعل اتصالها بهن مدعاة لتوترها، و قلقها لعدم تجانسها مع أفراد محيطها الاجتماعي.

يحدوها الحرمان العاطفي، و الجنسي، و المادي للجنوح إلى أحلام اليقظة، حيث تتمثل لها الحياة المترفة، التي تتوق أن تحياها بزواجها من رجل ثري، مما ينم عن طبيعة القيم الاجتماعية الموجهة لسلوكها، و قوامها المال؛ باعتباره الوسيلة الكفيلة بإسعادها. و من ثمة، فهي تسعى لإشباع حاجاتها الاستهلاكية، تعويضا عن حاجتها المتعذرة الإشباع، لكونها متعلقة بالهوية، و الانتماء. و ربما يدلل سعيها للحصول على المال عن شعورها بدونية ذاتها، و مكانتها الاجتماعية.و من ثمة تعمد للاستقواء بامتلاكه، و تحقيق تقدير الآخرين لها، لا سيما و أن امتلاكها المال، قد يمحو كونها لقيطة؛ ما دام جمالها لا ينفي عنها التبخيس الاجتماعي.

كانت "صويحباتها من عاملات المشغل" يمثلن الجماعة المرجعية الإيجابية السلبية معا. و يتمثل جانبها الإيجابي، فيما حققنه من استقلال مادي؛ رديف حركتهن الاجتماعية الحرة، التي كفلت لهن حرية الاتصال بالجنس الآخر، مما جعلهن يتمتعن بالمكاسب المادية، و الاجتماعية التي هي محرومة منها. لذلك كانت ترى فيهن المثل الأعلى، الذي تتوق إلى تجسيده بوعي، أو دون وعي أيضا.

أما الجانب السلبي لهذه الجماعة المرجعية، فيتمثل في كون رفيقاتها؛ يثرن فيها مشاعر الغيرة والحسد، لكونهن أشعرنها بالحرمان النفسي، و المادي، الذي تضاعفت حدته بعجزها عن محاكاتهن في أنماط سلوكهن المتفتح؛ بحكم انغلاق محيطها الاجتماعي؛ المتمثل في حيلولة أمها بالتبني دون ممارستها لفعل التحرر الاجتماعي عن طريق العمل.

موقف حميدة من عباس الحلو

كان موقفها منه يتأرجح بين الميل، و النفور، حيث استمالها لكونه "الفتى الوحيد الصالح لها في الزقاق، و قد قرأت في عينيه البارزتين آي الحب كما قرأتها مرارا من نافذتها في الماضي القريب، ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجامد الجحود؟ أما حالته المالية التي تعلم عنها الشيء الكثير، فلا يمكن أن تحرك فيها ساكنا، و أما شخصه، فوديع تنم عيناه عن القناعة، و الخضوع، مما يجعله خليقا بأن يرتاح إليه فؤادها المغرم بالسيطرة، بيد أنها وجدت نحوه -رغم ذلك- نفورا لم تدر له سببا .. ماذا تريد ماذا؟ ومن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب؟! لم تهتد لجواب بطبيعة الحال .. و قد عزت نفورها منه إلى فقره! و الظاهر أن حبها السيطرة كان تابعا لحبها العراك لا العكس فلم تهش للمسالمة، و لم تفرح بظفر هين سهل المنال[1]" .

من ثمة، لم تجد فيه ظالتها؛ لكونها ذات بناء نفسي سادى مازوخي معا، بحيث إذا أرضى نزعتها السادية بخضوعه، و مسالمته، فإنه لا يرضي نزعتها المازوخية، التي يتحقق إشباعها عن طريق القوة، و السطوة، مما جعلها تزهد فيه، و تنفر منه، و لعل مازوخيتها هي التي جعلتها لا تستجيب لغزله المازوخي، لا سيما و أن تلك الترعة، تستمد إشباعها بنقيضها لا بنظيرها. فضلا عن كون موقعه الاجتماعي المتدني لا يغري بإشباع ميولها الترفية. و هكذا اجتمع عاملان أحدهما نفسي لا شعوري، و ثانيهما اجتماعي، جعلاها لا تبادله العواطف، و تلتزم في تعاملهما معه حدود التحفظ.

الدوافع النفسية للطموح المهني

يتسم سلوك عباس الحلو المهني بالخمول، و الرتابة في تعاطيه حرفة الحلاقة الزهيدة المداخيل. وتتحرك في طوايا نفسه دافعية الطموح المادي؛ عندما ينمو إلى علمه؛ أن حميدة ذات طموح، مما يجعله يسعى ليكون في مستوى المثل الأعلى للرجل، الذي تتوق إليه، لا سيما و أن مستواه الاجتماعي؛ لا يرضيها، و من ثمة يلازمه توقع الرفض من الآخر المحبوب، فيجنح إلى تعديل سلوكه الاجتماعي؛ تحقيقا للتقبل المنشود. و قد نجم هذا التغير السلوكي عن سخرية أخيها بالرضاعة من خموله حين كاشفه بحقيقة القيم الاجتماعية، التي تتبناها حميدة، و هي مناقضة للقيم الموجهة لأنماط سلوكه.

---

[1] **زقاق المدق**، ص 48.

هكذا يتبين أن غاية طموحه المهني، ليست مادية صرف، بل هي نفسية ذات طابع جنسي، لكونه لم يتوخ إشباع تطلعاته المادية بقدر حرصه على إشباع حاجته إلى الحب، و الجنس، و التقبل من الآخر المحبوب. و لم يكن له من مجال يحقق فيه طموحه سوى الانتساب إلى الجيش البريطاني؛ بحكم انعدام البدائل الاجتماعية أمام أبناء الطبقات الواقعة في أدنى السلم الاجتماعي، خلال مرحلة الأربعينيات في مصر.

هكذا يغدو طموحه المهني بمثابة عملية إعادة بناء صورة الذات المرفوضة لتصير مرغوبا فيها، مما ينم عن تبعيته الشعورية، و اللاشعورية لها، لكونه عاجزا عن استمالتها، بحيث تتبنى قيمه، ومعاييره السلوكية باعتباره الطرف الراغب، بينما هي الطرف المرغوب فيه، و هكذا يتحدد موقعه السلبي في العلاقة العاطفية، بحكم انعدام الندية بينهما، و اختلاف مركزيهما فيها، لأن أحدهما مسيطر سادي، والآخر خاضع مازوخي.

دوافع الشذوذ و مظاهره

كان شذوذ زيطه الجنسي يتحقق إشباعه عن طريق الاستطلاع الجنسي، الذي كان يداوم عليه؛ كلما أتيحت له الفرص لذلك، حيث كان يسترق النظر إلى جاره "جعده الفران" و هو يضاجع زوجته، مما يستثير دوافعه الجنسية المكبوتة، فيعمد إلى الاستمناء تلطيفا للتوتر. و يكشف سلوكه الجنسي عن عدم نضجه النفسي، لأن أنماط الإشباع، التي كان يمارسها دون مستوى عمره الزمني بمراحل، لا سيما و أن الاستطلاع الجنسي من سمات السلوك الجنسي الطفلي، حيث يبدو على الأطفال في مراحل نموهم الأولى نزوع نفسي؛ يحملهم على محاولة اكتشاف السلوك الجنسي؛ سواء بمداعبتهم لأعضائهم التناسلية، أو استراق النظر إلى المشاهد الجنسية، و يكشف السلوك الاستمنائي عن نزعة زيطه النرجسية، التي تحمله على الاستمتاع بتمركزه حول ذاته، دون حاجة للاتصال بالجنس الآخر، أو بسبب العجز عن إقامة علاقة سليمة به، مما جعله ينكفئ على ذاته في إشباع جنسي ذاتي؛ قوامه المادة الإيروسية، التي يفرزها الخيال، و تحركها بعض المثيرات الخارجية، التي تجد صداها في ذاته.

موقف زوجة كرشه من شذوذ زوجها الجنسي

هجس في نفسها أن شذوذه الجنسي المتمثل في ميله للجنس المماثل؛ قد عاوده بعد انقطاع طويل؛ لكونه أمسك عن ممارسة الجنس معها، مما يدلل على توجيهه طاقته الجنسية وجهة أخرى

حيث "راح يمضي سهراته الليلية بعيدا عن البيت بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كل منتصف ليل، فيمتد بهم السهر حتى مطلع الفجر"[1].

لعل سهره خارج البيت بمثابة هروب من جو الحياة الزوجية الرتيب، لكون الزوجة الجسد قد استنفذت لذاتها، و الزوجة العاطفة فترت حرارتها، فضلا عن انحطاط حسه الأخلاقي، الذي أسبغ على سلوكه الجنسي شذوذا؛ تظافرت جملة من العوامل على تشكيله، منها النفسية، و الاجتماعية أما العوامل النفسية، فتتمثل في عدم استكماله لنموه الجنسي، لأن الأسوياء، ينتقلون غالبا من مرحلة عشق الذات في طور الطفولة، إلى عشق الجنس المماثل في طور الطفولة الثاني، فعشق الجنس الآخر في مرحلة المراهقة، و إذا ظل الفرد مثبتا على المرحلتين الأولى، و الثانية، فهذه دلالة على عدم اكتمال نضجه النفسي، و من ثمة يتسم سلوكه الجنسي بالشذوذ. أما العوامل الاجتماعية، فتتعلق بطبيعة الأوساط، و الجماعات العضوية، و المرجعية التي اتصل بها في مراحل تنشئته الأولى، و أثرها في تشكيل سلوكه الجنسي الشاذ، فضلا عن إخفاق علاقته الجنسية بزوجته في مده بالإشباع الكفيل بإحداث التوازن النفسي .

هكذا بات سلوك المعلم كرشه يتأرجح بين المرحلة الثانية و الثالثة، و أتاحت له ملكيته لمقهى الحارة الوحيد استقطاب من يستهويه من الشبان الفقراء، و تعرض لفضيحة طالت سمعته في الصميم، مما ألب أهله عليه في موقف إدانة أخلاقية صارمة، أيقظت فيه الشعور بالعار، و حملته على الإمساك عن شذوذه الجنسي فترة طويلة، لكنه ما لبث أن راودته ميوله الجنسية الشاذة، مما يدلل على خضوع ميوله لحركة المد و الجزر، حيث يحمله المد على الإقبال على السلوك الجنسي الشاذ، و يمنعه الجزر عن التمادي فيه، لا سيما و أن هذه الآليات النفسية محكومة بعوامل فيزيولوجية، و نفسية ذات علاقة بمحيطه الأسري، أو محيطه المهني، حيث قد تطرأ عوامل تدعم سلوك الإقبال، أو سلوك الأحجام، بحكم كون السلوك الجنسي سواء أكان سويا أو شاذا، تحكمه دوافع كامنة في البناء النفسي للفرد، و عوامل سائدة في محيطه الاجتماعي.

تمارس عليه زوجته سلطة الضبط الاجتماعية باحتجاجها على سهره، و تلميحها لشذوذه، مما يشعره بالذل، و الدونية، و الخضوع لوصايتها؛ لكونها قوية الشخصية، تشتد ميولها العدوانية كلما حالت دون إرادة فعلها بعض العوائق. كما أنه لم يكن بمقدوره تطويع سلوكها ليتوافق، وأنماطه السلوكية، و ليس بمقدوره مداراة سلوكه الجنسي الشاذ عنها؛ لكونها من الذكاء؛ بحيث تربط العلاقات بين العناصر المتباينة، و تستنتج الحقائق من القرائن دون وقوفها على الحجج الدامغة.

---

[1] **زقاق المدق**، ص 77 - 78.

لعل ما جعله عاجزا عن طلاقها وقوفه منها موقف الثنائية الوجدانية ذات القطبين المتناقضين، وهما الحب، و الكراهية حيث "كان يكرهها حينا، و يحبها حينا آخر، و لكن كانت الكراهية تغلب عليه، إذا جره الإثم في قرارة نفسه لو كانت امرأته عاقلة، فتركته وشأنه. و من عجب أنه كان يرى نفسه على حق دائما، و يعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرر"[1].

يبدو أن حبه لها ناجم عما تحققه له من إشباعات نفسية، و اجتماعية ترضى ذاته، و تضفي عليه الراحة النفسية، بينما كرهه لها ناجم عن إحباطها لسلوكه الجنسي الشاذ، و إنزالها العقاب النفسي به عن طريق التأثيم، و التجريم لشذوذه، فضلا عن العقاب الاجتماعي المتمثل في التشهير به، وكلها عمليات يراد بها ضبط سلوكه الشاذ لتعديله، بحيث يتوافق و القيم الاجتماعية السائدة، التي كان يرفضها بحكم تصوره للعفة الجنسية؛ بوصفها رديف الحرمان الجنسي، و الحرمان من إشباع شذوذه الجنسي، هو رديف الألم. لذلك باتت زوجته تمثل الإحباط المزدوج؛ لكونها استنفذت طاقات جاذبيتها الجنسية، فأورثته الحرمان، فالعزوف عن ممارسة الجنس معها، مما جداه للبحث عن الإشباع الجنسي الشاذ، بحكم عجزه عن الاستمتاع بالإشباع الجنسي السوي، كما أن محاولة زوجته تعديل شذوذ زوجها الجنسي، يراد به الدفاع عن حقها الشرعي في المتعة الجنسية، و إشباع ميولها التملكية، و توكيد ذاتها، و أنوثتها، لأن زهد زوجها فيها؛ يسلبها الثقة في نفسها، و التقدير الاجتماعي؛ الذي يشملها به الآخرون، باعتبارها زوجة بكل ما تنطوي عليه التسمية من قداسة اجتماعية.

لذلك تستعين زوجة المعلم كرشه برموز السلطة الدينية؛ لتعديل سلوك زوجها الشاذ، حيث تشكو أمره إلى رضوان الحسيني؛ باعتباره الشخصية، التي تمثل أنساق القيم الدينية، لعل مكانته الروحية، تستطيع تعديل شذوذ زوجها، لكن خطابه الوعظي؛ لا ينجم عنه أي تأثير. وهكذا يخفق الرجل الذي يمثل الأنا الأعلى في تطويع غرائز زوجها النابعة من اللاشعور،لأن انحراف سلوك زوجها الجنسي كان من التجذر في بنائه النفسي، و تكوينه العضوي؛ بحيث جعل سلطة الضبط الاجتماعية عاجزة عن السيطرة عليه، و تعديله.

عندما تدرك الزوجة عقم الحوار، و الإقناع في تعديل سلوك زوجها الشاذ، يحملها الشعور بالإحباط على السلوك الانتقامي التدميري من غريمها "الشاذ جنسيا"، الذي كان يتردد على مقهى زوجها، حيث شهرت به مستخدمة أحد أساليب العقاب الاجتماعي المتمثل في تأليبها سلطة الرأي العام عليه، بحيث توقفه موقف الشعور بالعار، بحكم ما يترتب عنه من إحباط حاجته للتقدير

[1] **زقاق المدق** ، ص 82.

الاجتماعي، رديف انفضاض الآخرين عنه، و حرمانهم إياه من الاتصال الإنساني الفعـــال الكفيـل بإشباع حاجاته النفسية و المادية معا.

إذا كانت زوجة المعلم كرشة؛ قد أفلحت في إقصاء غريمها من مجال المنافسة، فقد أزاحـت موضوع الشذوذ؛ لكن النزعة النفسية الشاذة؛ ما عتمت كامنة في التكوين العضــوي، و النفسـي لشخصية زوجها، تترصد الفرص المتاحة لتحقيق الإشباع، مما جعل الدكتور بوشـــى يعلــق علــى انسحاب الفتى الشاذ قائلا لعباس الحلو:

"-أتظنه يعود إلى القهوة و قد حصل ما حصل؟

فمط الحلو بوزه و قال:

-إن لم يعد هو جاء غيره![1]"

يكشف هذا التعليق عن اتجاهات الرأي العام نحو شذوذ المعلم كرشه، باعتباره حالة مرضيـة غير قابلة للشفاء، فضلا عن عقم محاولات زوجته تعديل سلوكه؛ بحكم الإخفاق المتكرر، الذي آلـت إليه من قبل.

إضفاء القيم الدينية على الميول الجنسية

إذا كان المعلم كرشه قد انساق إلى الشذوذ الجنسي توكيدا لذاته، و هروبا من ملل الحيـاة الزوجية، فقد انساق سليم علوان إلى العمل السياسي، لكن تكاليفه المالية صرفتـه عنـه، و رفـض الاستجابة لنصيحة أحدهم بالتبرع ببعض المال لإحدى الجمعيات الخيرية للفوز بلقب البكويـة، لأن ميوله التقشفية عاقته عن تحقيق ذاته في السياسة، و لم يكن له هوايـة تسـتهويه، و تمتـص فراغـه الاجتماعي سوى سلوكه الجنسي مع زوجته، لذلك حاول تدعيم فعاليته الجنسية عن طريق الطـب الشعبي لتدارك الضعف الناجم عن التقدم في السن. و وجد في حميدة الأنثى، الـتي تسـتثير رغبتـه الجنسية الفاترة، لكن شعوره بالذنب تجاه زوجته، و تحرجه من موقف الآخرين، عاقه عـن الأقـدام على الزواج منها، لذلك غدت نفسيته ميدان صراع نفسي محتدم بين قيم المتعة الجنسـية المتشـحة بمسوح التعاليم الدينية التي تبيح التعدد، و بين قيم الصبر، و التجانس الاجتماعي مع محيطه، الـذي لا يتبنى تعدد الزوجات، على الرغم من إباحة الدين له، بحكم انخفاض المستوى الاقتصادي، أو سـيطرة النساء على الرجال، أو سيادة القيم الاجتماعية للأسرة النووية، التي تتنافى و قيم تعدد الزوجات.

---

[1] **زقاق المدق** ، ص 110.

لعل ما جعل سليم علوان يشعر بحاجته إلى الزواج من حميدة؛ تصوره لها باعتبارهـــا المثـــل الأنثوي الأعلى، الذي يستعيض به عن ذبول أنوثة زوجته من جراء تقدمها في السن، و فضلا عـــن ذلك، فلم يكن الجنس كل ما يتوق إليه فحسب، بل الإشباع العاطفي، الذي حرمته زوجتـــه منـــه، بحكم ارتباطاتها الأسرية، التي تستنفذ طاقتها العصبية، و وقتها. كما أنه دائم العكوف على أعمـــال وكالته التجارية، مما يجعل علاقته بزوجته رتيبة، يغرق من جرائها في ملل يهيئه نفسيا للانفجـــارات العاطفية كالوقوع في الحب، الذي هو بمثابة سلوك هروبي من ملل الحياة الزوجية، و الشعور باليـــأس الناجم عن التقدم في السن، لكنه يسقط هذا التصور السلبي على زوجته إسقاطا لا شعوريا، و هـــو يحاور ذاته: "لقد انتهت زوجتي كامرأة، و لست من الرجال الذين يتزلقون إلى الفسوق في مثل هـــذه السن، و لا داعي مطلقا للرضا بالعذاب و الغم. لقد يسر الله لنا فلماذا نعسر على أنفسنا؟! و هكـــذا انتهى إلى رأي لا عدول عنه، و أجمع على تحقيق رغبته" [1].

هكذا؛ لم يكن يرى في كهولة زوجته سوى كهولته، التي عزّ عليه الإقرار بها، بحكـــم مـــا يستتبع ذلك من فقدان الثقة بالذات، و بالفحولة الجنسية، و بالأمل في تجديد الحياة، لذلك عمـــد إلى إزاحة عيبه، و الصقه بزوجته تبريرا لزواجه من حميدة، لأن زوجته لم تكن فيها عيوب أخرى؛ تسوّغ له التعدد، و تلطف شعوره بالذنب في حقها، فضلا عن كون رغبتـــه في التعـــدد؛ تعـــزى لتوقـــه اللاشعوري لاستعادة مباهج الزواج الأولى، التي مضت بتقادم الزمن؛ تاركةً الجفاف، و الملل.

كما أن أنوثة حميدة، تنطوي على وعود بتحقيق إشباعات نفسية شتى، بحكم ما تثيره مـــن توقعات إيجابية، حيث توحي له بالشباب، الذي يخفف شعوره باليأس، و الدونية من جراء إيغالـــه في الكهولة. و توحي له بتجدد الطاقة الجنسية، التي يستشعر انخفاضها بفتور علاقته الجنسية بزوجتـــه، وتعده بتجديد إيقاع الحياة، التي أورثته رتابتها الشعور بالملل، و الانقباض النفسي.

هكذا يغدو التشريع الديني وسيلة تبرير لميوله النفسية الواعية، و اللاواعية،يسبغ مسحة دينيـــة على الأهداف الجنسية، و يخفف من شعوره بالذنب، وليد وعيه بالأضرار النفسية، و المادية المترتبـــة على هذا المشروع الاجتماعي، لأنه مجلبة لأعمق مشاعر الإخفاق، و الدونية، التي تصيب زوجتـــه، بسبب وجود ضرة، تصغرها سنا، و تفضلها جمالا، و تقاسمها ممتلكات زوجها، و ميراثـــه، و قـــد تقصيها عن مجال المنافسة تماما، فضلا عن سيادة جو نفسي مشـــحون بالغـــيرة، و الصـــراع، يعـــم الأسرتين معا، ويعرض أبناءه لصدمة حادة من جراء إشراكهم بورثة جدد مـــن صلبـــه، يقـــاسمونهم حصتهم من الميراث، ويخفضون من نسبتها.

---

[1] **زقاق المدق** ، ص 142 - 143.

ينساق سليم علوان في عنفوان ميله لحميدة إلى حدود الإخلال بالتقاليد الاجتماعية، التي تحرم خطبة المرأة المخطوبة، حيث أغرى أمها بالتبني بفسخ خطبة عباس الحلو، الذي كان مجندا في الجيش البريطاني.

هكذا يتبين لنا أن قيم المنفعة المادية، هي من أهم موجهات السلوك الأساسية، لا سيما و أن المرأتين؛ كانتا بحكم موقعهما الاجتماعي المتدني؛ بحاجة إلى الحماية الاجتماعية، التي لا يكفلها لهما عباس الحلو، لذلك تغدو الروابط القرابية غير المؤسسة على المصالح المادية قابلة للقطع. كما أن موافقة حميدة على الزواج من سليم علوان، تنم عن كونها، قد رأت فيه الموقع الاجتماعي، الذي تتوق إليه، ما دامت تعاني من انغلاق فضاء الحراك الاجتماعي، و من ثمة؛ فلم يكن اختيارها عباس الحلو في بادئ الأمر اعتباطيا، بل كان اختيارا في سياق بدائل كان هو أفضلها، و لما تعددت البدائل، بحيث ظهر من يفضله، تم العدول عنه؛ بحكم كون الاختيار الزواجي؛ هو خلاصة عدد كبير من الميول المتعارضة[1].

الميول السادية المازوخية

يستهوي حميدة الشاب الأنيق، الذي يتردد على مقهى الزقاق كل مساء، و تستشف بحدسها عمق انجذابه إليها، و توحي لها أناقته بانتمائه الطبقي، الذي أثار تطلعاتها الاجتماعية، و تزداد تعلقا به لكونه أشعرها بالدونية بتجاهله لها لدى محاولتها استمالتها، حتى استفز نزعتها العدوانية، حيث بدا لها أنه "يعبث بها عبث القوى بالضعيف .. أتنهض إلى قلة و تقذفه بها فتحطم رأسه و تروي غلة الحنق و الانتقام ؟!.. و استولى عليها شعور ممض بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل حتى لقد تساءلت في حيرة عما أصابها .. بيد أنها لم يكن تجهل ما كانت تريد.كانت تريد بلا شك أن يتبعها و أن يتعرض لها في الطريق .. ثم ماذا؟ ثم تقذفه بحمم الغضب و الحنق و الوعيد .. لماذا؟ تحديا لثقته بنفسه و زهوه و ابتسامته الواشية بالظفر .. هي ابتسامة الصراع و العراك! و أنها على مساجلتها لقادرة، لا بل أنها لم تخلق إلا لتتلقى هذه الابتسامة و مثيلاتها فتجيب عليها.كانت تأسى على فوات معركة طالما ترقبتها بلهفة و شغف"[2].

هكذا تتكشف بعض سمات علاقتها السادومازوخية بالرجل، الذي أبدى لها الإعجاب، حتى استمالها، و عندما تجاوبت معه؛ تجاهلها مستفزا نزعتها العدوانية الانتقامية، التي تعكس شعورها

---

(1) ERNIST DICHTER: **La stratégie du désir**, fayard, France , 1961, P 166.

(2) **زقاق المدق** : ص 173 - 174.

بالإحباط، لكونها توقعت إشباعا عاطفيا، و نرجسيا؛ لكنها تلقت صدودا؛ أصاب أناها النرجسي في الصميم، و شحنها تجاهله إياها برغبة في استمالته استردادا لثقتها بنفسها، و إشباعا لحرمانها العاطفي، و تطلعها الاجتماعي إلى الطبقة المترفة، التي ينتمي إليها، و يمثلها على حد سواء.فضلا عن كونها؛ وجدت في سلوكه ذي المسحة السادية إشباعا لميولها المازوخية .

يبدو أن ما عمّق تعلقها به مجانسته لتكوينها النفسي، حيث يظهر كل فرد في بدء العلاقة "جوانب متنوعة من شخصيته ملاحظا بدقة كيفية رد فعل الآخر اتجاهها. و ذلك في نفس الوقت، الذي يقيم فيه الملامح المتكررة لشخصية الآخر. و إذا كانت التجارب مقبولة من الطرفين، أو تبشر بالقبول، يستمر التفاعل، و إذا لم تكن كذلك تنقطع العلاقة" [1].

لذلك استشعرت حميدة أن سلوك هذا الرجل فيه خشونة، و رقة، ذكوريتان تشعرانها بأنوثتها، و تحققان لها ذاتها، كما أنها اعتبرت علاقتها به ميدان صراع نفسي لإحراز الغلبة على أناه السادى المتسلط لأنها " كانت في أعماقها تتحرق إلى أن تقيس قوتها بقوة هذا الرجل ذي الفحولة والجاه و الخيلاء، و هكذا تيقظت في عنف و شدة، و أنبثت في نفسها اللهفة و التمرد و العراك والشوق" [2]، لا سيما و أنها معروفة بنزوعها إلى العراك باستماتة مع بنات الجيران للتخفف من التوتر الانفعالي الذي تكابده بحكم طبعها الحاد، أو من جراء كونها لقيطة، مزعزعة الهوية، و الانتماء الأسرى.

أثر الإشباع العاطفي على السلوك الاستهلاكي

كانت أم حميدة بالتبني تشكو من غلاء إيجار بيتها، الذي تؤجره لها سنية عفيفي؛ الأرملة الوحيدة، لذلك عمدت لإغرائها بالزواج، و وعدتها تدبير زوج يصغرها سنا. و قد أحدث هذا السلوك -بحكم كونه واعدا بإشباع الحاجات النفسية الضرورية- أثرا إيجابيا؛ تمثل في إعفائها من دفع إيجار بيتها. و من ثمة؛ فما دامت أم حميدة تعد بإشباع حاجاتها إلى الحب، و الجنس، و الأمومة، والتقدير الاجتماعي، و الانتماء، فقد التزمت صاحبة البيت؛ بإشباع حاجات المستأجرة إلى الاستقرار المادي؛ رديف الأمن النفسي، و غدا تبادل المنافع من موجهات سلوك المرأتين، حيث فهمت أم حميدة حاجات سنية عفيفي، و وعدت بإشباعها، و بادلتها سنية عفيفي الفهم بفهم يماثله.

---

[1] وليم لامبرت و ولاس الأمبرت: **علم النفس الاجتماعي**، ط2، ترجمة سلوى الملا ، دار الشروق، مصر ، 1993، ص 161.

[2] **زقاق المدق**، ص 174.

طرأ هذا التغير على سلوك سنية عفيفي الاستهلاكي؛ على الرغم من صورها الاجتماعية السلبية؛ باعتبارها امرأة بخيلة، مما يوحي بعمق تأثير الحاجات النفسية على السلوك الاستهلاكي؛ بحكم كون حرصها على المكاسب المادية؛ مجرد تعويض عن الحرمان العاطفي، و الجنسي، حيث أفضى ظهور بوادر إشباع حرمانها النفسي إلى تراخي ميولها الاستهلاكية التقشفية.

عند اقتراب ميعاد إنجاز المشروع الاجتماعي، أدركت سنية عفيفي أن صورتها الجسمية؛ تعتورها بعض المعايب الواجب إصلاحها؛ لتكون في مستوى توقعات الآخر، و لذلك أرسلت في طلب الدكتور بوشي؛ لتركيب طاقم أسنان ذهبية، و استشارت أم حميدة في شيب سوالفها، فنصحتها بصبغتها. و شكت لها من نحافة جسدها، فوعدتها بتحضير أقراص كفيلة بتسمينها في وقت قصير. وهكذا تكلفها عمليات تجميل صورة جسدها مبالغ كبيرة، مما يدلل على عمق حاجتها النفسية لتحقيق تقبل الآخر لذاتها؛ لأنها لا تتقبل ذاتها إلا بتقبله لها؛ بحكم انعكاس علاقة الآخر بالذات على علاقة الشخص بذاته.

بدايات السلوك الانحرافي

مارس الرجل المترف سلوكا استقطابيا اتجاه حميدة؛ مما جعلها تنجذب إليه، و تنقاد إلى تحقيق رغباته؛ حيث استخدم أسلوب الغزل بمفاتن أنوثتها، ليعزز ثقتها بنفسها، و يكسب بالتالي ثقتها فيه. و من ثمة، فقد امتص نزعتها العدوانية، التي أثارها فيها بتجاهله لها في أول عهدهما بالتعارف ، وانتقل بعدئذ إلى أسلوب الإيحاء الإيجابي؛ بأنها جديرة بموقع اجتماعي أعلى مما هي فيه، عندما رأى صويحباتها خارجات من المشغل، الذي كانت تتوق إلى العمل فيه، و غذى طموحها الاجتماعي بقوله لها:

"-أهؤلاء صاحباتك؟ .. كلا، لا أنت منهن، و لا هن منك، و لكني أعجب كيف يتمتعن بحريتهن بينما أنت تقبعين في البيت. وكيف يرفلن في الثياب الزاهية، بينما تلتحفين أنت هذه الملاءة السوداء! و كيف حدث هذا يا مليحة؟ .. اهو الحظ؟ ...و لكن يالك من صابرة متجلدة ..و تورد وجهها، وخيّل إليها أنها تصغي إلى قلبها يتحدث، و قبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماسه و عاطفة.
واستدرك هو بثقة و يقين:
-هذا حسن خليق بالنجوم[1]".

---

[1] **زقاق المدق**، ص 199.

يزداد اقتناعها رسوخا بكونها لا تمت بصلة إلى المستوى الاجتماعي المتدني، الذي تنتمي إليه، و أن كلام الرجل، بمثابة شهادة إقرار بحقها في الانسلاخ عن الجذور الاجتماعية الهابطة. و فهمت إغراءاته باعتبارها رغبة في الزواج، مما حملها على مجاراته في شتى سلوكاته، لكونها وجدت فيه الرجل، الذي يشبع حاجاتها إلى الحب، و الزواج، و الأمومة، و الصعود الاجتماعي، بينما فهم الرجل سلوكها باعتباره دلالة على استعدادها الجبلي لممارسة البغاء، لا سيما و أنه رأى فيها الأنثى الواعدة بتحقيق المتعة الجنسية، و المكاسب المادية معا.

هكذا تتعلق حميدة بالرجل المترف؛ على الرغم من كونه؛ قد لمح لها أنه يمارس "القوادة" كشكل من أشكال الوساطة الجنسية، التي توفر الرفاه المادي. و لم تشعر بإهداره لكرامتها، بحكم عدم امتصاصها القيم الاجتماعية المقبولة خلال التنشئة الاجتماعية التي تلقتها؛ مما جعل حسها الأخلاقي فج التكوين. و لعل إشارته إلى "القوادة"؛ ينطوي على إيحاء لا شعوري؛ بإشباع إحدى رغباتها الشعورية، أو اللاشعورية بأن تكون الأنثى، التي تستقطب أكبر عدد ممكن من الرجال، الذين يتهافتون على جسدها؛ واهب المتعة الأيروسية، و يسبغون على حاجتها النرجسية أقصى إشباع ممكن؛ لأن قلب المرأة يميل إلى رجل واحد، و جسدها يميل إلى بعض الرجال؛ لكن نرجسيتها تتوق إلى كل الرجال [1] .

هكذا تجد نفسها بين موقفين: إما القبول بالدور الاجتماعي المعروض عليها؛ كمومس مقابل الرفاه المادي، أو رفضه بكل ما يترتب عن ذلك من حرمان، لا سيما و انه ليس لها بدائل اجتماعية سواه، فضلا عن وفرة عناصر الطرد في محيطها الأسرى، و الاجتماعي أكثر من عناصر الجذب، حيث لم يكن يشدها إليهما ارتباط عاطفي بوالديها؛ لكونها مجهولة الأبوين، فضلا عن توتر علاقتها بمربيتها، و جاراتها، أما علاقتها بخطيبها عباس الحلو، فقد كانت فاترة بحكم تقادم عهده بالهجرة دون أمل بالرجوع، و النجاح المادي. و فوق هذا كله؛ فقد كان للرجل المترف هالة جذابة استهوتها من الأعماق، و حدتها للانسلاخ عن ارتباطها الأسري مستبدلة إياه بارتباطها بالآخر المحبوب.

الصدمة النفسية

يصاب عباس الحلو بصدمة نفسية حادة؛ من جراء اختفاء حميدة؛ بحكم ما أورثه اختفاؤها من قلق الهجر، و الخوف على مصدر الحب، و الشعور بخيبة الأمل؛ بسبب اختلاف التوقع عن الواقع تماما، فضلا عن شعوره بالرفض من جراء إدراكه أنه غير جدير بصبر الانتظار، لا سيما و قد أصيب

---

(1) Pierre BURNEY: **L'amour** , Presses Universitaires de France 2[ème] Edition, Collection Que -sais- je ? 1977.

أناه النرجسي في الصميم من جراء الشائعات الرائجة حول اختفائها مع رجل مجهول، ممـــا أشـــعره بالخصاء الجنسي، لأن اختفاءها في ظروف أخرى، قد يهون بالقياس إلى اختفائها مع الآخـــر الغـــريم الغريب. و تزداد حالته النفسية سواء، عندما يحيطه الآخرون بالشفقة، و الرثاء؛ بحكم ما يضفيه عليـــه ذلك من عار، و دونية، و إخفاق .

هكذا تتغير حالته النفسية من مستوى الرثاء لحميدة، و التعاطف معها، و محاولة اســـتردادها، و الدفاع عنها؛ إلى مستوى الحقد عليها،و الانتقام منها، لأن علاقته بها ذات بعدين: فهي ذات بعـــد عاطفي بحكم حبه لها، و ذات بعد اجتماعي لأنها خطيبته، مما جعل العار الاجتماعي الذي لحق بهـــا يصيبه بحكم أثر السلوك الجنسي للمرأة على مكانة الرجل الاجتماعية سلبا، و إيجابا.

يكشف شعوره بالغيرة عن إدراكه طبيعة التهديد المحيط بمصدر الحب، لذلك يثـــور انفعـــال الغضب معبرا عن فقدان الشعور بالأمن، و يضيق مجال وعيه، بحيث يتركز في أضيق نطـــاق ممكـــن، وهو الخيانة، و وجوب الاقتصاص من المرأة المحبوبة الخائنة.

سراب الرفاه المادي

تحقق حميده الرفاه المادي بممارستها للبغاء، لكن رضاها عن نفسها لم يتحقق، لأن شـــعورها بالذنب؛ يحدوها إلى تعديل سلوكها المنحرف، و مسار حياتها، لكن الآخر المحبوب لم يدعم رغبتـــها، بل كان يعارضها، و يثبط همتها بإلحاح، بحجة كون الزواج عبئا لا طائل وراءه، لا سيما و أنه يعطـــل المشروع التجاري، الذي يمارسه بوصفه قوادا يخضع سلوكه الاجتماعي لجملة من القيم، و الأنمـــاط السلوكية، التي تختلف عما يتطلبه الدور الاجتماعي المطلوب منه آداؤه كزوج، و إذا كان هو راضيـــا عن نفسه، و دوره الاجتماعي، فمرد ذلك تبنيه قيم المتعة الحسية، و الثروة المادية، و الحرية الفرديـــة، بينما لم تكن حميدة راضية عن نفسها، و لا عن دورها الاجتماعي؛ لكونها اكتشفت إفـــلاس تلـــك القيم الاجتماعية، التي تحكم سلوكها كالمال، و المتعة الحسية، لأنها قيم فقدت جاذبيتـــها بمجـــرد أن أشبعت حاجتها إليها، حيث قد تكون القيم و الأهداف الاجتماعية البعيدة المنال جذابة؛ بحكم مـــا تثيره من توقعات إيجابية، لكن جاذبيتها ما تلبث أن تزول بمجرد تحققها في الواقع. و لذلك اكتشـفت عقم الإشباع المادي ما لم يقترن بإشباع حاجاتها النفسية للزواج، و الأمومة، والتقدير الاجتماعي.

لعل ما ضاعف شعورها بالاغتراب عن العمل الذي تمارسه طبيعة التغير النفسي الـــذي طـــرأ علـــى عشيقها في سلوكه اتجاهها، حيث صار يعاملها معاملة شيئية، و آلية، و نفعية، زرعت فيـــها بـــذور

الميول العدوانية الانتقامية، التي كانت كامنة في طوايا نفسها تداريها جاذبية الحب، و الجنس، و الرفاه المادي، التي تلاشت مفسحة المجال للسلوك الانتقامي.

تبرير الانحراف الجنسي

عندما يلتقي عباس الحلو بحميدة مصادفة؛ و هي في هيئة توحـــي بالدعــارة، و الســقوط الأخلاقي، يتوزعه شعوران متكافئا القوة، يجعلانه عاجزا عن الفعل، أولهما شعوره بالارتباط العـلطفي بها، و ثانيهما شعوره بالرغبة في الانتقام منها، لكن الشعور الإيجابي، يبطل فعالية الشعور الســلبي في موقف مشحون بشتى الانفعالات المتضاربة من شوق، و قلــق، و خــوف، و غضــب، و نقمــة، وشفقة.و تكون حميدة في ذلك الموقف نفسه فريسة القلق، و الخوف، و الذنب، و العار، مما يحــرك آلية دفاعها عن نفسها حين تدرك أن خطيبها الأسبق مازال مرتبطا بها، و تحاول تســخيره لتحقيــق أغراضها بحيث "تجعله أداة انتقامها و هي بمأمن من عوادى الشقاء"[1] لكونها بررت لـــه ســلوكها المنحرف؛ باعتباره نتيجة غواية رجل شرير غريب، استغل سذاجتها، و عفتها لجمع المال.و هكـــذا تنفي عن نفسها وصمة العار، و الإثم، و تلصقها بعشيقها لتسترد اعتبارها لذاتها اتجاهه، و تحثه علـــى الانتقام منه في الوقت نفسه، و تبذر في وجدانه بذور الإجرام، و تختمر الرغبة في القتل، التي كـــانت تستهدفها هي في حد ذاتها، و تنتقل من شخصها إلى شخص "قوادهـــا" باعتبـــاره صـــانع مأســاة السقوط، و الخصاء الجنسي، و العار الاجتماعي.

تتمثل أولى ملامح الاستعداد للسلوك الإجرامي في عكوفه على الخمر إلى درجة السكر، ممـــا يتمخض عنه الشعور الحاد بالغيرة لدى رؤيته لها في موقف مخل بالحياء بين جمع من الضباط الإنجلـــيز في الحانة، التي كانت تعمل فيها، و تنفجر ميوله الانتقامية التدميرية اتجاهها، لكن الضباط يجـــهزون عليه ضربا، و يغدو سلوكه الإجرامي؛ بمثابة رفض للقيم الاجتماعية، و الأنماط السلوكية؛ التي تتبناهـا خطيبته حميدة، حيث كان يسعى إلى القضاء على مصدر الحرمان، و الإحباط، و الدونية، و الخصـــاء على حد سواء.

صدمة الفطام المتعسف

يتألق "كمال رؤبة" في سياق رواية السراب؛ باعتباره الشخصية المركزية؛ التي تدور حولهـــا كل أحداث الرواية، و الأنا السادر لها، حيث يروى بلهجة اعترافية صريحة سيرته الذاتية منذ طفولتـــه

---

[1] **زقاق المدق** ، ص 270.

الأولى، حتى العقد الثالث من شبابه، إذ أن أول ذكرى تطفو على بؤرة ذاكرته، و تمثل منعرجا حاسما في تكوينه النفسي، هي ذكرى فطامه الأليم على يد أمه، لأنها لم تفطمه تدريجيا، بحيث تهيؤه نفسيا لتقبل غذاء آخر عدا لبها، بل فطمته فطاما مباشرا، و متعسفا، تمثل في دهنها حلمتي ثديها بالقطران الذي تأذى لمذاقه، و أورثه شعورا بالإحباط العاطفي؛ بحكم الوظيفة النفسية للرضاعة الطبيعية، لكونها توثق علاقة الرضيع العاطفية بأمه، و تزوده بالحنان، و الأمن النفسي، بينما الحرمان منها، أو الفطام المتعسف عنها، يورثانه القلق، و انعدام الثقة بالذات، و بالعالم الخارجي على حد سواء، فضلا عن المضاعفات السلبية الأخرى، المتمثلة في تنمية التمركز على الذات، و الحساسية المفرطة، والخجل، و الاكتئاب، مما يضعف قوة الأنا [1] .

أعراض عقدة أوديب

تتوفر بعض العوامل الكفيلة بتعميق علاقة الطفل كامل بأمه الطالق، تتمثل في كونه طفلها الوحيد، الذي كان تحت كفالتها، مما جعلها تسبغ عليه حنانها إشباعا لحرمانها العاطفي، و تخفيفا من شعورها بالإخفاق. و حملها شعورها بالاضطهاد على يد زوجها على تنمية ميول عدوانية حادة في ابنها -خلال مرحلة طفولته- ضد أبيه، مما جعله يشكل عنه صورة سلبية قاتمة، ازدادت سوءا بانعدام الاتصال الإنساني بينهما، فضلا عن مضاعفات العلاقة الأوديبية به، التي غذت كراهيته له؛ باعتباره عدوا؛ لا أبا .

تتمثل هذه العواطف في سياق سرده لهذه الحادثة، التي حصلت له في طور الطفولة "رأيتها ممسكة بصورة عرسها! و بادرت تحاول إرجاعها إلى مخبئها، و لكني أمسكت بها في عناد، و حملقت فيها بدهشة، فرأيت شابا جالسا، و أمي واقفة إلى كرسيه كالوردة الناضرة، و تعلقت عيناي بصورة الرجل، فأدركت أنه أبي، و إن كنت أراه لأول مرة، بل أراه بعد أن امتلأ الفؤاد له خوفا و كراهية، و ارتعشت يداي، و اتسعت عيناي انزعاجا ثم لم أدر إلا ويداي تمزقانها أربا،و مدت لي يداً تحاول استنقاذها و لكني تغلبت عليها في حنق وهياج، فلبثت صامتة و قد لاح في عينيها الصافيتين الحزن والأسف، و كأني لم أقنع بما فعلت، فتصديت لها غاضبا، و سألتها بلهجة تنم عن الاحتجاج، علام تأسفين؟ فبسطت أسارير وجهها بشيء من الجهد، و قالت يالك من طفل مشاكس! .. ألا تدري إني أسف على صورة شبابي لقد مزقت صورة أمك و أنت لا تدري!" [1].

---

[1] محمود عبد القادر محمد: **أساليب الرضاعة و الفطام الشائعة في الثقافة المصرية** "المجلة الاجتماعية القومية"، العدد 2، المجلد 5- مايو 1968، مصر" ص 148 - 149، 150.

[1] نجيب محفوظ: **السراب**، ط1، دار القلم، بيروت، 1971، ص 09.

هكذا ينفس الطفل كمال عن شحنات عدوانيته المكبوتة تجاه أبيه؛ الناجمة عن تأزم موقفه الأوديبي، بحيث يرمز تمزيقه لصورة أبيه إلى رغبته اللاشعورية في قتله، بحكم تعذر إشباع ميوله الإجرامية في الواقع، لا سيما و قد طالعه أبوه في الصورة مجالسا أمه، مما أشعره بمنافسته له في أمه، مصدر حبه، و أمنه النفسي، و انتمائه، و يبدو بالتالي رافضا بشعوره، و لا شعوره لعلاقة أمه بأبيه قبل ميلاده، و بعده على السواء. كما أن مشاهدة أمه لصورة زواجها، تنم عن حنينها اللاشعوري لعلاقتها الزوجية المنفصمة العرى؛ بحكم اقتران مشاهدتها للصورة؛ بتداعي الذكريات العاطفية، والجنسية "و آية ذلك أن الزوجة قد تجد نفسها مدفوعة إلى الحديث عن زوجها السابق، و بيتها القديم، و المناسبات المختلفة، التي مرت بها خلال حياتها الزوجية، و هذا الحديث نفسه -حتى إذا اقترن بالنقد، و الذم، أو اتخذ صورة عدائية- إنما يدلل على استمرار المطلقة في الاهتمام بزوجها السابق، على الرغم من الانحلال الشرعي لكل رابطة زوجية بينهما"[1].

لعل ذلك ما كان يحملها على معاودة مشاهدة صور زواجها؛ لكونها تشبع حاجاتها النفسية المكبوتة، لكنها استفزت في ابنها ميوله الأوديبية العدوانية، التي دفعته إلى تمزيقها، و إتلافها تدميرا لعلاقة أمه بأبيه، بينما كانت أمه تحرص على الاحتفاظ بها؛ باعتبارها تسرية و عزاء.

الإرهاب الأسري

في هذا الجو الأسري المختل الأسس، ينشأ الطفل كمال تنشئة اجتماعية؛ يكون فيها الأب غائبا؛ على الرغم من ضرورة حضوره في بناء شخصية الطفل، لا سيما و أن التقمص الجنسي لا يتحقق إلا بوجود الوالد المماثل في الجنس، الذي يقوم بإثابة السلوكات، و السمات المناسبة لجنسه، وعقابه على أنواع السمات غير المناسبة؛ حيث يميل الطفل في التشكيلة الأسرية العادية لمحاكاة سلوك أبيه مدفوعا بآلية التوحد النفسي به، بينما يفضي غيابه للتقمص الجنسي لأمه؛ بكل ما يترتب عن ذلك من اضطراب نمود النفسي و الاجتماعي [2]".

تحدوه الحاجة إلى توكيد الذات، و اكتشاف العالم المحيط به، و ممارسة اللعب مع أقرانه إلى الانفصال عن شخصية أمه الاحتوائية بحنانها، و رعايتها حسب اعترافه:

---

[1] مصطفى فهمي: **علم النفس**، ط2، مكتبة الخانجي، مصر ،1975.

[2] جون كونجر، و بول موسن: **سيكولوجية الطفولة و الشخصية**، ترجمة عبد العزيز سلامة، و جابر عبد الحميد جابر دار النهضة العربية، مصر ، ص 342.

"لا أستطيع أن أقول أني استكنت إلى تلك الحياة بلا تململ، و لعلى ضقت بها في أحـــــايين كثــيرة، وتطلعت إلى الحرية و الانطلاق، و لعل ضيقي ذاك مضي يزداد بتدرجي في مدارج النمو، و آي ذلك أنها أقبلت تخوفني أشياء لا حصر لها لتردني عما أتطلع إليه من حرية و انطـــلاق، و لتحتفـــظ بي في حضنها على الدوام. ملأت أذني بقصص العفاريت، و الأشـــباح، و الأرواح، و الجـــان، و القتلـــة، واللصوص حتى خلتني أسكن عالما حافلا بالشياطين، و الإرهاب كل ما به من كائنات خليق بـــالحذر و الخوف[2]".

يبدو أن خوفها عليه؛ حداها لشحنه بالخوف؛ بوصفه من المعوقات الانفعالية لدوافع سلوكه، بحيث تعطل نزوعه التلقائي، و تخضعه لإرادتها، لذلك اتخذت الإرهاب التربوي وسيلة تشكيل لصورة العالم الخارجي المحيط بالطفل؛ باعتباره عالما معاديا له، مما يزرع فيه الخوف، و الحذر من الآخريـــــن بحكم توقعه الشعوري، و اللاشعوري لعدوانهم عليه، و لا يشعر بالأمن النفسي إلا في ظل حماية أمه.

و لعل إرهابها لابنها؛ كان بمثابة عملية إعادة إنتاج القيم التربوية، التي تلقتها هـــي بدورهـــا خلال طفولتها، و قوامها التخويف من بطش الكائنات الأسطورية؛ مـــن أجـــل تطويـــع الإرادة، و السيطرة على السلوك أيضا.

لعل حرصها على استبقائه قربها؛ مرده القلق النفسي، الذي تكابده في وحدتها مـــن جـــراء طلاقها، الذي يورثها الوساوس، و الهواجس، و لذلك؛ فهي تستمد من وجود ابنها قربها بعض الثقـــة بالنفس، و يلطف مشاعرها السلبية، و يمتص فراغها الاجتماعي، لأنه ليس لها وسيلة تجزي بها أوقـــات الفراغ، سوى ابنها، الذي يجسد تحقيق الذات، و الأمومة، لا سيما و أن انفرادها بنفســـها في بيـــت واسع يغمرها بالسأم، و يفرض عليها مواجهة ماضيها التعيس؛ إما باستعادتها له، أو بعودته إليها.

كما أن حاجته النفسية للعب، قد تعرضت إلى الكبت، و الإحباط؛ على الرغم من إســـهام اللعب في نمو الشخصية، و غرس الثقة بالذات، و بالآخرين أيضا، فضلا عن أهميته في إعداد الفـــرد لممارسة الأدوار الاجتماعية، التي تتطلبها شتى مراحل حياته. و كانت حاجته النفســـية للاتصـــال بأقرانه تحدوه للمطالبة بالخروج من البيت، لكن أمه عاقته عن إشباعها، هكذا تمارس أمه دورا سـلبيا، يتمثل في كونها عاقت مطالب نموه النفسي السوي، و كبتت دوافعه الحيويـــة، و أثـــابت الســـلوك الاتكالي، و قمعت السلوك الاستقلالي، و أسرفت في تقييد حاجته لتحقيق ذاته، حيث كانت تنتقـــي له أحد أطفال الجيران ليشاركه ألعابه " تحت سمعها و بصرها"، و من ثمة؛ فقد عاقته عـــن تأســـيس

---

[2] **السراب** ، ص 16.

علاقات صداقة مع أقرانه؛ على الرغم من أهميتها النفسية في التنشئة الاجتماعية؛ بحكم ما تزوده بـــه من معارف، و مهارات لكن سلوك أمه السلبي، عاق أهم الفعاليات النفسية، التي تفضي إلى النمـــو النفسي، و العقلي، و الاجتماعي، مما حداه للانسحاب عن أقرانه، و الانطواء على نفســـه، و يدلـــل موقفه عن عمق معاناته من أزمة سوء التكيف النفسي، و الاجتماعي مع محيطه الخارجي.

سوء التكيف المدرسي

تبدو عليه مظاهر سوء التكيف المدرسي المتمثلة في نفوره من الجو المدرسي؛ بكل عنـــاصره المشكلة له؛ شأن الناظر، و المعلمين، و التلاميذ، و غرف الدرس، و نظـــام الدخـــول، و الجلـــوس، والخروج، و طرق التدريس، و مقررات التعليم عموما، و لعل ما نمى سوء التكيف المدرسي؛ تعلقـــه المفرط بأمه، مما جعل انفصاله عنها؛ أثناء حصص الدوام المدرسي أمرا لا يطاق، فضلا عـــن كـــون العلاقات الإنسانية في المدرسة سطحية، و آلية، و تعاقدية، وليست عاطفية إلا في أضيق الحدود. كما أن اختلاف موقعه في بنية العلاقة الأسرية عن موقعه في بنية العلاقة المدرسية، هو مرادف لاختـــلاف دوره الاجتماعي في كلتا الجماعتين، حيث يكون في الأسرة قطبا، و موضوعا للحنان، و الحمايـــة، بينما هو مجرد تلميذ مغمور؛ بين حشد من التلاميذ في المدرسة، يخضع مثلـــهم للســلطة التربويـــة الصارمة.

كما تكشف انفعالات الوحشة، و الخوف، و الجزع، التي راودته و هو في المحيط المدرســـي عن أزمة التكيف المدرسي، المتمثلة في عجزه عن هدم الأنماط السلوكية، التي يمارســـها في الأســـرة، واستبدالها بأنماط سلوكية؛ توائم محيطه المدرسي، مما جعله يصاب "برهاب المدرسة"؛ لذلك بات ينظر إلى المدرسة، باعتبارها مؤسسة اجتماعية؛ تهدد إشباعه العاطفي، و أمنه النفسي المستمدين من ارتباطه الحميم بأمه، فضلا عن رواسب الإرهاب التربوي، التي زرعتها أمه فيه، حيث زودته بقيم الخوف من الآخرين، و سوء الظن في نواياهم، و توقع عدوانهم اللفظي و العضلي، و من ثمة؛ فقد أسقط مخاوفـــه المرضية من اللعب، و الأطفال، و الشارع على المؤسسة المدرسية بكل عناصرها المشكلة لهـــا، مـــن زملاء، ومعلمين، حيث بات يرى في المعلم صورة أبيه السلبية البغيضة، و يعـــامل زمـــلاءه بحـــذر، وخوف جعلهم يسخرون منه، و ينبذونه أيضا.

رفض الأم للزواج

يبدو أن رفض أم كمال الزواج بالضابط، الذي طلب يدها من أبيها، كان ثمرة فجة لتجربـــة قوامها الكبت، و القمع، و الاضطهاد، و من ثمة، فهي برفضها الزواج؛ تتجنـــب تكـــرار التجربـــة

السلبية، حيث يزداد الإقبال على الزواج؛ بقدر ازدياد التوقعات الإيجابية، المتمثلة في تحقيق الإشباع العاطفي والجنسي، و الاستقرار الاجتماعي. ولعل عمق ارتباطها بابنها؛ حال دون إقدامها على الزواج، بحكم ما يترتب عنه من فراق ابنها، و لذلك وقفت بين دورين اجتماعيين؛ كان عليها المفاضلة بينهما، إما أن تمارس دور الزوجة، أو دور الأم؛ بحكم تعذر الجمع بينهما، لكن قوة غريزة الأمومة؛ طغت على الحاجات النفسية، و الاجتماعية، التي يشبعها الزواج، و قد يكون طول عهدها بالطلاق، جعلها تتكيف و أنماط سلوكية قوامها الفردية، و العزلة، و الحرية، مما زهدها في الزواج، بحكم ما يقتضيه من إعادة التكيف؛ بكل ما يترتب عنها من عمليات هدم، و بناء في أنساقها القيمية، و أنماطها السلوكية.

عندما يستعين جده به لإقناع أمه بالزواج؛ يتلقى الخبر بحالة نفسية أقرب إلى الشعور بالصدمة يصفها قائلا:" شلت عبارة" يتزوج من أمك" مسامعي و انفجرت في دماغي، و اتسعت عيناي دهشة ورعبا و تقززا، و تساءلت :هل يعني جدي ما يقول حقا؟ ...أجل لقد روت أمي لي قصة زواجها، و لكن كان ذلك قصة و تاريخا بعيدا، و لم أتصوره حقيقة واقعة أبدا، و ذكرت لتوي الخادمة المطرودة فغاص قلبي في صدري، و قلت لجدي و أنا ألهث. أمي لا تتزوج.."[1]

هكذا يمنعه تعلقه الأوديبي بأمه من قبول زواجها، باعتباره مدعاة للمنافسة، التي تدني موقعه في العلاقة الزوجية الثنائية، كما يكشف رفضه عمق شعوره بالغيرة من الشخص، الذي يحل محله، ويستقطب حب أمه، و عنايتها، بينما يتعرض هو للحرمان، و النبذ، لأن "الغيرة في معظم الحالات عبارة عن استجابة سوية لفقدان الحب فقدانا واقعيا، أو فقدانا مفترضا، أو فقدانا يهدد به الطفل"[2]. كما أن صورة أبيه السلبية في وعيه، ولا وعيه؛ هي التي جعلته يستفظع زواج أمه؛ باعتباره تعذيبا قاسيا لها.

الاستطلاع الجنسي

تظهر عليه بعض مظاهر الاستطلاع الجنسي؛ لدى علمه بهروب أخته الكبرى من بيت أبيه، وزواجها، و حملها دون علم أبيها، و لا موافقته، لكن أمه لا ترضى فضوله المتمثل في إلحاحه عليها أن تشرح له معنى الزواج، و الإنجاب. و ليس فضوله مقتصرا على الجنس وحده، بل لا يعدو الجنس

---

[1] **السراب** ، ص 38 - 39.

[2] كونجر، جون، و موسن، بول : **سيكولوجية الطفولة و الشخصية** ، ص 404.

كونه موضوعا من الموضوعات الكثيرة، التي تستهوي الطفل؛ بحكم نزوعه للتعرف على جسده، وعلى العالم المحيط به، و ما استغراقه في الاهتمام بالجنس إلا بسبب المحظورات المحيطة به[1].

كما زاده موقف أمه المحفوف بالغموض، و الترهيب قلقا، وحيرة؛ بحكم ما يحيط الجنس من طابع الحرام، لكونه من الأمور المسكوت عنها، المنهي عن تناولها بين الطفل و والدته، لكن رغبة الطفل في المعرفة تتضاعف، فتضخم الجنس كموضوع معرفي، و سلوك غريزي.

أثارت أسئلة الطفل الجنسية الخادم الدميمة الشكل، و ألهبت خيالها، لا سيما و أنها كانت في مطلع سن المراهقة، مما جعلها تستدرج الطفل لممارسة الجنس معه بغية إيضاحه له، و إشباع حاجتها الحيوية للمتعة الجنسية، و أفضى ذلك لاستمتاعه، هو نفسه بهذه التجربة، التي ما لبثت أن انقطعت بضبط الأم لهما متلبسين بالسلوك الجنسي المشبوه، و عاقبت الخادم بطردها من البيت إقصاء للقيم الجنسية المنحرفة المتجسدة في سلوكها، فضلا عن غيرتها الشعورية، أو اللاشعورية منها، لكون الأم محرومة من المتعة الجنسية بحكم طلاقها، و من ثمة؛ فاستمتاع خادمها يذكي فيها الشعور بالحرمان الجنسي. كما أن تصورها لذات ابنها المثالية المنزهة عن الجنس، يجعلها ترفض تلوث ابنها بخطيئة الجنس، و يحملها على اتخاذ أسلوب عقابي نحوه؛ يقمع ميوله الجنسية، بحيث تمحو الإدانة الأخلاقية الصارمة متعة اللذة الجنسية، و تشعره بعقدة الذنب، التي تكبت دوافعه، و تدفعه إلى تبني قيم العفة الجنسية التي ترمز إلى تصعيده لميوله الجنسية، نحو الأم في تعلق عاطفي، يكرس تبعيته لها، و يحول دون ارتباطه العاطفي، و الجنسي بامرأة أخرى.

ممارسة السلوك الاستمنائي

يكون اكتشافه للاستمناء مصادفة، و تحدوه المتعة الناجمة عنه لممارسته بإسراف؛ على الرغم؛ مما يترتب عنه من شعور بالذنب، يحمله على تكراره لتخفيف آثاره النفسية السلبية. و يعد السلوك الاستمنائي؛ فعالية جنسية، قوامها الإشباع الذاتي، المستمد من مداعبة الأعضاء التناسلية، و تخيل صور الأجساد الأنثوية في أوضاع مثيرة للشبق، لذلك كان خياله الجنسي يستدعي صور النساء الدميمات الشكل؛ لكونهن يلهبن ميوله الجنسية أكثر من النساء الجميلات؛ بحكم ارتباط الإثارة الجنسية في عقله الباطن بالخادمة الزنجية الدميمة؛ لأنها أول أنثى اكتشف معها عالم المتعة الجنسية، ويبدو أن ما جعله يداوم على هذا السلوك الجنسي شعوره بالارتياب في ذكورته، حيث أن المراهق

---

[1] كونجر، جون، و موسن، بول : **سيكولوجية الطفولة و الشخصية** ، ص 357.

كلما راوده الشك في قدرته، و كفاءته في مجال بعينه مال إلى تحقيق ذاته فيه[1]. و فضلا عن ذلك؛ فقد اتخذ من الاستمناء متنفسا لتوتره النفسي الناجم عن إخفاقه الدراسي المصحوب غالبا بتوبيخ جدّه، كما أن العوائق الاجتماعية؛ تحول دون تحقيق المراهق استقلاله، و التبكير بالزواج ليخفف من أزمة حرمانه العاطفي و الجنسي، مما يجعل السلوك الاستمنائي نمطا تقليديا شائعا من أنماط الإشباع الجنسي المنحرف .

المراهق الانطوائي المنسحب

ظهرت آثار تنشئته الاجتماعية خلال المراهقة، باعتبارها امتدادا نفسيا، و تربويا لمرحلة الطفولة، و بدت انطوائيته؛ بمثابة صدى للتربية، التي زودته بها أمه، التي كانت تثيب سلوكه المنطوي، وتعاقب سلوكه الاجتماعي؛ بحيث عززت ميول الانسحاب عن الآخرين، لا ميول الانفتاح عليهم، مما جعل سمات شخصيته غير جذابة للآخرين؛ لكونه عبوسا، صموتا، بينما عواطف الناس لا تستقطبها إلا لباقة الحديث، و بشاشة الوجه.

لا تخلو شخصيته من مشاعر النرجسية؛ على الرغم من غلبة الشعور بالدونية عليه، و يتمثل ذلك في كونه؛ لا يرى عجزه عن عقد العلاقات الإنسانية عيبا، بل هو موقف من الآخرين؛ باعتبارهم ليسوا جديرين بصداقته، و يجعله تصوره النرجسي؛ يضفي على ذاته محاسن ليست فيها، ويحمله على المباهاة بعيوبه، التي يراها محاسن جديرة بالفخر، و هكذا لم يعد التردد و الحذر، والإخفاق المدرسي عيوبا، بل غدت بفضل آلية التبرير اللاشعورية بمثابة محاسن. و يغدو التبرير وسيلة تخفيف من التوتر النفسي، وليد سوء التكيف، تمكنه من تقبل ذاته؛ بكل نقائصها، و التكيف مع واقعه الاجتماعي، بكل تحدياته.

صورة الآخر المحبوب

تتجسد في الصورة الجسدية للمرأة المحبوبة بعض ملامح صورة الأم كنحافة القد، و طول القامة، و بياض البشرة؛ مما ينم عن كون تعلقه العاطفي، كان بمثابة تحويل لا شعوري لعواطفه المثبتة على أمه، و تم إحلال المرأة المحبوبة محلها، و ما دام الارتباط الجنسي بالأم، لا تجيزه القيم الاجتماعية للأنا الأعلى، فضلا عن التهديد بالخصاء الجنسي، الذي يمارسه الأب،فالحل الأنسب هو التخلص من الخبرات اللاشعورية بكبتها في العقل الباطن، و تحويلها إلى أنماط سلوكية مقبولة؛ شأن الزواج بامرأة

---

[1] مالك سليمان مخول : **علم النفس الطفولة و المراهقة**،ط2، المطبعة الجديدة ، 1986، ص 309 – 310.

هي بديل الأم،و تحمل بعض سماتها الجسمية، و النفسية ، لتحل محلها، و تؤدي دورهـــا المتمثـــل في تحقيق الإشباع العاطفي و الجنسي.

لعل عجزه عن الاتصال الإنساني الفعال بالآخر المحبوب؛ مرده جملة متشابكة من العوامـــل، يتمثل أولها في طبيعة شخصيته الانطوائية المتسمة بالخجل و الحذر، و انعدام الثقة بالذات، و الآخريـن على السواء، و يشحنه عجزه عن الاتصال بها بالتوتر و القلق، فيعمد عقله الباطن للتخفيف من أثـــره عن طريق الاستغراق في أحلام اليقظة، حيث يرى نفسه؛ و قد تحرر من سمات شـــخصيته الســـلبية العاجزة، و تقمص شخصية إيجابية، تتبنى قيم الثقة بالنفس، و الجرأة، و التحدي، مما يمكنـــه ـعـــن طريق الأحلام- من مطاردتها، و مكاشفتها بعواطفه، و هكذا تغدو علاقته بالآخر المحبـــوب علاقـــة حلمية، تتغذى بالخيال؛ بحكم تعذر تأسيس علاقة إنسانية واقعية.

سوء التكيف في المحيط الجامعي

يظهر سوء تكيفه الدراسي في كلية الحقوق؛ باعتباره امتدادا لسوء توافقه الدراسي في شـــتى مراحل التعليم، التي تعثر في قطعها. و يتمثل ذلك في التعويق النفسي، الذي منعه من مواجهة زملائـــه في قاعة المحاضرات؛ لإلقاء المرافعة في جو دراسي مشحون بالتحدي، وتوكيد الذات، لاسيما و أنـــه مصاب بخوف مرضي من مواجهة الحشود بسبب أخطاء التربية المقصودة، التي زودته بتصور ســـلبي عن الآخرين؛ باعتبارهم أشراراً عدوانيين، وبتصور سلبي عن ذاته، باعتباره عاجزا، وضعيفا. وانقطـع عن دراسته الجامعية مخافة تكرار التجربة المخفقة، وتولدت لديه ثنائية وجدانية، جعلته يـــرى نفســـه بصورة الضحية الجديرة بالعطف حينا، وبصورة المخفق المستحق للسخط حنيا آخر، مما ينـــم عـــن اضطراب مزاجه النفسي، رديف اضطراب تصوره لذاته.

الإحساس بالإخفاق المهني

يمثل انتقاله من المحيط الدراسي إلى المحيط المهني تجربة انفعالية حادة، بحكم ما يقتضيـــه مـــن تكيف نفسي، واجتماعي في ذاته، وعلاقاته الأسرية و المهنية، فضلا عن تعرض توقعاتـــه الإيجابيـــة للخيبة بشأن متعة العمل، و التحرر من قيود الدراسة، والاستمتاع بالاستقلال الاقتصادي؛ كمـــا أن عدم تأهيله المهني للعمل الإداري؛ كان مدعاة للقلق، حيث استقبل وظيفته استقبالا ســـلبيا؛ لكونهـــا محكا لمؤهلاته العلمية المحدودة، وشعر بعدم الرضا عن عمله، رديف عدم الرضا عن نفسه. و اســـتغل زملاؤه في الإدارة سذاجته، وخجله لتكليفه بإنجاز أعمالهم، مما استنزف طاقته العصبيـــة، واضعـــف

قدرته على التركيز، والانتباه ،والتذكر، وأوقعه بالتالي في أخطاء مهنية متكررة؛ نجمت عن ضعف كفاءته المهنية، أو هي مجرد سلوك انتقامي مقنع من زملائه؛ بحكم عجزه عن الانتقام المباشر منهم.

علاقة السلوك الديني بعقدة الشعور بالذنب

يبدو سلوكه الديني المتمثل في الصلاة، بمثابة تنفيس عن شعوره بالذنب من جراء إدمانه على السلوك الإستمنائي في لحظات ارتخاء سلطة الأنا الأعلى، تعقبها فترات إجهاد نفسي بعد تحرره من توتر الدوافع الغريزية، التي تكون متبوعة باشتداد فعالية الأنا الأعلى و ارتخاء الفعالية الليبيدية، مما يوقظ مشاعر الذنب، التي تدفعه إلى ممارسة السلوك الديني، لتلطيف آثاره السلبية. ولعل تأزم علاقته بالآخر المحبوب، وعجزه عن تطوير العلاقة من مستوى الإتصال البصري إلى مستوى الإتصال الإنساني الفعال، جعله يتخذ السلوك الديني قناة تنفيس عن كبته العاطفي، ووسيلة استقواء في مواقف الضعف؛ لعل القوى الغيبية؛ تمده بحل سحري مادام الحل الواقعي متعسرا عليه.

كما أن شعوره بالملل، و الرتابة في حياته اليومية، و المهنية من العوامل، التي غذت ميوله العاطفية نحو الآخر المحبوب، وميوله الجنسية المنحرفة، وميوله الدينية أيضا، فضلا عن كونه لا يملك مجالا اجتماعيا يحقق فيه ذاته، بحكم إخفاقه الدراسي، و المهني، وعجزه عن الإتصال بالآخر المحبوب، وعن عقد العلاقات بالأقران، مما جعل من السلوك الإستنمائي صمام أمن يخفف من توتره النفسي العميق الجذور.

ملامح العقدة الأوديبية

تزداد ملامح عقدة أوديب ظهورا في علاقته الثنائية بأمه، وحبيبته معا، حيث كلما تملى مفاتن المرأة المحبوبة، تخيل طيف أمه، وكلما كان مع أمه شعر بالخوف من طيف حبيبته، مما يكشف عن الأثر السلبي للعلاقة الأوديبية، التي تجعل الفرد مرتبطا عاطفيا بأمه، بحيث لا يقوي على فك ارتباطه الأولى بها، وإذا مال لامرأة؛ شعر بشيء من الذنب من جراء ذلك، بحكم شعوره بأنه يخون حبه لأمه، لا سيما وأنها غذت هذا الشعور المرضي؛ بمواقفها السلبية اتجاه عروض الزواج، التي تلقاها تلميحا، أو تصريحا . و تمثل ذلك في اعترافه قائلا:" أخذت أتمرد عليها، و إن لبث تمردي نارا مكنونة لا يتطاير لها شرر. و نشأ ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرها بزواجي عاجلا أو آجلا. و قد لمست بنفسي حين حدثتها خالتي -في إحدى زياراتها الموسمية- عن رغبتها في زواجي من ابنتها التي صارت شابة ناضجة فرأيت كيف تلقت الإقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن تحافظ على ما ينبغي المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من مودة أو مجاملة فغادرتنا خالتي مغضبة. و لمسته مرة أخرى

حين اقترحت عليها امرأة دلالة -كانت تزورنا في مواسم الكساء- أن تخطب لي عروسا لائقة. فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى انعقد لسان المرأة دهشة و ارتباكا" (1).

تجنح مواقف أمه إلى تكريس اتجاه النفور من الزواج، حتى لا يقوى ابنها على فك ارتباطه العاطفي بها، و استبدالها بغيرها، لكونها ترى في زواجه إهمالا لها، بينما هي أحوج ما تكون إلى حبه، و رعايته بحكم قيام علاقتهما على أساس تبادلي، يتمثل في حبها له، و تلقيها لحبه، و عنايتها به، وتلقيها لعنايته على حد سواء. و لعل ما زادها تعلقا بعزوبة ابنها طبيعة شخصيتها الاحتوائية التسلطية، التي تحاول بشتى الأشكال التأثير في سلوك ابنها، باستخدام الإغراءات المختلفة كالنصائح، و الهدايا، و المديح، و من ثمة يتضح أنها تسعى إلى إشباع حاجاتها النفسية من خلال ربط ابنها بها بإحكامها رباط التبعية النفسية، و الاجتماعية، لكونها لا مجال لها تحقق فيه ذاتها سوى مجال أمومتها.

يترتب عن هذه التنشئة الاجتماعية شعوره بالتمزق النفسي بين الرغبة في الزواج، و الحرص على العزوبة، بحكم ما في هذين النمطين من الحياة من أوجه إيجابية و سلبية. و لعل تذرعه بالخوف من المسئولية، و الحرص على الحرية، و العزلة، يكشف عن صعوبات التكيف النفسي المتوقعة، وعن الشك في القدرة الجنسية بحكم انعدام الخبرة، و المعلومات الخاطئة عن الجنس و المرأة، و نوع خبرات الطفولة، التي عاشها في أسرة مفككة بالطلاق، لا سيما أن علاقة الأبوين؛ هي القدوة، التي تؤثر من الوجهة الشعورية، و اللاشعورية على الأنماط السلوكية، التي يسلكها الفرد في مستقبل حياته الزوجية، كما أن عمق ارتباطه الأوديبي بأمه؛ كان من أسباب صراع الأقدام، و الأحجام، الذي جعله يتردد طويلا؛ بحكم كون الزواج، هو عملية فك للارتباط العاطفي بالأم.

العجز الجنسي في الزواج

تمر إجراءات زواجه ببعض العوائق المتمثلة في الاتصال بالآخر المحبوب لإقناعه بالقبول، وإقناع أمه بوجوب الموافقة، فالأعداد المادي، و الاجتماعي للزفاف، وتأتي بعدئذ التجربة الجنسية المحفوفة بسوء التكيف الجنسي، التي يرويها الأنا السارد قائلا:"نظرت صوبها في حياء فوجدتها بمجلسها السابق، و قد التفت في روب من الحرير الأبيض، و أدارت المقعد مستقبلة به الحجرة، وعدت إلى موقفي مرتفقا حافة الفراش، رانيا إليها في غبطة و هيام، و كلما رفعت إليّ عينيها غضضت بصري في حياء، انتهينا من تغيير ملابسنا، و لكن ليس هذا كل شيء! بدت الليلة و كأن

(1) **السراب** ، ص 79 - 80.

لا نهاية لمشاكلها ... بيد أن قلبي يرغب أن يضمها إليه، فماذا يغلي؟ إن هي إلا خطوة أقطعها، فهل تكلف خطوة واحدة كل هذا العناء؟ كان قلبي متلهفا متعطشا، و كان خجلي حارا محيرا، أما جسمي فكان ميتا لا حراك به! أأظل هكذا أبدا؟ لماذا لا أداري موتى بالحديث؟ و لكن ما عسى أن أقول! لقد عقد الاضطراب لساني، و كل دقيقة تمر تتركني أشد ضعفا و اضطرابا .. و على حين بغتة انحرف ذهني إلى حجرة أمي دون داع، و تساءلت :ترى هل نامت؟ هل تتخيل ما أفعل الآن، وتضاعف اضطرام الخجل بنفسي، و شعرت بما يشبه الاختناق" [1].

يبدو أن موقفه النفسي من عروسه؛ قوامه الرغبة، و عدم القدرة، حيث كان يشتهي وصالها الجنسي، لكن عنته عاقته عن ذلك بحكم توفر الدافعية النفسية، و انعدام الفعالية الفيزيولوجية. و لعل التربية الجنسية، التي زودته أمه بها؛ هي التي جعلته كذلك، و تتمثل في موقفها السلبي من استطلاعه الجنسي أثناء الطفولة، فضلا عن إدانتها الأخلاقية له، عندما ضبطته مع الخادم خلال مداعباتها الجنسية له، مما غذى فيه الشعور بالذنب، الذي عطل فعاليته الجنسية، بحكم الأثر السلبي لهذه الاتجاهات المحطمة للتوافق الجنسي، لا سيما "إذا كان الآباء و الأمهات، قد أفهموا الطفل بأن العلاقة بالجنس الآخر حرام (دينيا) أو عيب (خلقيا) أو قذارة أو قلة أدب .. أو غير ذلك -فضلا عن أن يعاقبوهم بقسوة وتعقيد حين يروهم - فسيكون هذا نمط توافقهم الجنسي حين يكبرون، و يصاب الشاب أو الفتاة بالعجز أو البرود[2]"، بحكم ممارسة خبرات الطفولة لتأثيرها اللاشعوري في مراحل العمر كلها.

كما أن للصراع الأوديبي دوره في العجز الجنسي؛ لأنه يجعله يشعر لدى ممارسته للجنس مع زوجته؛ كأنما هو يعاشر أمه، و يرتكب معها إثما؛ مما يصيبه بالقلق، و يعطل فعالية سلوكه الجنسي على نحو هستيري، و يتمثل ذلك من خلال تفكيره في أمه في ليلة الزفاف، مما ينم عن سلبية الارتباط الأوديبي، و تعويقه للسلوك الجنسي السوي.

قد ترتب عن تصوره المثالي لعروسه أن فتر ميله الجنسي إليها، بوصفها بدت له المثل الأنثوي الأعلى المتسامى فوق نداء الغريزة، حيث رأى فيها ذاته المثالية، مما ألهب عواطفه نحوها، و أطفأ حرارة الميول الجنسية، فضلا عن انعدام تجربته الجنسية، و حال ذلك دون قيامه بدوره الجنسي، لا سيما؛ وقد خبر الجنس عن طريق السلوك الاستمنائي، بوصفه إشباعا ذاتيا؛ لا يحتاج فيه إلى مشاركة الآخر المحبوب، وتكرست في شخصيته آلية الإشباع الذاتي عن طريق العادة المكتسبة بالتكرار، مما حال دون قدرته على إقامة علاقة جنسية سوية بزوجته.

---

[1] **السراب**، ص 157.

[2] كمال دسوقي : **علم النفس و دراسة التوافق**، دار النهضة العربية، بيروت، ص 369 - 370.

يعاود كمال محاولة الاتصال الجنسي، لكن عجزه الجنسي يلازمه، لا سيما و قد باشر العملية الجنسية، و ملء وجدانه الشعور بالإخفاق، مما أجهز على فعاليته الجنسية، و انتهت المحاولة المخفقة بالشعور، الذي بدأت به؛ بحكم أثر تصور الفرد لذاته على سلوكه الجنسي، إذ كلما كانت صورته عن نفسه، و قدراته إيجابية، انعكس ذلك على سلوكه.

كما أن قلق عروسه خلال محاولاته الجنسية، ينم عن خوفها من الألم المصاحب لعملية الإيلاج، و فض غشاء البكارة، و عن شعورها بالإحباط المترتب عن عجزه عن إشباع حاجتها الجنسية، التي تشعرها بالأنوثة، و تحقق لها ذاتها، اتجاه نفسها، و اتجاه الآخرين على السواء. لذلك كان انسحابها عنه، و عدم مجاراتها له في محاولاته الجنسية العقيمة دلالة على عدم ثقتها في فحولته الجنسية، و في جاذبية أنوثتها. و من ثمة؛ فمجاراتها له تعمق مشاعرها السلبية، و تطيل أمدها، بينما يكون انسحابها بمثابة سلوك انتقامي مقنع من الزوج العاجز لكونه حرمها من إشباع حاجاتها النفسية إلى الحب، و الجنس، و الأمن، و التقدير بسبب عجزه الجنسي، الذي أفرغ العلاقة الزوجية من محتواها النفسي، و الإنساني الكفيل بدوامها، و جعلها مهددة بالانحلال. و يكون انسحابها بالتالي عملية خصاء جنسي تكرس شعوره الممض بالعجز، و يعيش الزوجان الإحباط، و الإخفاق نفسه، على الرغم من اختلاف عوامله، و مظاهره، و نتائجه.

لعل لجوءه إلى ممارسة السلوك الاستمنائي؛ دلالة على ارتباطه النفسي بنساء أخريات؛ هن مادة خياله الجنسي، التي تمده بالإثارة، و اللذة، و الشعور بالفحولة، التي يفتقر إليها في زواجه المخفق، و هكذا يغدو الإشباع الجنسي الذاتي نشاطا تعويضيا، يسترد به ثقته المفقودة بنفسه، وذكورته، لا سيما و أن تجارب عجزه الجنسي، تورثه في كل ليلة توترا نفسيا حادا، يؤثر على مزاجه الانفعالي، وعلى آدائه المهني، و علاقاته المحدودة بالآخرين، كما أن سلوكه الاستنمائي، يعد عملية نكوص لا شعوري إلى مراحل نموه الأولى، و إلى مرحلة عزوبته؛ مما يصم سلوكه الجنسي بالانحراف، بحكم عدم تواؤمه مع عمره الزمني، لا سيما و قد صار يعمد إلى التفاعل العاطفي المجرد مع زوجته، ويمارس معها دور الطفل في علاقته بأمه مكرسا صورتها باعتبارها مجرد بديل لأمه، ما دام عاجزا عن التفاعل معها بوصفها موضوعا جنسيا مرغوبا فيه، يهب المتعة الإيروسية،و ينجب النسل أيضا.

صراع الحماة و الكنة

تسلك أم كمال اتجاه كنتها سلوكا عدوانيا مبطنا حينا، و ظاهرا للعيان أحيانا، و يلتمس ابنها ذلك من خلال أحاديثها إليه المحملة بالشكوى، و التظلم، و في سلوكها الانسحابي من مواقف التفاعل الأسري، حيث كانت تنطوي على نفسها في غرفتها، تعتكف على ممارسة شعائر الدين، مما

ينم عن ضعف روابطها العاطفية بابنها، و كنتها معا. و يكون سلوكها الانسحابي احتجاجا على الإهمال، الذي شعرت به من جراء إقصاء كنتها لها من الموقع المحوري المتميز، الذي كانت تحتله في بنية العلاقة الأسرية، فضلا عن استقطابها عواطف ابنها، و اهتمامه، مما جعل نزعتها العدوانية متفاقمة اتجاه كنتها مصدر الإحباط، و الحرمان، و الانجراح النرجسي.

كذلك كان شأن الكنة،حيث تقف من حماتها الموقف عينه، و لعل اتجاههما العدواني اتجاه بعضهما البعض؛ مرده شعور إحداهما بالغيرة من الأخرى، و هو شعور غريزي نابع من الخوف من ضياع الشخص المحبوب، و من إدراك إحداهما للأخرى بوصفها منافسة لها، كما أن غريزة الأمومة؛ تجعل الأم تشعر بأن ابنها ملكها؛ مثلما تشعر الزوجة اتجاه زوجها بحكم غريزة التملك التي تحكم علاقتها به؛ ما دامت الأم تستمد من ابنها بعض الإشباعات النفسية الأساسية، فهي ترى في كنتها تهديدا مباشرا لإشباع تلك الحاجات، و من ثمة، فهي تشعر بتوتر نفسي؛ من جراء خوفها من الإحباط المترتب عن وجودها، يغذي نزعتها العدوانية المقاومة لعمليات الإحباط. و كذلك شأن الزوجة في علاقتها بزوجها الذي يحقق لها فعلا -أو يعد بإشباع- بعض الحاجات النفسية، والاجتماعية، لكن وجود الحماة يشعرها بالتهديد المباشر للإشباع، لأن علاقته العاطفية، و الدموية بأمه؛ قد تعوقه عن ذلك، أو في أحسن الأحوال، قد تجعله لا يفيها حقها كاملا من الإشباع النفسي والاجتماعي، مما يجعلها تغار من حماتها؛ بحكم كون علاقتها بزوجها، قامت على أنقاض علاقته بأمه و من ثمة فهي تراها منافسة تحتل موقعا متميزا في ماضيه، و حاضره، و مستقبله على السواء.

لعل مصارحة الأم لابنها بكون زوجته تكرهها، و مصارحة الزوجة لزوجها بكون أمه تكرهها، دلالة على إدراك كلتيهما لما في نفسيهما اتجاه بعضهما البعض من ناحية، و دلالة على إسقاطهما اللاشعوري لما في نفسيهما على بعضهما البعض من ناحية أخرى، وفوق ذلك كله؛ فقول كلتيهما له بأن الأخرى تكرهها هي عملية توسل عاطفي؛ يراد بها استدرار حنانه، و عنايته، وتنطوي على الاحتجاج اللاشعوري على الحرمان العاطفي، و الإهمال، فضلا عن كونه سلوكا تنفيسيا عن شعورهما بالكراهية اتجاه بعضهما البعض، و عملية إيحاء نفسي قامت بها المرأتان لتشحنا كمال بالكراهية ضد بعضهما البعض.

لعل الحماة أشد غيرة من كنتها، لكونها طالقا محرومة من إشباع حاجتها إلى الحب، والجنس، بينما كنتها تستمتع بإشباع هاتين الحاجتين - حسب تصورها بطبيعة الحال- مما يذكي غيرتها الجنسية منها لكونها تزود ابنها بما لا تستطيع هي تزويده به، و يضطر كمال للسلوك العدواني

الحاد اتجاه أمه منعا لها من التدخل في شؤون حياته الزوجية، يترتب عنه إصابتها بنوبة قلبية تلزمها الفراش، مما يدلل على الطابع النفسي لتلك الوعكة الصحية باعتبارها من الأمراض النفسية الجسدية.

يبدو أن انحياز كمال لزوجته في صراعها مع أمه، يعزى لنزعته الخضوعية في علاقته بزوجته، ترتبت عن إخفاقه في القيام بدوره الاجتماعي كزوج، و شعوره بالذنب في حق زوجته المحرومة من إشباع حاجتها الجنسية، و من ثمة، فقد أراد التعويض عن شعوره بالعجز الجنسي عن طريق السلوك العدواني اتجاه أمه، مما يجعل من العدوانية بمثابة فحولة جنسية رمزية، أو رغبة في فك ارتباطه العاطفي بأمه، و إحلال زوجته محلها ليكون بمقدوره ممارسة دور الزوج. و لعله أراد تعزيز روابطه الواهية بزوجته عن طريق العدوان على أمه، ما دام عاجزا عن تعزيزها عن طريق السلوك الجنسي السوي .

عوامل الشك و آثاره

تبذر الرسالة المشبوهة، التي رآها في يد زوجته صدفة بذور الشك في عفتها الجنسية، لأنه كان مهيأ نفسيا لذلك بحكم ضعف ثقته بنفسه، التي هزت ثقته في زوجته؛ لكونه عميق الشعور بتقصيره في حقوق زوجته بسبب عجزه الجنسي، و لذلك توحي الرسالة بوجود رجل آخر في حياتها، و تغدو الغيرة من المنافس المجهول عرضا من أعراض الدونية، و الإخفاق، فضلا عن كونها من رواسب العقدة الأوديبية التي حملته، و هو صغير على تمزيق صورة أبيه، و رفض زواج أمه برجل آخر.

يغدو تعاطي الخمر وسيلة صنع لواقع آخر؛ يكون التكيف فيه ممكنا، حيث يسترد ثقته بنفسه، التي اهتزت بسبب عجزه الجنسي، و صراعه الأسري؛ بسبب معاناته من علاقته المتوترة مع الزوجة المحبوبة المشبوهة، و الأم المتسلطة الغيور. و يتمخض السكر عن شعوره بالذنب، و شعوره بعدم قدرة الخمر على إزالة تحديات الواقع، و إن كانت تخفف من وقعها عليه مؤقتا، لذلك عمد للاستعانة بضريح السيدة زينب، و العراف لمحاولة السيطرة على الواقع، و المصير؛ ما دام لا يملك وسائل فعالة تتيح له التحكم في مشكلات التكيف الجنسي، و الأسري، و المهني. و يشي إيمانه بالشعوذة والعرافة بعجزه عن تدبير الحلول الواقعية، مما يحمله على البحث عن الحلول السحرية، بحكم تصوره لها باعتبارها فعالة، و مقدسة لكون مرجعيته الثقافية، التي تلقاها خلال تنشئته الاجتماعية؛ شكلت نظامه المعرفي الخرافي المدلل على انعدام القيم المعرفية العقلانية و العلمية.

النكوص إلى التجربة الجنسية الطفولية :

يعمد كمال إلى استرداد ثقته بنفسه عن طريق مراقبة سلوك زوجته المشبوه، حيث كلما وقف على عفتها الجنسية تحقق له ذلك، و كلما ثبتت الشبهة انخفضت نسبة ثقته بنفسه، و تعمق شعوره بالدونية، و العجز الجنسي، و تزامن ذلك مع تعرضه لإثارة جنسية من امرأة دميمة الشكل كانت تطل من النافذة المواجهة للمقهى، الذي كان جالسا فيه لمراقبة سلوك زوجته، و اعترف بذلك قائلا:"إن امرأة قد أهاجت في صدري انفعالا جنسيا، و لكن ليس في هذا جديد، فقد كنت ولازلت أتلقى هذه الانفعالات الجنسية من أقبح الآدميات، و أقذرهن، و لم يغير الزواج من حالي، و لم يشفني من دائي، فرددت إلى عاداتي القديمة جميعا، و عاودت النظر إلى النافذة مرة أخرى، و كأني أعاني انتظار ين! ... فلأحاول فهم نفسي أكثر من هذا، لست طالب تسلية فحسب إني أرغب في رؤيتها مرة أخرى لتلتهمني بنظراتها كما فعلت بالأمس، فيعاودني ذلك الشعور العميق بالارتياح والزهو، و استرد الثقة المسلوبة" [1] .

يبدو أن اقتران إثارته الجنسية بالمرأة الدميمة؛ لا يعدو كونه نكوصا لا شعوريا للتجربة الجنسية التي خبرها في طور الطفولة مع خادم البيت الزنجية الدميمة؛ مما جعل ميوله الجنسية، تتعرض لعملية تثبيت بالموضوع الجنسي الطفولي. و لعل ما زاده تعلقا بها ما لاحظه عليها من اهتمام به دعم ثقته المهزوزة بنفسه.

و غدا تردده على المقهى المواجه لشرفة البيت مدفوعا بدافع البحث عن تحقيق الذات، والشعور بالفحولة الجنسية، لذلك ما أن استرد بعض الثقة بنفسه بوقوفه على عفة زوجته الجنسية، حتى عمد إلى تعزيز ثقته بقدرته الجنسية عن طريق علاقته بالمرأة الدميمة، التي كانت لها خبرة جنسية؛ بحكم ترملها مكنتها من ممارسة الدور الجنسي الإيجابي الفعال في اتصالها الجسدي به، بحيث أعفته من القيام بأي جهد، و حررته من الشعور بالخوف، و العجز، و دعمت ثقته بفحولته، حتى بلغت معه ذروة الرعشة الكبرى. و لعل دوره السلبي في الاتصال الجنسي؛ كان بمثابة استمرار لخبرة طفولته الجنسية.

---

[1] **السراب** ، ص 203.

تمخضت هذه التجربة الجنسية عن جملة من المشاعر الإيجابية التي رواها قائلا:"خرجت منها سكران بخمر الظفر و الارتياح العميق، و شعرت من الأعماق برغبة في هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة، بل هي الحياة نفسها -و الكرامة و الرجولة و الثقة و السعادة " [1].

يكشف عمق ارتياحه النفسي عن عمق توتره، الذي كان يرزح تحت وطأته، مثلما ينم تعلقه بها عن تعلقه بالقدرة الجنسية، التي تتجسد فيها. و إذا كان دوره الجنسي معها سلبيا خضوعيا؛فهو يعكس نزوعه السلبي في علاقاته مع الآخرين، فضلا عن رفض الشخص الخضوعي لذاته؛ مما يجعله يختار شريكه الجنسي من أدنى المستويات الاجتماعية، و يتمثل ذلك بجلاء في ميول كمال لهذه المرأة الدميمة؛ على الرغم من كونها لا تستهوي عامة الرجال.

ازدوجت مشاعره نحو زوجته إثر خيانته لها بين الشعور بالذنب، و الشعور بالعدوانية؛ باعتبارها مصدر العجز الجنسي، و الإحباط، و سبب الخيانة، و يزيح بالتالي توتره النفسي- عن طريق الإسقاط اللاشعوري- لعيوبه، و إلصاقها بالآخر، و اتهامه بالفتور الجنسي، و هكذا تتحرر الذات من أسباب قلقها، و شعورها بالذنب، و تنتقل من موقع الجاني إلى موقع الضحية.

ظهور آثار الخيانة الزوجية

تموت زوجته، و هي حامل عقب عملية إجهاض يجريها لها طبيب من أقاربها يكون ضالعا معها في السلوك الجنسي المنحرف .و في سياق التحقيق الجنائي يسأله المحقق عن حيثيات الحمل المشبوه، و أسباب كتمان زوجته عنه ذلك، فأثار فيه السؤال استجابة انفعالية حادة تمثلت في اعترافه قائلا: "لشد ما زلزلني هذا السؤال! إنها كلمة واحدة ثم يصبح سرى نادرة المتندرين، إن مشاعر الحقد و الانتقام تستفزني جميعا إلى نشر هذا السر الدفين كي أهتك سر الآثمة، و أنزل عقابي بالمجرم، أريد أن أقول أنه لم يكن في حياتنا ما يدعو إلى الحمل ليضع المحقق يده القاسية على الفاسق، و لشد ما نازعتني نفسي إلى ذلك، و أوشكت الكلمات أن تثب إلى طرف لساني .بيد أني لم أنبس بكلمة، وحل بي شلل عام لا أدري ما كنهه. هل يمكن أن يكون للخجل أثر حتى في مثل هذه الحال؟ هل يمكن أن تفوق رغبتي في التستر على تحرقي إلى الانتقام؟ [2]".

كان في موقف يتجاذبه فيه صراع الأقدام على الاعتراف بحقيقة عجزه الجنسي، و الأحجام عنه؛ لا سيما و أن الاعتراف وسيلة تنفيس عن ميوله الانتقامية التدميرية لها، و لقريبها؛ لولا ما

---

[1] **السراب** ، ص 214.

[2] م.ن: ص 241.

يستتبع ذلك من شعور بالعار، و بالاستهجان الاجتماعي، الذي يسلب منه الأمن النفسي، و القدرة على تحقيق الذات، فضلا عن كون عجزه الجنسي؛ قد يسوغ سلوك زوجته المنحرف، و يشفع لها لدى الرأي العام الاجتماعي؛ بحيث ينقلها من موقع الجانية إلى موقع الضحية، لا سيما في الفئات الاجتماعية التي تتبنى قيم التسامح و الانفتاح.

هكذا تطغى حاجته لتوكيد الذات على نزعته الانتقامية، مما حمله على كتمان عجزه الجنسي، لأن موتها امتص كثيرا من شحنات عدوانيته اتجاهها، لكون الموت أقصى أشكال الانتقام. كما انه كظم شعوره بالخيانة؛ لأن موتها أوحى له بأنه قد سلم من المصير، الذي آلت زوجته إليه، مما جعله يتعرض للتبلد الوجداني، الذي أخمد انفعالات غضبه، و نقمته على الزوجة الخائنة؛ لكونها صارت مجرد جثة هامدة، محاطة بالغموض، تولد الرثاء، و الرهبة بحكم ما تثيره من إيحاءات، و أجواء نفسية، و ميتافيزيقية.

كان بكاء أمه على زوجته مدفوعا بحاجتها النفسية الواعية، و اللاواعية للتخفيف من شعورها بالإثم من جراء سلوكها العدواني اتجاهها، كما أنها رأت في موت كنتها مصيرها المأساوي المقبل، مما جعلها تبكي نفسها من خلال بكائها على كنتها، و لعلها كانت تشارك ابنها وجدانيا شعوره المأساوي بموت زوجته؛ لكن أثر بكائها كان سلبيا؛ لأنه استفز عدوانيته، مما جعله يقول لها:
"-.. إني أكره الرياء... و لا يمكن أن أنسى أنك أبغضتها حتى قبل أن تقع عليها عيناك.."

فرفعت إليّ وجهها في استعطاف و ألم، و قالت: كامل لا تقس على أمك لا تقل هذا، لم أكرهها علم الله، و مثل ما كان بيننا من نقار يكاد لا يخلو منه بيت ...
و لكني لم أرحمها، و لم أفهم في الوقت نفسه كنه القوة التي دفعتني إلى تذكيرها بالماضي الأسيف، كأنما آسى حقا على رباب، بل غاليت في الحنق عليها كما لو كانت السبب فيما حل بي من كارثة[1]" .

يبدو أن ما أضفى طابع العدوانية على تفاعله مع أمه شعوره بالإحباط العاطفي؛ و الانجراح النرجسي الناجم عن خيانة زوجته له، مما جعل ميوله العدوانية الانتقامية؛ تنتقل من شخص زوجته إلى أمه عن طريق الإزاحة، و الإسقاط، بحيث أسقط على أمه صورة زوجته السلبية، لأن عدوانه على أمه مجرد عدوان مزاح، بحكم كون المرأتين تقومان بالوظيفة النفسية عينها في حياة كامل، لا سيما وأن وظيفة العدوان إزاحة التوتر الانفعالي المكبوت.

---

[1] **السراب**: ص 245.

يكون سلوكه العدواني اللفظي من الحدة بحيث يورث أمه صدمة نفسية حادة، تحطم النـــواة المركزية لحياتها الانفعالية و العاطفية، و تفضي بها إلى الإصابة بالسكتة القلبية، لكونها تســـتمد مـــن علاقتها بابنها الدعم العاطفي، و الأمن النفسي، فما أن تخلى عن وظيفته النفسية، التي تبرر استمرارها في الحياة، و غدا مصدر إحباط، و عدوانية، حتى حدثت السكتة القلبية، كردة فعل عضويـــــة، ذات جذور نفسية، لأن غريزة الموت تنشط بخمود غريزة الحياة، التي تستمد غذاءها من الحب، و الحمايـة، و الأمن، والانتماء، و التقدير، و إذا انتفت مصادر الإشباع على نحو فاجع تدميري مباغت، يحـــدث الانهيار النفسي الشامل في شكل مرض جسمي، أو انهيار عصبي، أو موت مأساوي .

الفصـــل الخامس

تفسيـــر السلـــوك الإجـــرامي

تفسير السلوك الإجرامي

جذور الانحراف الأسرية

تظهر في سياق "بداية نهاية" بعض العوامل النفسية، و التربوية، والاجتماعية، التي ساقت حسن إلى الانحراف؛ منها إسراف والده في إشباع رغباته دون أن يمارس سلطته الأبوية بما تقتضيه من أساليب الثواب، و العقاب خلال مرحلة الطفولة، وسيطرة شخصية أمه على العلاقات الأسرية، وركون والده إلى الخضوع، مما عاق اكتمال نموه النفسي؛لأن المتعارف عليه تجسيد الأب للسلطة الأبوية في المجتمع العربي، التي تمثل قيم المجتمع، ومعاييره السلوكية، بينما تمثل الأم مبدأ إشباع الرغبات النفسية و الجسدية، وهكذا يحدث التوازن بين مطالب مبدأ الواقع المستمد من السلطة الأبوية، ومبدأ إشباع الرغبات النابع من شخصية الأم.

ينجم عن اختلال علاقاته الأسرية" تمرده على الحياة المدرسية،وتكرار هروبه من المدرسة،وتوالي سقوطه عاما بعد عام حتى انقطع عنها،و لم يجاوز السنة الثالثة،واستحال ما بينه وبين أبيه إلى نقار،وشجار،ثم إلى ما يشبه العداوة الحقة، فكان يطرده أحيانا من البيت،فيقضي أياما متسكعا،ثم يعود إلى البيت،وقد اكتسب شرورا جديدة من مخادنة الأشقياء،و الخوض في الإثم والإدمان وهو دون العشرين. ولما بلغ اليأس من أبيه مداه، ألحقه بحانوت بقال، فمكث به شهرا ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها. ثم عمل في ورشة سيارات. وطرد منها إثر عراك أيضا. و لم يعد يأبه بغضب أبيه، ولا بحزم أمه،ففرض نفسه على البيت فرضا يلقي سخطهم باستهانة أودعابة، أو شجار، لكنه لا يتزحزح، ولا يبحث جادا عن العمل" [1].

يبدو أن هروبه من المدرسة دلالة على انعدام قدرته على التكيف مع الوسط المدرسي؛بحكم اختلاف انساق القيم المدرسية عن قيم حياته الأسرية؛ حيث يقتضي الوسط المدرسي منه تبني قيم الطاعة، و الخضوع، والانضباط،و التوافق وديناميات الجماعة، بينما كان سلوكه في الوسط الأسري قوامه التحدي، والتمرد، والعدوانية، مما حداه للهروب من المدرسة؛ لأنه لم يتهيأ خلال تنشئته الاجتماعية للانقياد للسلطة الأبوية،رديف السلطة المدرسية؛ لعدم تعرضه لإشكال التطويع التربوي القائمة على الكبت، وقمع النزوات، حتى يتحقق التكيف التربوي، والتجانس مع القيم الاجتماعية، والأنماط السلوكية السائدة.

---

[1] نجيب محفوظ : **بداية ونهاية**، دار مصر للطباعة، مصر، ص 18

تتغير معاملة الأب عند إخفاق الطفل حسن في تحقيق توقعاته المدرسية، وتظهر السلطة الأبوية قامعة قاهرة؛ باتخاذها الأساليب العقابية المتمثلة في تجريح أناه النرجسي، وتهديد أمنه النفسي عن طريق الشتم و المعايرة، فالنبذ الاجتماعي، المتمثل في الطرد من البيت، مما يورثه أعمق مشاعر الرفض،و الدونية والاضطهاد. ويهتز خلال تشرده في الشوارع انتماؤه الأسرى؛ رديف أمنه النفسي، ويحل محله الشعور بالاغتراب، و القلق، و التوتر، ويضطر للبحث عن انتماء اجتماعي بديل لدى الفئات الاجتماعية الهامشية المنبوذة من انتماءاتها الأسرية، وهي تتبنى قيما منحرفة مناهضة للنظام الاجتماعي السائد. ويمتص حسن بعض القيم السلبية عن طريق التفاعل الاجتماعي؛ باعتبارها تحكم سلوك أفراد جماعته المرجعية " التي يرى أنها سوف تكون أكثر إشباعا لحاجاته،وتحقيقا لرغباته. ويشارك أعضاءها الدوافع و الميول و الاتجاهات، ويتجاوب معهم.. ويستدخل قيمهم، ومعاييرهم، ومثلهم في نفسه،ويطوي عليها جوانحه (كما لو كان قد اشترك في وضعها معهم، وهو بالفعل يفكر بعقولهم،ويتوحد بجماعتهم)،فالجماعة إذن جماعته ومعاييرها هي معايير،واعتزازه النفسي إنما هو بعضوية هذه الجماعة، التي تحقق مثله، وأمانيه،لا بجماعته، العضوية الرسمية، التي تضمه قسرا عنه،أو التي وجد نفسه منتميا إليها دون إرادة أو اختيار في أغلب الأحيان."[1]

لعل امتصاصه قيم جماعته المرجعية السلبية؛ جعل تكيفه المهني متعذرا، مما حال دون استمرار عمله في البقالة، وورشة السيارات، لأن عراكه العضلي؛ شكل من أشكال مواجهة المشكلات المهنية،والعلائقية نجم عن قيم العنف، و العدوان، التي استمدها من جماعته الهامشية، وجماعته الأسرية، التي مارست عليه العقاب البدني بعد مرحلة تسامح مع نزواته خلال مرحلة الطفولة، وهكذا زودته الجماعة العضوية، و الجماعة الهامشية بقيمة العنف ، باعتباره أسلوب مواجهة للتحديات، التي يفرضها الواقع، وغدا بالتالي من الموجهات الأساسية لسلوكه الإنساني،حيث " أن عقاب الطفل بدنيا يمثل سلاحا ذا حدين، فالعقاب البدني يجعل الطفل يكف عن العدوان، ولكنه في ذات الوقت، يقدم له نموذجا للسلوك العدواني من المحتمل أن يحاكيه،ويقلده في مواقف أخرى،أو مع أشخاص آخرين،خاصة في غياب من يقوم بعقابه." [2]

---

[1] كمال دسوقي: **ديناميكية الجماعة في الاجتماع وعلم النفس**،ج1، دار النهضة العربية، بيروت ، 1969 ص14 .

[2] أحمد السيد محمد إسماعيل: **مشكلات الأطفال السلوكية**. دار الفكر الجامعي.مصر.1993.ص 125

يبدو أن ما ضاعف من إمكانية جنوحه إلى الانحراف؛ شعوره بالرفض الوالدي،لأن الطفل المرفوض،يميل إلى العنف و العدوان، وجلب الانتباه لذاته المهملة، ولو عن طريق السلوك المنحرف المتمثل في السرقة و الكذب، وإلحاق الأذى بالآخرين، لاسيما الأشخاص، الذين يرمزون إلى السلطة كشكل من أشكال التنفيس عن ميوله الانتقامية المكبوتة من مصدر الرفض و النبذ[1].

عقدة الشعور بعار العمل النسوي

ينتاب أفراد الأسرة المتشكلة من الأم، وحسن، ونفيسة، وحسين، و حسنين جزع فاجع من جراء وفاة الوالد المباغتة، لكونه يجسد الحماية الاجتماعية، مما يشحنهم بقلق نفسي ناجم عن توقع الإحباط و الحرمان، ويضطر أفراد الأسرة إلى تحمل آلام عقدة الشعور بعار عمل المرأة؛ بموافقتهم على ممارسة "نفيسة" الخياطة؛ على الرغم؛ مما تنطوي عليه من تبخيس اجتماعي، بحكم طبيعة القيم الاجتماعية التقليدية السائدة في الأربعينيات، التي تستهجن عمل المرأة على وجه العموم، و الخياطة خصوصا، مما أورث نفيسة شعورا حادا بالدونية، لأنها كانت تمارس الخياطة-قبل موت أبيها- كهواية تزجي بها أوقات الفراغ، وتحقق بها ذاتها، وتساعد بها جاراتها، مما يسبغ عليها الشعور بالاستقلال، رديف التحرر من عقدة دونيتها اتجاههم،لكن اضطرارها لتقاضي أجور عملها من عميلاتها؛ جردها من المشاعر الإيجابية.

لعل القيم الاجتماعية، التي بخست مهنة الخياطة، هي وليدة المنظور الاجتماعي التقليدي الداعي إلى ممارسة المرأة دورها الاجتماعي النمطي المتمثل في الزواج، و الإنجاب، و تربية الأبناء، بحيث ينجم عن ممارستها العمل الشعور بالإثم والعار، مما يسلبها الثقة بالذات، وبالعمل على حدّ سواء لكونها حادت عن القيم الاجتماعية المقبولة.

الشّعور بالدّونية و اللاّتجانس

يبدو أن حرمان نفيسة من الجمال؛ كان من العوامل المباشرة، التي جعلت الرجال يزهدون فيها، ولا يولونها إعجابا أو اهتماما، و كان وعيها بقبحها حادا؛ سلبها الثقة بالنفس، وجعلها دائمة المقارنة بينها وبين إخوانها الثلاثة، الذين ورثوا ملامح الوسامة عن أبويهم، وتعمق شعورها بعدم التجانس مع أفراد جماعتها العضوية، حيث كان من الممكن ألا يشتد شعورها بالدونية لو كان أحد

---

[1] محمود حسن: **الأسرة ومشكلاتها**، درا النهضة العربية، بيروت،1980،ص271.

إخوانها يشبهها في مظاهر الدمامة، بحيث يتيح لها مجال التماهي به، ويشاركها مشـــاركة وجدانيـــة الشّعور بالدونية و اللاتجانس.

لم يكن الجمال في وعيها إلا وسيلة استجلاب للحنان، و التقدير الاجتماعي، لأنّ شعورها بالقبح يزداد بقدر ازدياد شعورها بالحرمان العاطفي، رديف وعيها الفاجع؛ بكونها كائنا غير مرغوب فيه؛ بوصفه موضوعا عاطفيا، و موضوعا جنسيا على حدّ سواء. لعلّ دمامتها ليست العامل المباشـر لعمق شعورها بالدونية، بقدر ما كان تصورها لصورتها الجسمية، هو المنبع الذي يغـــذي شـــعورها السلبي؛ لكون الشعور بالدونية قاسما مشتركا بين الناس؛ تتعدد جذوره النفسية، لكن أعراضه واحدة؛ مما يجعله بمثابة سمة نفسية، تدمغ الطبيعة البشرية بميسمها المتميّز.

هكذا، فإنها " لم تحظ طوال حياتها بقلب يحبها و يعطف عليها، لم تجد من متنفس عن توتـــر أعصابها إلا في الضحك والسخرية من نفسها و اخوتها و الناس، فاشتهرت بالعبث الضاحك الـــذي تتوارى خلفه مرارة في الأعماق. لم تكن لها حيلة في إحساسها. فالواقع أن غريزتها الأنثوية كـــانت الشيء الوحيد بها الذي سلم من النقص و الضعف و استوى ناضجا حارا.فلم يخـــل صدرهـــا مـــن عذاب سجين، وقفت له تربيتها و كرامتها وأسرتها بالمرصاد.و لكن منظرا كالذي رأته اليوم ببيـــت العروس كان خليقا بأن يهزها هزة عنيفة قاسية..[1] "

يغدو سلوك الضحك و السخرية قناعا براقا، يوارى ما يحتدم في طوايا نفسها مـــن شـــعور بالإحباط اتخذ السلوك العدواني المازح وسيلة للتنفيس عن الميول العدوانية المكبوتـــة، لأن الدوافـــع العدوانية ثمرة مشاعر الإحباط؛ تضبطها رقابة الأنا الأعلى لدى تسربها من مستوى اللاشعور، و تحول دون ظهورها في السلوك اللفظي، و الحركي، بحكم تنافيها و القيم الاجتماعية المقبولة، و تلطف مـــن حدتها التدميرية تجنيبا للأنا مواقف الاستهجان الاجتماعي.

يبدو أن عملها في خياطة أثواب العرائس، بقدر ما يمدها بالإشباع المادي لحاجـــات أفـــراد أسرتها؛ بقدر ما يعمق شعورها بالدونية، و الإخفاق بالقياس للأخريات، لأنه يبخس ذاتهـــا، لكونـــه يجعلها تواجه يوميا حقيقة أنوثتها غير المرغوب فيها في الحب و الزواج معا.

لم يكن ميلها لسلمان جابر سلمان ابن البقال، سوى استجابة غريزية للرسائل التوددية، الـــتي تحملها ابتساماته المعبرة عن الإعجاب؛ وليد ميله الجنسي إليها؛ مما زودها ببعـــض الثقـــة بـــالنفس،

---

[1] **بداية و نهاية:** ص72.

ووعدها باشباعات نفسية، على الرغم من كونه لا يرقى إلى نموذج الرجل، الذي تتوق إليه، إلا أنها لم يكن لها بديل يزهدها فيه، بحكم الأثر السلبي للحرمان على الاختيار، حيث كلما "كان الشخص قد استمتع بحياة غنية بالاشباعات، فسيكون ممكنا لديه اختيار أصدقائه، و محبيه بتمييز أكبر، وسيكون عند بدء أية علاقة أقل تلهفا إلى الحب، و الموافقة، و الجنس و الأشياء المادية [1]"، وكلما اشتد الحرمان العاطفي بالشخص؛ حمله على التلهف على إقامة أية علاقة بأي شخص؛ يوحي بإشباع حاجاته النفسية و الاجتماعية؛ لأن الحرمان يضعف قدرته على المفاضلة المرهونة بوفرة البدائل لا بندرتها.

تستجيب نفيسة لإغراءات ابن البقال الجنسية؛ لا سيما و أن التجربة الجنسية، التي تكتشفها معه تعزز ثقتها بأنوثتها، و تمدها بشحنة حنان تستدرك بها بعض الحرمان، الذي كابدته طويلا، و إن شابها شعور كدرها حيث أنه " مد يسراه وراء ظهرها، و يمناه حول صدرها، فشعر بثديها تحت ساعديه ناهدين صلبين فغلى دمه، و ضمها إليه بوحشية، و انهمرت أنفاسه على خدها و عنقها وعاودها الذهول، و التخدير، و الرغبة، و الخوف، و امتزج في صدرها القلق و اللذة، و اليأس، ثم اشتدت الظلمة .. فلا مكان و لا زقاق .."[2].

يشي هذا السلوك بمراودة الشعور بالإثم لها عند مباشرته المداعبة الجنسية، حيث حالت فعالية أناها الأعلى دون تجاوبها التلقائي معه؛ بحكم انعدام خبرتها الجنسية، لكن مداعباته عندما تبلغ مستوى الإثارة القصوى؛ تتلاشى حواجز الخوف، و الإثم بتلاشي فعالية أناها الأعلى أمام عرامة الدافع الجنسي، الذي يورثها شعورا عميقا باللذة الجنسية، رديف المتعة العاطفية، و يسوقها إلى مواقف إثلوة جنسية؛ تبلغ فيها ذروة الرعشة الكبرى، التي تخدر وعيها بذاتها، و بالعالم المحيط بها؛ مما يفضي إلى انفضاض غشاء بكارتها، و نجمت عن هذه التجربة الأليمة آثار نفسية متناقضة، حيث شعرت بصدمة نفسية من جراء وعيها بتمردها على القيم الاجتماعية المقبولة، يترتب عنه انهيار مكانتها الاجتماعية؛ كمشروع زوجة؛ لكنه يعزز شعورها بكونها أنثى مشتهاة، لا سيما و أن وعود الزواج، التي تعهد بها عشيقها لطفت شعورها بالذنب، و الإخفاق، و زودتها بتصور إيجابي عن ذاتها، جعلها تستعيض عن إنجاز مشروع الزواج بوعوده، و تعيش الزواج بالتالي بوصفه حلما قابلا للتحقق.

---

[1] جوارد، سيدني : **الشخصية بين الصحة و المرض**، ص 247.

[2] **بداية و نهاية** ، ص 104 - 105.

عندما ينتهي إليها خبر خطبة عشيقها لفتاة أخرى، تقابله للوقوف على حقيقة أمره، فيعتـذر بحجة كونه؛ قد فرض عليه هذا الزواج دون رغبة منه، أو إرادة "فقالت بحقد و هي تكظم عواطفها الثائرة:

-أرفض هذا الزواج ... لا نجاة لي إلا بهذا!...

فقال بعجلة ضاعفت من حنقها :

-أرفضه ؟! فات الوقت..

-يجب أن ترفضه .. لم يفت الوقت بعد ...يجب أن تفكر فيّ لا نجاة لي إلا بأن ترفضه ..

فقال بلهجة اليأس و هو يشعر بخوف:

-ليس في وسعي هذا ...

و تولاها القنوط، و لم يوح لها الشخص الخائر الماثل أمامها بأقل رجاء، و صاحت بانفعال:

-كان في وسعك أن تفعل ما فعلت، و كان بوسعك أن تقبل الزواج من هذه الفتاة، و لكن ليس بوسعك أن تصلح الخطأ، ليس بوسعك أن تمد يدا لإنقاذي ..

-ما أشد ضيقي إن أسفي لا حد له .."[1]

هكذا تتعرض لصدمة نفسية حادة من جراء تنصله من وعود الزواج، و تفقد ثقتها بنفسها؛ باعتبارها غير جديرة بالوفاء بالوعود، و تعمد لإثارة شعور الآخر المحبوب بالذنب عن طريق اللوم، والتوسل العاطفي لتعديل سلوكه، لكنه يعمد لتبرير سلوكه لتبرئة ذمته الأخلاقية الرازحة تحت وطأة الذنب، و ينحو باللائمة على السلطة الأبوية المستبدة؛ بوصفها حاملة وزر الخيانة، مما ينقله من دور الجاني إلى دور الضحية، و يتماهى بشخصية ضحيته، ليتفادى موقف الإدانة، و التجريم، بكل ما يترتب عنه من مشاعر سلبية؛ تشوه صورة ذاته، و تفقده احترامها، و احترام الآخرين على السواء. لذلك يقف موقفا سلبيا من سلوكها العدواني العضلي، و اللفظي، و يجد فيه لذة مازوخية، تخفف شعوره بالإثم، و شعورها بالقهر، و الإحباط، و الإخفاق، حيث يغدو السلوك العدواني ذا وظيفتين نفسيتين؛ تتمثل في علاج المشكلات النفسية للجاني، و الضحية؛ إذ يجدان فيه أحيانا إشباعا متبادلا.

(1) **بداية و نهاية** ، ص 130 - 131.

يتمخض إحباطها العاطفي عن اكتئاب نفسي كان بمثابة حالة نفسية مزمنة، لأن توقعات إشباع حاجاتها النفسية، و الاجتماعية غدت غير ممكنة التحقيق؛ بحكم فقدان بكارتها، لا سيما و أن القيم الاجتماعية السائدة؛ تعتبر بكارة البنت علامة عفتها الجنسية. و من ثمة؛ تغدو البنت المفضوضة البكارة يائسة تماما من إقامة علاقة إنسانية جادة كفيلة بالتتوج بالزواج، بسبب المحاذير المحفوفة بها كالفضيحة، و النبذ الاجتماعي، فضلا عن القتل، الذي تفرضه قوانين الضبط الاجتماعية في الأوساط التقليدية المنغلقة.

يزداد شعور نفيسة بالانقباض النفسي بسبب عجز أجرتها الزهيدة عن تحقيق ميولها الاستهلاكية، لا سيما و أنها تقتطع منها نصيبا معتبرا للإنفاق على أسرتها المحتاجة على حساب كبت حاجاتها، لأنها وجدت في السلوك الاجتماعي التكافلي متنفسا من عقدة الذنب الناجمة عن انحرافها الجنسي.

كانت علاقتها الجنسية بعشيقها، قد أورثتها عادة ممارسة الجنس، بحكم كونه فعالية فيزيولوجية نفسية، تشحذها آلية العادة عن طريق التكرار، مما يحملها -على نحو واع أو غير واع- على البحث عن الإشباع الجنسي، فضلا عن أن عقدة الذنب الناجمة عن انفضاض بكارتها، تحدوها لمعاودة التجربة الجنسية كبتا للتوتر النفسي المصاحب لها. كما أن السلوك الجنسي، يزودها ببعض الإشباع لحرمانها العاطفي و المادي، لا سيما و أنها كانت تتقاضى أجورا مقابل علاقاتها الجنسية بعملائها.

لم يكن انتقالها إلى الانحراف الجنسي سريعا؛ بل مصحوبا بصراع الأقدام و الأحجام؛ باعتباره أول عائق نفسي يحول دون الفرد و تغيير أنماط سلوكه إن طال أمده، أما إذا تحرر منه، تعرض سلوكه للتغير.

تلقت نفيسة الرسائل الاتصالية البعدية المحملة برغبة محمد الفل في ممارسة الجنس معها، حيث أوحت لها بكونها موضوعا للمتعة الجنسية، و بقدر ما زودتها ببعض الثقة بالذات و بالأنوثة، و توقع المتعة العاطفية و الجنسية، و المكاسب المادية، فقد استنفرت فيها فعالية أناها الأعلى، و قوامه الحظر

والتحريم، و بات أناها نهبا للقلق، الذي يحدوها للسلوك المنحرف لتتخلص منه، و تجد حلا للصراع المستحوذ على استقرارها النفسي [1].

لذلك استجابت للغواية الجنسية بعد أن فقدت القدرة على التوفيق بين دوافع الغريزة الجنسية، و المعايير السلوكية الإيجابية؛ بحكم عجز تكوينها النفسي عن استخدام العمليات العقلية اللاشعورية، التي يلجأ إليها الأسوياء في ضبط غرائزهم كالكبت، و الإعلاء، و التعويض.

لعل استعجالها لمحمد الفل أثناء الوصال الجنسي؛ دلالة على التذبذب الوجداني بين إشباع دوافعها الجنسية، و الامتثال لقيم الواقع الاجتماعي، مما ينم عن عدم تكيفها؛ و مقتضيات الدور الاجتماعي بوصفها مومسا حديثة عهد بممارسة السلوك الانحرافي، فضلا عن كون تذبذبها الانفعالي يشي بمراودة صراع الأقدام و الأحجام لها خلال اتصالها الجنسي به، حيث يتمثل التذبذب الوجداني في "الاتجاه إلى موضوع ما بكل ما لدى المرء من وجدان، ثم ما تفتأ أن تمر لحظات حتى يتجه بكل ما لديه من وجدان إلى نقيضه[2]".

كان انسحاب محمد الفل بمثابة احتجاج على إجهاضها رغبته الجنسية، و هو في ذروة الاتصال الجسدي بها، بينما كان انسحابها احتجاجا على معاملته إياها باعتبارها مومسا، مما لا يتوافق و تصورها الإيجابي لذاتها، فضلا عن اختلاف دوافعهما النفسية، التي شكلت علاقتهما الإنسانية، حيث كانت نفيسة تصدر من حاجتها إليه؛ باعتباره مصدر حنان، و أمن نفسي، و إشباع جنسي، وحماية اجتماعية، بينما كان هو يصدر من حاجته الطارئة إلى المتعة الجنسية. لذلك كان ترددها في التقاط القطعة النقدية التي ألقاها لها على الرصيف بمثابة مظهر من مظاهر الشعور بالذنب، لكونها ترمز إلى العلاقة الجنسية الآثمة، التي ابتذلت فيها شرفها الاجتماعي، رديف تصورها الإيجابي لذاتها. كما أن ترددها في التقاطها؛ ينم عن رفضها للعلاقة المنحرفة في حد ذاتها.

علاقة التضحية بالشعور بالذنب

تمزقت الأم نفسيا بعد حصول ابنها حسين على شهادة البكالوريا بين قيمها الذاتية؛ بوصفها أما تريد تفويض ابنها حرية الاختيار بين استكمال دراسته الجامعية، أو ممارسة العمل، و كلا الاختيارين له إيجابياته و سلبياته، حيث تقتضي الدراسة الجامعية منه تحمل المعاناة، و الحرمان ريثما

---

[1] السيد رمضان: **الجريمة و الانحراف من المنظور الاجتماعي**، المكتب الجامعي الحديث، اسكندرية، 1985 ، ص 93.

[2] ميخائيل إبراهيم أسعد: **الحرية النفسية**، مكتبة غريب، مصر، 1993، ص 141.

ينال الشهادة العلمية، و يقتضي العمل منه التضحية بطموحه العلمي، و الاجتماعي معا، و لم تحمله على الاختيار الثاني شعورا منها بالذنب من الإسهام في تعويق تطلعاته الاجتماعية؛ لكونها ترى في تحقيقه لذاته تحقيقا لذاتها، و في صعوده الاجتماعي صعودا طبقيا لهما معا، لأن الآباء يرون في أبنائهم امتدادا طبيعيا لحياتهم، و مشاريعهم الاجتماعية التي عجزوا عن إنجازها.

أما أخوه الأصغر حسنين؛ فيحثه على الانصراف عن استكمال تعليمه الجامعي قائلا:

"-إذا كان على أحد أن يضحي بذاته- إذا اعتبرنا التوظف بالبكالوريا تضحية -فأنت الذي يجب أن تبذل هذه التضحية، لا لأني أريد لك ما لا أريد لنفسي، و لكن لأن أسرتنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عاما آخر يمكنها الانتفاع بتضحيتي أنا".

فضحك حسين قائلا:

--منطق زائف، إني أعلم علم اليقين، أنك لن ترضى بالتضحية لا العام القادم و لا الذي بعده.

وقالت الأم حسما للجدل:

-افعل ما تشاء يا حسين، و لا اعتراض لنا..

فابتسم إليها في صفاء و قال:

- لم أعن مما قلت حرفا واحدا، و لكني أردت أن يعرف حسنين إنني أحسن فهمه، ولست ألومه أيضا على تفكيره، فله عذره ينبغي أن يضحي أحدنا، و يرضى بالتوظف الآن .. و هذا هو واجبي أنا[1]".

يجسد سلوك حسنين أنساق القيم الذاتية، و قوامها إشباع الحاجات النفسية، و الاجتماعية الفردية، و الخلاص الفردي، و يكشف عمق المعاناة من الحرمان المادي، و التطلع للقضاء على التوتر الناجم عنه؛ لذلك يسعى لإقناع أخيه بتبني قيم التكافل الاجتماعي؛ لحمله على ترك التعليم الجامعي، و مباشرة الحياة العملية؛ بحكم ما يترتب عن ممارسته للعمل من إشباع للحرمان الاجتماعي؛ أما استكماله للتعليم؛ فينجم عنه إطالة أمد الحرمان.

لعل ما حدا بحسين لممارسة سلوك التضحية بطموحه العلمي، و الاجتماعي عمق ارتباطه العاطفي بأمه، و بأفراد جماعته الأسرية، و استعاض عن تحقيق ذاته في الطموح العلمي بتحقيق ذاته في التضحية بطموحه العلمي، و يتخلى عن الاستحسان الذي سيحظى به عند إنجاز طموحه العلمي، لينال الامتنان، و التقدير لدى إشباع حاجات جماعته الأسرية، لا سيما و أن القيم الاجتماعية؛

---

[1] بداية و نهاية ، ص 178 - 179.

تستحسن سلوك التضحية بوصفه دلالة على التحرر من التمركز على الذات، و تغليب المصلحة العامة على المصالح الذاتية، و التحكم في دوافع الذات و صراعاتها[1] .

إذا كان حسين قد جنح إلى سلوك التضحية لتحقيق ذاته، فأخوه حسنين أراد تحقيق ذاته عن طريق استكمال تعليمه الجامعي، و من ثمة يبدو دافعهما واحدا؛ لكن سلوكهما مختلف تماما. و لعل الإشباع؛ الذي تلقاه حسين في طور الطفولة؛ زوده بالقدرة على تجسيده في علاقته بالآخرين، بينما التدليل، الذي عومل به حسنين، ضخم تصوره النرجسي لذاته، و ربما كان شعوره بالدونية؛ هو ما حمله على الإصرار على استكمال تعليمه الجامعي من أجل التخفيف من تصوره السلبي لذاته. و ينم سلوك الأخوين معا عن عمق الغيرة، التي يشعر بها كلاهما نحو الآخر، مما يحدوهما إلى التنافس بصورة ضمنية على استقطاب حب الأم، حيث يعمد حسنين إلى اتخاذ دور الأب المتسلط بحثه لأخيه على العمل لإعالة الأسرة، و بذلك يشبع حاجته إلى التسلط، و الاستعلاء متخذا القيم الاجتماعية الإيجابية، التي يتسم بها خطاب السلطة الأبوية – ذريعة لمواراة ميوله في ممارسة دور الأب الغائب، واستدرار حب الأم معا. يستجيب حسين استجابة تقلب الأدوار، حيث يتخذ دور الأب الطيب متماهيا بصورة أبيه الغائب، و يزيح أخاه من موقعه السلطوي، و يقبل بالتضحية، التي تكرس وصايته الأبوية على الأسرة بوصفه جديرا بنيابته في ممارسة السلطة الأبوية، و في الاستمتاع بحب أمه أيضا، مما يضفي عليه اتزانا نفسيا، نجم عن حسمه ميوله التنافسية الأوديبية مع أخيه.

عقدة الذنب و توقع العقاب

في سياق حديث الأم لابنها حسين المزمع على السفر إلى طنطا يرد ذكر زواج نفيسة عرضا فيتملكها شعور حاد بالخوف "و غابت الحجرة عن عينيها، فخيّل إليها أنها تراهم، و قد أحدقوا بها في ثورة جنونية، و قد جحظت أعينهم ملتهبة بنار الغضب، ثم انقضوا عليها كالوحوش، و هزت رأسها لتطرد عنها أشباح هذه الأوهام المرعبة فعادت إلى حاضرها، و لكن سرعان ما وجدت نفسها تتذكر على الرغم منها ساعات ضعفها، تلك الساعات التي تذهل فيها .....هنالك تنسى كل شيء إلا الرغبة المحمومة الجائعة" [2].

---

[1] عبد الفتاح محمد دويدار: **في الطب النفسي المرضى الإكلينيكي**، دار النهضة العربية، بيروت، 1994، ص 51 .

[2] **بداية و نهاية** ، 195.

لعل ما أذكى فيها هذا التوتر النفسي شعورها بالإثم من جراء اختلاف تصورها السلبي لذاتها بوصفها منفضوضة البكارة، تمارس البغاء سراً، لا أمل لها في الزواج، عن تصور أهلها لها باعتبارها عذراء، عفيفة، معقود عليها الأمل بالزواج. كما أن وعيها بعدم إمكانية تحقيق الدور الاجتماعي المنوط بها عمق شعورها بالدونية، و شعورها بالإخفاق، لا سيما و أن عزوبتها بمثابة فشل في تحقيق التوقعات الاجتماعية المتمثلة في الزواج، و الإنجاب رديف التجانس الاجتماعي.

تكشف الهلاوس البصرية، التي تمثل أهلها محدقين بها عن عقدة ذنبها، التي جعلتها تتوقع العقاب؛ بوصفه رغبة لا شعورية كفيلة بتلطيف توترها النفسي، فضلا عن كون العقاب؛ يطهرها من وصمة العار التي قد تلازمها ما لم تتلقاه. كما أن توقعها للعقاب؛ قد ينم عن خوفها اللاشعوري من انفصام روابطها الأسرية لدى انكشاف حقيقة انحرافها السلوكي؛ لأن انفعال الخوف -ككل الانفعالات- قد يجعل الخائف مدركا للواقع إدراكا مضطربا حيث "أننا كثيرا ما نخدع أمام تأثير المشاعر القوية أو الدوافع، أو الانفعالات المستثارة إلى حد أننا قد نرى أشياء لا وجود لها في الواقع، فالمحب تحت تأثير الحب، و الكاره تحت تأثير الكره، و الخائف تحت تأثير شدة الخوف، قد يرى كل منهم أشياء، أو يتصور أحداثا، أو يتخيل أوصافا، أو يدرك خصائص إيجابية، أو سلبية لا صلة لها بالحقيقة" (1).

لعل استدعاءها للحظات النشوة الجنسية في بؤرة الذاكرة، كان بمثابة تبرير لا شعوري لسلوكها الجنسي المنحرف، حيث كلما استولى عليها الشعور بالذنب، التمست في المتعة الجنسية مبررا كافيا لانحرافها، مما يصم موقفها من انحرافها بالثنائية الوجدانية، التي تتمثل في استهجان أناها الأعلى له، و استمتاع عقلها الباطن به. و من ثمة يتبين لنا أنها كانت تمحو ألم الحرمان بلذة الإشباع، التي تمحوها آلام الشعور بالإثم، مما يحدوها لممارسة السلوك الجنسي تخفيفا من عقدة الذنب، و هكذا يظل سلوكها المنحرف خاضعا لهذه الدينامية النفسية اللاواعية، التي تفصم صلتها بالسواء و تصمها بالشذوذ و تجعلها مومسا تقايض المتعة الجنسية بالمكاسب المادية.

الشعور بعار الانتماء الأسري

كان حسنين بحاجة إلى تسديد رسوم التسجيل في الكلية العسكرية، التي أراد الانتساب إليها بعد نجاحه في شهادة البكالوريا، و من ثمة؛ فقد اضطر للاستعانة بأخيه حسن، الذي كان يقيم مع

---

(1) حامد عبد العزيز الفقي: **سيكولوجية الفرد في المجتمع**، دار القلم، الكويت، 1984، ص 17.

عشيقة له في أحد الأحياء البائسة، و يرتزق من عمله كفتوة مكلف بحماية مقهى صديقه على صبري من عدوان العصابات، فضلا عن ممارسته الاتجار بالمخدرات، و قد وقف حسنين على مظاهر الانحراف الاجتماعي التي تردى فيها أخوه، مما جعله يحاور نفسه قائلا: " حياة حسن فضيحة يجب التستر عليها، و لعل ما خفيّ منها أدهى و أفظع، و قطع الطريق متفكرا مغتما يلفه إحساس بالاشمئزاز والخوف. لم يكن بوسعه أن ينسى جميله و لا ما أبداه نحوه من عطف أخوي، و لكنه لم يستطع كذلك نسيان المرأة و الرجل المشوهين، و الندبين الخطرين، نقش هذا كله على صفحة قلبه بمداد التقزز و الرعب، رباه لقد انقلب حسن إلى نوع آخر من الآدميين، لم يعد من الأسرة و لا من المجتمع الذي يعرفه"[1].

يبدو أن ما زرع فيه الشعور بعار انتمائه الأسري إلى أخيه؛ كونه قد رأى بعض القرائن المدللة على الانحراف الاجتماعي؛ كالندوب المرسومة على وجوه الرجال، الذين رآهم في بيته، و هي وصمة عار يتسم بها أفراد عصابات اللصوصية، و التهريب، بحكم ما يسود الجو النفسي لجماعاتهم الهامشية السلبية من عنف، و عدوان، يجعلهم يحتكمون للعنف الجسدي حسما للنزاعات الناجمة عن تفاعلهم الاجتماعي على هامش المجتمع، حيث لا تطالهم قوانين الضبط الاجتماعية، التي تمارسها الرقابة الاجتماعية.

يعزى شعور حسنين بالعار إلى تصوره لذاته المثالية النرجسية، التي لا تتوافق و صورة أخيه السلبية؛ بحكم كون صورة أخيه امتدادا نفسيا، و قرابيا لصورة ذاته، مما يجعله رازحا تحت وطأة انحرافه السلوكي، حيث يشعره بالإثم، و الخوف، و العار من جراء تهديده للمكانة الاجتماعية، التي يتوق إلى تحقيقها عن طريق انتسابه إلى الكلية العسكرية. و تعمق انجراحه النرجسي بازدواجية موقفه النفسي من أخيه، حيث اختلطت مشاعر الحب الأخوي النابعة من رابطة القرابة الدموية بمشاعر الاستهجان، و العار المترتبة عن أنماطه السلوكية المنحرفة، و تضاعفت أزمته النفسية؛ بحكم احتياجه لدعمه المادي ذي المصادر المشبوهة.

يتضخم شعوره بذاته عند تخرجه من الكلية العسكرية برتبة ضابط شرطة، و ينمو فيه الشعور بعار انتمائه الأسري المترتب عن عمل أخته في الخياطة، و إقامته في حي شعبي فقير، و انحراف سلوك أخيه، و يمارس نفوذه بوصفه ضابطا لإزالة مصادر تهديد أمنه النفسي، و مكانته الاجتماعية بحمل أخته على ترك الخياطة، و الانتقال للإقامة في حي راق فصما لروابطه الاجتماعية بالطبقة المسحوقة،

---

[1] **بداية و نهاية** ، ص 242 – 243.

و التقرب من الطبقة المترفة، التي كان أناه النرجسي يتوق للتماهي بها، و الانتماء إليها. كما أن سلوكه يعد عملية تكيف مع الدور الاجتماعي المسند إليه؛ بحكم الحراك الاجتماعي، الذي حققه، مما يقتضي منه تغيير أنماطه السلوكية، و الاستهلاكية بما يتوافق و الموقع الاجتماعي الجديد، لا سيما وأن الشخص الحديث عهد بالصعود الاجتماعي؛ قد يعمد إلى فك ارتباطه بالمواقع الاجتماعية المتدنية، التي كان منتميا إليها. لذلك يسعى حسنين إلى تعديل سلوك أخيه المنحرف؛ بحيث يتوافق سلوكه وأناه النرجسي، و ينصحه بترك الاتجار بالمخدرات؛ لكنه يرد عليه ساخرا:

"-بفضل حياتي غير الشريفة أمكنني أن أدفع عن أسرتنا غائلة الجوع، و أن أزود أخاك حسين بما كان في حاجة إليه كي يباشر عمله الحكومي، و أن أهيئ لك قسط المصروفات الذي جعلك ضابطا و الحمد لله[1]."

عندما ييأس من إقناعه بضرورة ترك عالم المخدرات يخوفه من عواقبها الوخيمة قائلا:

"-ألا تدري ما النهاية المحتومة لحياتك؟..

فقال متهكما في بساطه :- أن أسجن أو أقتل..."[2] .

هكذا يداري حسن توتره النفسي عن طريق الضحك، و السخرية بأخيه، و هو سلوك عدواني مقنع؛ مارسه من باب الانتقام منه، لأنه أثار بنصائحه شعوره بالإثم و الدونية، مما حداه لرفض سلوك التطويع لإرادته، و التعديل لسلوكه، لا سيما و أنه رأى في نصائح أخيه مظاهر تأكيد الذات -باعتباره الأشرف و الأقوى- يراد بها احتواءه نفسيا في المجال الاجتماعي، الذي يخدم أناه النرجسي، و مكانته الاجتماعية.

يعمد حسن إلى نفي شبهة الانحراف عن سلوكه بتعداده نتائجه الإيجابية على الجماعة الأسرية في الماضي، و الحاضر، و يفرغ هذا التبرير الإدانة الأخلاقية من جوهرها؛ بحكم إيجابية غايته، على الرغم من سلبية وسيلته، و يسفه القيم الاجتماعية المقبولة شأن الشرف، و الكرامة، والاستقامة، ويمجد كسب الرزق؛ باعتباره جديرا بأن تستباح من أجله كل الوسائل .و ما دامت أنساق القيم الاجتماعية المقبولة قد استهجنت سلوكه، و جرمته، و ألغت احترامه لذاته، و احترام الآخرين له، فآلية دفاعه عن نفسه، تنقل القيم الاجتماعية من مستوى كونها قيما مقبولة إلى مستوى كونها قيما

---

[1] **بداية و نهاية** ، ص 293 - 294.

[2] م.ن : ص 294.

مرفوضة، و تحكم عليها بالعقم، و تجردها من التقدير الاجتماعي، الذي تحظى به لدى أكثر فئات المجتمع.

يبدو أن سلوكهما الاتصالي لم يحقق وظيفته، بحكم صدورهما عن نسقين قيميين متناقضين، حيث يتبنى حسنين القيم الاجتماعية السائدة، التي تتبناها معظم المؤسسات الإجتماعية، و تمارس فرضها بالإقناع، أو بالإكراه على شتى أفراد المجتمع، بينما أخوه يصدر عن نسق قيمي سلبي سائد في الجماعات الفرعية الهامشية شأن جماعات اللصوص، و البغايا، و تجار المخدرات .. و كلا النسقين القيميين لا يحظى بالتقدير الاجتماعي، و لا بالقابلية للامتثال لدى كليهما، حيث ما يبدو شرفا، وكرامة في نسق القيم الاجتماعية المقبولة، لا يبدو كذلك لدى الجماعات الهامشية السلبية .

و من ثمة، فليست القيم الاجتماعية؛ هي التي تفرض نفسها على الأفراد، بل طبيعة تفسيرهم لها، و موقفهم منها، حيث يمارس المنحرف أنماط سلوكه الإجرامي، و هو لا يراه إجراما؛ بحكم ما يترتب عنه من نتائج إيجابية عليه، و على جماعته المرجعية.

يتمثل دور القيم، و المعايير السلبية في الجماعات الهامشية في توجيه سلوك أفرادها، و تبرير وجودها، و حفظ توازنها الداخلي، و التوازن النفسي لأفرادها عن طريق ما يتم تزويدهم به من التبريرات القيمية لسلوكهم المضاد للمجتمع.

لعل تحقيق "حسن" إشباع حاجاته النفسية، و الاجتماعية للحب، و الجنس، وتوكيد الذات، و المكاسب المادية، وتقدير أفراد جماعاته الهامشية؛ هو ما عَمّقَ انتماءه إليها، و امتصاصه لقيمها، وذلك ما لم يحققه في جماعته الأسرية، وجماعته المدرسية، وجماعته المهنية عندما كان يعمل في البقالة وورشة السيارات. و من ثمة كانت محاولة حسنين تعديل سلوك أخيه حسن غير ذات جدوى؛ لأنها لا تستند لا على قيم تحظى بتقدير أخيه، ولا على اشباعات لحاجاته الأساسية، مما جعل سلوكه الاتصالي سلبيا زاد علاقتهما سوءا بحكم عدم اعتراف كليهما بشرعية المعايير الاجتماعية للآخر.

يكون فسخ حسنين خطبته لبنت الجيران بمثابة استجابة شعورية، ولا شعورية لاتجاهات أفراد جماعته المرجعية نحو خطيبته، بوصفها ذات ملامح ريفية، تفتقر إلى الجمال، و الأنوثة، مما جعله يدرك أن تصوره لها يختلف بمراحل عن صورتها لدى الآخرين، بحيث لم يعد اصطحابه لها في النزهات مجلبة لتوكيد الذات،و الفحولة الجنسية، بقدر ما هو رديف الدونية، و العار،و الإخفاق في الاختيار. ومن ثمة يتبين لنا أن اختياره لها كان نرجسيا في جوهره، إذ يتوخى من علاقته بها جلب تقدير الآخرين له؛باعتبارها أداة استعراض مظاهر وجاهته الاجتماعية ؛ لكنها بمجرد أن عجزت عن أداء هذا الدور

مالت عواطفه للفتور، لاسيما و أن الارتباط العاطفي النرجسي؛يقوم على الحاجة إلى التماثل بين طرفي العلاقة، حيث يميل الرجل الوسيم؛ أو الذي يتصور نفسه وسيما إلى المرأة الجميلة، أو التي يتصورها كذلك؛ بحكم حاجته النفسية لعقد العلاقات مع من يشبهونه.[1]

لعل تزامن فسخه الخطبة، وتخرجه من الكلية برتبة ضابط دلالة على رغبته في الانسلاخ عن جذوره الاجتماعية، التي تربطه بسفح الهرم الطبقي؛ رديف عار انتمائه الاجتماعي، فضلا عن سوء توافقه النفسي مع خطيبته، وتأثير الحراك الاجتماعي على روابط العاطفية بها، و انقياده لإيحاء جماعته المرجعية، الذي حداه للانفصال عنها. كما أن السلوك الإنساني من طبيعته التغير على الرغم؛ مما فيه من عناصر الثبات؛ بحيث ما يستهوي الفرد في مرحلة من العمر،قد لا يعجبه تماما في مراحل؛ أخرى بحكم خضوعه لعوامل التغير الفيزيولوجية و الاجتماعية،و الثقافية، و الجنسية، التي تمارس أثرها على سلوكه، وعلاقته بذاته، و بالآخرين على حد سواء. وليست العواطف إلا عنصرا من عناصر البناء النفسي القابلة للتغير بحكم خضوعها لمراحل البزوغ، و التوهج،و الانطفاء ..[1]

قد يكون صعوده الاجتماعي؛ هو ما جعله يعيد النظر في معاييره الاجتماعية،وأذواقه،وتفضيلاته، ويسعى إلى تدعيم حراكه الاجتماعي عن طريق مصاهرة أسرة من الطبقة المترفة؛تختلف عن أسرة خطيبته، التي بات يرى في مصاهرتها تهديدا لاناه النرجسي، وتطلعاته الاجتماعية أيضا، وعجزت أسرته عن منعه من فسخ الخطبة؛ بحكم خضوعها لوصايته الاجتماعية.

يمنى حسنين بثلاث صدمات نفسية فاجعة، تتمثل أولاها في الرفض، الذي تلقاه عند طلب مصاهرة أحمد بك يسرى- و هو ذو وجاهة و نفوذ- لاسيما و أن حيثيات الرفض تتعلق بانحراف أخيه حسن، وممارسة أخته الخياطة، مما فجر فيه كوامن الشعور بعار انتمائه الأسري، وقد صدمه الرفض، على الرغم من عدم تعلقه بابنته، لأنه كشف له عن حقيقة صورته الاجتماعية الشوهاء المتناقضة ؛وصورته المثالية عن ذاته، لاسيما و أنه كان يتوخى بمصاهرة هذه الأسرة الوجيهة التحرر من عقدة انتمائه الأسري، لكنه يقف على الحقيقة الفاجعة، التي تتمثل في أن الحراك الاجتماعي، الذي حققه كان مفرغا من محتواه النفسي و الاجتماعي؛ لأنه لم يفض إلى إشباع حاجاته الأساسية، بل زرع فيه صدمتي الإخفاق، و الخصاء، اللتين لم يكن يستشعر أثرهما في وجدانه، تتمثل صدمة الإخفاق الاجتماعي في وعيه بتعذر انسلاخه عن جذور انتمائه الأسري، بحيث يلازمه عار انتمائه مهما ارتفع مستوى حراكه الاجتماعي؛ الذي يمكنه أن يعيشه كمظاهر خارجية؛ لا مضمون نفسي

---

[1] وليم.و . لامبرت: **علم النفس الاجتماعي**،ص 165.164 .

[1] زكريا إبراهيم : **مشكلة الحب**، مكتبة مصر ،القاهرة،1972،ص 231

لها، أما صدمته الأخرى؛ فتتمثل في ارتباط رفض المصاهرة بالشعور بالخصاء الجنسي؛ لأن قبول المصاهرة بمثابة مباركة للعلاقة الزوجية؛ رديف العلاقة الجنسية، التي تعزز الثقة بالفحولة، بينما يرمز رفض المصاهرة إلى منع العلاقة الجنسية؛ مما يورث الشعور بالخصاء الجنسي.

أما الصدمة النفسية الثالثة، التي أجهزت على اتزانه النفسي، فتتمثل في ضبط شرطة الآداب العامة أخته نفيسة؛ و هي تمارس البغاء في شقة امرأة يونانية، و استحوذت عليه لدى تلقيه الخبر الفاجع حالة شعورية متشكلة من شحنات انفعالية مختلفة كالخوف، وهو الشعور بخطر فقدان الكرامة، و المكانة الاجتماعية، و القلق و هو الشعور بخطر غير معين، و الحيرة و هي الشعور بغموض الموقف، و انعدام إدراك التصرف المناسب اتجاهه. و كان ذهوله دلالة نفسية على عدم استعداده العقلي، و النفسي للقيام بأي سلوك اتجاه هذا الموقف الغامض على إدراكه المشوش من شدة الانفعالات المتناقضة، فضلا عن كون ذهوله، يشي بالخلل، الذي أصاب محتويات الاتجاه السلوكي، حيث يمر الاتجاه السلوكي في موقف معين بثلاث مراحل هي: إدراك الموقف، و الشعور نحوه، فالتروع العملي اتجاهه[1].

كما أن إداركه المشوش للموقف نجم عما يكمن فيه من تناقض، حيث يتشكل من شخصية الأخت بوصفها كائنا محبوبا، و قد اقترنت بها تهمة الدعارة المستهجنة، أما شعوره؛ فقد كان متناقضا بين العطف عليها، و السخط على سلوكها، و بين التستر عليها، أو الانتقام منها.و هذه الثنائيات الوجدانية، و السلوكية المتناقضة أفقيا، و عموديا، هي التي جعلته في موقف ذهول عطل استجابته السلوكية اتجاهها.

السلوك الانتحاري

بعد تلاشي ذهول حسنين؛ أدرك الموقف المأساوي الفاجع، حيث طالعته الأخت؛ و قد تخلت عن دورها الاجتماعي المتوقع منها، باعتبارها كائنا مجردا من الأبعاد الجنسية، وصارت مومسا ملوثة بالإثم و العار، تعمق جراحه النرجسية، و تدمر مكانته الاجتماعية، و تزيد صورة ذاته تشويها، وحراكه الاجتماعي خواء، لا سيما و قد كان "يعيش وضعيته كعار وجودي يصعب احتماله، أنه في حالة دفاع دائم ضد افتضاح أمره.افتضاح عجزه و بؤسه، و لذلك فالسترة هي إحدى هواجسه الأساسية ، إنه الكائن المعرض، و يخشى أن ينكشف باستمرار، يخشى ألا يقوى على الصمود، يتمسك بشدة بالمظاهر التي تشكل ستارا واقيا لبؤسه الداخلي، هاجس الفضيحة يخيم عليه

[1] علي احمد علي: **أسس العلوم السلوكية و النفسية**، مكتبة عين شمس، القاهرة، ص 50 - 51.

.....حساسية مفرطة جدا، لكل ما يهدد المظهر الخارجي، الذي يحاول أن يقدم نفسه من خلاله للآخرين .و لذلك فإن جدلية الحياة الحميمية، و المظاهر الخارجية، جدلية ما يخفى و ما يعلن، تجعله يعيش حالة امتحان دائم، و تهديد دائم بفقدان توازنه من خلال فقدان دفاعاته، و تعرى حياته الحميمية التي يجتر مأساها بصمت و ألم"[1].

هكذا تفجر هذه الفضيحة الأخلاقية كوامن شعوره بعار انتمائه الأسري، التي كبتها بحكم عجزه عن مواجهة الموقف، لكن انحراف سلوك أخته الجنسي؛ استفز نزعته العدوانية التدميرية، التي كانت تحتدم في طوايا نفسه دون أن تجد مجالا يستوعبها، فسلطها على أخته مدفوعا بآلية الإبدال، التي تتمثل في استبداله أخيه القوي بأخته الضعيفة، لا سيما و أن القيم الاجتماعية، ترى المرأة –الأم، الأخت، و الزوجة، و البنت- باعتبارها تجسد شرف الرجل و عاره، لذلك "يربط الشرف بها، ويسقط العار عليها، يصل الأمر حدا من التطرف؛ يجعل القتل مبررا، و معترفا به اجتماعيا، تحت اسم "جناية الشرف"، و مبررا لأنه يعتبر انتفاضة مشروعة لاستعادة الكرامة، و السمعة اللتين هدرتا[2]" .

لذلك عندما يحاول قتل أخته تقول له:

"-لا ينبغي أن يمسك عقاب و إن هان، ثم بماذا تجيب إذا سئلت عما دفعك إلى قتلي؟! دعني أقم أنا بهذه المهمة، فلا يكدرك مكدر، و لا يدري أحد ...

فتساءل فيما يشبه الذهول :

-تقتلين نفسك؟!

فقالت و هي تلهث :-نعم"[3].

ينطوي اقتراحها الانتحار بإغراق نفسها في النيل على رغبتها اللاشعورية في إشعار أخيها بالذنب؛ لكونه حملها على الانتحار؛ بحيث تنتقل من دور الجانية المجرمة إلى دور الضحية المأسوف عليها، كما أن رغبة أخيها في قتلها أشعرتها بانفصام الرابطة الدموية، التي تربطهما معا؛ مما جعلها تتخذ الانتحار شكلا من أشكال العقاب الذاتي؛ وليد شعورها بالذنب و العار، لعلها تستدر عطفه وندمه، ما دامت لا تستطيع الاستمتاع بحبه؛ و حمايته.

---

(1) مصطفى حجازي: **التخلف الاجتماعي**، ط2، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1980، ص 44.

(2) حجازي، مصطفى : **التخلف الإجتماعي** ، ص 45.

(3) **بداية و نهاية** ، ص 370.

هكذا تتقمص خلال السلوك الانتحاري شخصية "الحبيب المكروه" الذي توحي به شخصية أخيها الجافي، أو الآخر المحبوب، الذي تعلقت به، لكنه أحبط حاجتها إلى الحب، و الزواج، والأمومة، و التقدير الاجتماعي، لأن خيانة الرجل المحبوب؛ تولد أشد عواطف المقت تدميرا له، وللذات على حد سواء، حيث يمتص الأنا -أثناء عملية الانتحار- موضوع الكراهية، و العدوان، ويقوم بإبدال الشعور بالكراهية، و العدوان الموجه ضده بإسقاطه عليه داخليا بعد امتصاصه، وتوحده مع الأنا، فيقع العدوان على الأنا، و لذلك يدمر الإنسان نفسه بديلا عن الآخر، مما يجعل الفعل الانتحاري في هذه الصورة يمثل أصلا عدوانا ضد الآخرين - أشخاص معنيين أو المجتمع ككل- هو عدوان تولد في الذات، ثم انعكس ضدها و دمرها[1]" .

يتملك أخوها حسنين شعور فاجع بالذنب بعد انتحارها، و يطغى عليه الشعور السوداوي بالحداد لفقدان أخته؛ بحكم ضلوعه في حملها على الانتحار، و شعوره بعقم الحياة، و عبث استمرارها، و تعطلت قدرته على التخيل، و الإدراك، و التذكر، مما يسوقه للانتحار بإلقاء نفسه في النيل.

يبدو أن انتحارهما معا؛ كان نتيجة إحباط حاجتهما لتحقيق الذات، و المكانة الاجتماعية، وإخفاقهما في إنجاز الدور الاجتماعي المنوط به إشباع حاجاتهما النفسية، و الاجتماعية، مما حداهما للسعي لتجنب احتقار الآخرين، و اضطهادهم، لا سيما "و أن للمكانة دورا سحريا يربط الإنسان بمحيطه فإن تهددت، و انفصمت كان معناها الموت الأدبي، أو الموت الحقيقي"[2].لذلك كان انتحارهما امتدادا لموتهما النفسي، و الاجتماعي، و الأخلاقي؛ فضلا عن ذلك؛ فقد كانت شخصيتاهما عاجزتين عن امتصاص شحنات إحباط أخرى، لأن حياتهما كانت سلسلة من الخيبات، و الإحباطات، مما استنفد طاقتهما العصبية و النفسية، و أجهز على صورة الذات المثالية لكليهما، وشوهها في نظر الذات، و في نظر الآخرين على السواء، بحيث يغدو الانتحار سلوكا هروبيا من حياة تزيد فيها نسبة الإخفاق، و الإحباط على نسبة النجاح و الإشباع، مما يجعلها غير جديرة بالحرص عليها، و لا بالاستمرار فيها .

---

[1] مكرم سمعان : **مشكلة الانتحار** ، دار المعارف بمصر، 1964، ص 66.

[2] م.ن : ص 53.

عقدة الشعور بعار الانتماء إلى الأم الآثمة

تمارس أم صابر -في رواية الطريق- عملا منحرفا يدر مالا كثيرا؛ يتمثل في إدارة بيوت الدعارة، مما يعرضها للوقوع تحت طائلة القانون، و يزج بها في السجن، و تصادر ممتلكاتها. و يتعرض ابنها صابر لمواقف استهجان اجتماعي لدى اتصاله بأفراد محيطه؛ يراد بها حمله على ضبط سلوك أمه عن طريق إشعاره بالذنب؛ بوصفه مسئولا عن انحرافها .

كانت تبعيته الاجتماعية لأمه؛ هي ما منعه من الاحتجاج الأخلاقي عليها، لأنها مصدر إشباع حاجاته الأساسية، مما جعله يتحرج من مواجهتها بحقيقة الشائعات الرائجة حول سلوكها، التي شوهت صورتهما الاجتماعية لدى الرأي العام. و لعل ما تلقاه من عقاب على ثوارته الانفعالية خلال مرحلة الطفولة عاقه عن مكاشفة أمه مخافة تعرضه لنقمتها، لذلك جنح إلى كظم مشاعره السلبية اتجاهها تلافيا لما يتمخض عنها من حرمان إشباع حاجاته الأساسية، كما أن تعلقه بها أسبغ على صورتها مسحة مثالية؛ جعلته لا ينظر إليها كما يراها الآخرون؛ باعتبارها مومسا تدير بيوت الدعارة، لذلك شكا لها بعد خروجها من السجن قائلا:

"-كم شمت بي الأعداء في غيابك!

-صابر تجنب الغضب .. إنه الغضب الذي أدخلني السجن فما كان أسهل عليّ أن أرضى الوغد الذي غدر بي..

-في كل مكان أصادف من يستحق السحق..

-دعهم يقولون ما يشاؤون و لكن لا تستعمل قبضتك..

فكوّر قبضته قائلا:

-لولا هذه القبضة لعرضوا بي في كل مكان، أن أحدا لم يجرؤ على ذكرك بسوء أمامي و أنت في السجن.

فنفخت الدخان في غضب وقالت:

-أمك أشرف من أمهاتهم، إني أعني ما أقول، ألا يعلمون أنه لولا أمهاتهم لبارت تجارتي..؟"[1].

يبدو أن ما يحدوه إلى إستعراض قوته العضلية أمام أمه حاجته لتوكيد قوة ذكورته مداواة لشعوره بالضعف من جراء تبعيته لها، فضلا عن كونه مدينا لها بما لا يستطيع الوفاء ببعضه، مما يحمله على تضخيم دوره الاجتماعي؛ باعتباره حامي أمه من عدوان الآخرين، لعل ذلك يخفف عنه ثقل

---

[1] نجيب محفوظ: **الطريق**، مكتبة مصر ،ص 9-10.

أفضالها عليه. كما أن الشبهات المحيطة بسمعة أمه بخست تصوره المثالي لذاته؛ فعمد إلى استعراض قوته الجسدية أمام الآخرين؛ كشكل من أشكال التعويض عن ضعف قيمته المعنوية، و ينتقل بالتالي من موقع المعرض للتبخيس الاجتماعي إلى موقع المهدد بالعدوان الجسدي، و ينم سلوكه العدواني على التوتر النفسي وليد إحباط حاجته للتقدير الاجتماعي.

تشعر الأم بالإثم من جراء شكوى ابنها، مما لحقه من أذى بسببها، فيعمد عقلها الباطن إلى آلية الإسقاط، حيث تسقط صورة ذاتها الآثمة على كل نساء الحي، و تتهمهن بالانحراف الجنسي لتلطف شعورها بالدونية، و الإثم، و تحرر ابنها من عار انتمائه إليها؛ بإقناعه بتجانس سلوكها والسلوك الجنسي لنساء الحي. و من ثمة؛ فهي لا تنفي التهمة، بل تسعى إلى تعميمها لإفراغ الانحراف من مضمونه النفسي السلبي، باعتباره قاسما مشتركا بين كل النساء، بحيث تنتفي الفروق بين العفة الجنسية، و الدعارة، و يتعذر التمييز بينهما، و ينم ذلك عن كونها تصدر عن الجو النفسي السائد في الجماعات الهامشية السلبية، التي تزود المنحرفين بالتبريرات النفسية، التي تحفظ توازنهم النفسي، وتدعم انتماءهم إليها بتجريد الانحراف من الطابع الإجرامي الآثم، و إضفاء الشرعية، و المعقولية عليه.

تبرئة الأم الآثمة لذمتها :

تجد أم صابر نفسها عاجزة عن الإنفاق على ابنها بعد إطلاق سراحها من السجن، ومصادرة ممتلكاتها، فضلا عن ملازمتها الفراش إثر إصابتها بمرض اشتدت وطأته عليها، و لعله ذو جذور نفسية لكونه أعقب انهيار مكانتها الاجتماعية. و لذلك توصي ابنها، و هي على فراش الموت بالبحث عن أبيه، الذي انفصلت عنه منذ ثلاثين عاما، عساه يجد لديه الانتماء، و الحماية الاجتماعية، و تزوده بشهادة الزواج، و صورة الزفاف ليستظهر بهما عند الاقتضاء. يبدو أن غريزة الأمومة؛ هي التي حدتها لحث ابنها على البحث عن أبيه؛ على الرغم من كونها عملت طيلة ثلاثين عاما على إنكار وجوده، وطمس هويته في وعي ابنها، بحيث جعلت من نفسها مصدر وجوده، و محوره من جراء رواسب سوء توافقها مع زوجها، فاتخذت ابنها مجالا للتنفيس عن حقدها المكبوت عليه.

و قد يكون حثها لابنها على البحث عن أبيه؛ بمثابة حنين لا شعوري إليه، لا سيما و أن عهد ارتباطها به؛ كان خاليا من التحديات، التي تواجهها حاليا، مما جعلها تتخذ من ابنها وسيلة تسترد بها الحماية الاجتماعية، التي ضاعت منها بعد إفلاسها المادي، و المعنوي.

لعل اعترافها بوجود أبيه؛ مجرد آلية دفاع عن ذاتها المبخسة من جراء الاستهجان الاجتماعي، الذي أحاط بها، لتسترد اعتبارها لذاتها، و تعزز ثقة ابنها فيها، رديف ثقتها في نفسها، و تنفي بالتالي

عن نفسها صورة المومس الآثمة، و تسبغ على ذاتها صورة الأم الفاضلة؛ حفاظا على علاقتها العاطفية به، لا سيما و أن تشويه الآخرين لصورتها الاجتماعية؛ قد يفضي إلى انفصام علاقتها به.

كما أن مرضها قد ولد فيها هاجس الموت؛ بما يصاحبه من شعور بالذنب في حق زوجها، فاتخذت من توصية ابنها بالبحث عن أبيه وسيلة للتخفيف منه، بحيث يحل اتصال ابنها بأبيه؛ محل اتصالها بزوجها. و يستجيب صابر لوصية أمه؛ بحكم حاجته النفسية للانتماء إلى أبيه، ليتحرر من عقدة الشعور بعار انتمائه إلى أمه المومس، فضلا عن حاجته الاجتماعية إليه؛ لأنه لا يملك مالا، و لا عملا، و لا مؤهلا علميا، مما رفع مكانة والده في وعيه إلى مستوى الخلاص الاجتماعي من واقعه التعيس، لا سيما و أن أمه قد ذكرت له أنه من كبار الأغنياء في الإسكندرية.

التعلق بالآخر المحبوب

عند دخول صابر أحد فنادق الإسكندرية رآها، فطغت على بؤرة ذاكرته صورة فتاة كان قد احبها منذ عشر سنين "إنها تذكره بها بعنف تاركة له تخيل ما صنع الزمن في عشر سنين، أو يزيد. والاسم القديم ضائع كأبيه. و لكن رائحة البحر تملأ خياشيمه ... و هاهو يرتجف لتذكر الليل البهيم، و رغم ذلك كله، فقد ظل أبعد ما يكون عن اليقين و بنت العطفة ذكرى عابرة لا قيمة لها، و لكنها تبعث الآن في صورة فريدة ذات سطوة خطيرة الشأن كبعث أبيه من الموت الذي جاء به البحر إلى هذه المدينة المثيرة .. استقبلت الفتاة القادم بنظرة قصيرة، ولكنها متغلغلة ثم أدارت وجهها"[1] .

يبدو أن ما استهواه فيها كونها ذات شبه بفتاة كان يحبها، و انقطعت علاقتهما، و تعرضت مشاعر الحب للكبت، و ظلت كامنة في طوايا العقل الباطن، تترصد فرص الانفلات لتحقيق الإشباع حتى ظهرت شبيهتها في أفق حياته، و تفاعل معها؛ كامتداد لتجربته الانفعالية، التي خبرها في السابق، بحكم أثر الخبرات الشعورية الماضية على الاتصال الإنساني، حيث تجعل من الاتصال بالآخر في الحاضر استمرارا للاتصال بالآخر في الماضي[2].

---

[1] **الطريق** ، ص 26.

[2] مصطفى حجازي: **الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية و الإدارة**، ط1، دار الطليعة بيروت، 1982، ص 68.

و قد ضاعف من ميله إليها وقوفه على كونها زوجة صاحب الفندق العجوز، مما ينم عن الانتقال اللاشعوري لارتباطه الأوديبي بأمه إلى بديلتها، و يعيش بالتالي تجربة حبه؛ باعتبارها امتدادا لخبرته الانفعالية الطفولية، لا سيما و أن الفرد المثبت على الموقف الأوديبي المتأزم يميل -لا شعوريا- للمرأة المتزوجة؛ لأنه يرى فيها صورة أمه، و يرى في زوجها صورة أبيه، مما يغذي خبرته الانفعالية بكل المشاعر الممتعة الأليمة، التي خبرها في طور الطفولة [1].

البحث عن الانتماء

يتعرف صابر بموظفة اسمها الهام تعمل في إدارة الإعلانات في إحدى صحف الإسكندرية، ويعرض عليها صورة زفاف أمه و أبيه، فتعلق عليها قائلة:

"-أنت تشبهه!

-تعنين الرجل ؟

هزت رأسها موافقة، و هي ترمقه بارتياب، فلم يجد بدا من اختلاق كذبة جديدة، فقال:

-إنه أخي ...

-أخوك .. معقول جدا، و لكن لماذا لم تقل لي ذلك من الأول؟

فابتسم و لم يجب، فسألته:

-و من الفتاة الجميلة ؟.

-كانت زوجته رحمها الله.

-آه .. و هل .. أعني أخاك .. كيف.

-اختفى قبيل مولدي، خلاف ثم اختفاء، كما يقع أحيانا، و أخيرا بعد ثلاثين عاما، أرسلني أبي العجوز للبحث عنه "[2].

يبدو أن إخفاءه نسبه؛ يعزى لشعوره بعار انتمائه لأب مجهول، و لأم سيئة السمعة، و يغدو الكذب وسيلة تعيد بناء العلاقات القرابية كما تقتضي القيم الاجتماعية المقبولة، مادامت لا تتجانس معها، فضلا عن كون الكذب وسيلة توكيد للذات، لا توكيد للحقيقة، لأنه يخفف توتر الكاذب، وقلقه، و يعصمه من مصادر التهديد النفسي و الاجتماعي، بحيث يزوده بقناع براق، يداري عيوبه، ويمكنه من الظهور، كما يملي عليه أناه النرجسي، لا كما هو عليه في الواقع.

---

[1] صبري جرجس: **الطب النفسي في الحياة العامة**، دار النهضة العربية، مصر، 1961.

[2] **الطريق** : ص 52 - 53.

هكذا يغدو نشر صورة زفاف أبويه في الصحف توكيدا لذاته المبخسة من جراء الاستهجان الاجتماعي، الذي واجهه به الآخرون، لا سيما و أنه بات يتلقى مكالمات هاتفية في الفندق من أشخاص ذوي جاه، و نفوذ يحملون اسم أبيه، و يدعونه للقاء من أجل التعرف به، لكنه كان يتبين في كل لقاء؛ أنهم لا يمتون إلا بصلة اسمية لأبيه المجهول، مما جعل حالته النفسية تتأرجح بين توقع إشباع حاجاته الأساسية للحب، و الانتماء، و الحماية الاجتماعية، و الشعور بخيبة الأمل، والإحباط، واليأس.

الحلم و الرغبات المكبوتة

عندما يشتد شعوره بالإحباط من جراء تعذر عثوره على أبيه المجهول؛ يرى فيما يرى النائم؛ أن أباه سيد سيد الرحيمي؛ يتصل به هاتفيا، و يضرب له موعدا؛ حيث " قدم له الصورة الجامعة بينه و بين أمه التي رأى نصفها في الإعلان، و وثيقة زواجه بأمه، و شهادة ميلاده، و شهادة تحقيق الشخصية، نظر الرجل فيها الواحدة بعد الأخرى، و هو هادئ كتمثال، و بكل برودة وضع كلا منها فوق الأخرى، و بحركة سريعة حاسمة راح يمزقها إربا؛ صرخ صابر، و انقض عليه يريد أن يمنعه، ولكن بعد فوات الأوان، أمسك بثنية الجاكتة و صاح به:

-أنت تمحو وجودي محوا فالويل لك.

فقال الرجل دون أن يخرج عن هدوئه المثير:

-أبعد عني لا تربي وجهك، دجال كأمك و لا شأن لي بك، اذهب

و دفعه عنه، فتقهقر حتى اصطدم رأسه بحافة البوفيه، و استيقظ فتح عينيه و هو يتنفس بصعوبة [1]".

هكذا؛ يحقق في الحلم رغبته في العثور على أبيه، ما دام الواقع قد عاق هذه الرغبة عن التحقق، لكن رغبته كانت ممزوجة بخوفه من عدم اعترافه به، و يتمثل ذلك في تمزيقه الصورة، والوثائق الثبوتية .

كما أن هذا الحلم، هو بمثابة إعادة إنتاج محاولات البحث اليومية، التي تنتهي دائما إلى الخيبة، و الإحباط؛ الذي ترمز إليه عملية التمزيق، لا سيما و أن "الحلم أظهر على التعبير عن الأماني، والرغبات و الحاجات و الآمال و المخاوف[2]"، فضلا عن كونه "وسيلة اسقاطية، بمعنى أننا نسقط في

---

(1) **الطريق** ، ص 69.

(2) عبد المنعم الحفني: **التحليل النفسي للأحلام**، ط1، دار ابن زيدون، 1992، ص 9، 10.

الحلم كل ما نتمنى و نرغب متحررين من أية قيود.و نخرج كل ما عندنا من المعاني، و كل المشاعر بعفوية لا يمكن أن نخبرها في أي موقف آخر[1]" .

لعل نعت أبيه لأمه بالدجل، يكشف عن أعراض عقدة الشعور بعار انتمائه إليها، رديف الحرمان و الإحباط. كما أن انقضاض صابر على أبيه؛ ينم عن ميوله العدوانية الأوديبية اتجاهه. و عن ثنائيته الوجدانية، التي جعلته يحبه حبا مشوبا بالكراهية، لكونه يمثل إشباع حاجات نفسية، و إحباط حاجات نفسية أخرى، حيث يجعله الإشباع موضوع حبه و بحثه، أما الإحباط، فيجعله موضوع كراهيته، و إجرامه، مما يدفعه لمحاولة قتله.

و يرمز تمزيق الأب للصورة، و الوثائق الثبوتية إلى خوف صابر اللاشعوري من خصاء أبيه له عقابا له على ميوله الجنسية المحرمية لأمه؛ بحكم كون حمل الصورة دلالة عليها، مما أثار عدوانية الأب على ابنه تنفيسا عن غيرته الجنسية منه، و ضبطا لسلوكه الجنسي وفق القيم الاجتماعية الأبوية، وقوامها العفة، و الصبر، و الطاعة.

دينامية الخيانة الزوجية

ظل الاتصال بينه و بين زوجة صاحب الفندق صامتا قوامه الرسائل البعدية المبثوثة عبر العيون، و لغة الجسد التعبيرية، التي تغذي ميوله الجنسية، و تشبع حاجتها لتوكيد الذات، و إرضاء الأنوثة، و كانت تتأرجح بين سلوك الإقبال نحوه، و الأحجام عنه، حيث تحدوها القيم الذاتية إلى الإقبال، و تحملها القيم الاجتماعية على الأحجام.

تدخل في إحدى الليالي غرفة نومه متظاهرة بأنها أخطأت المكان تحت جنح الظلام مداراة لميولها الجنسية، لأنها استبدلت عبارة "أخطأت التصرف" بعبارة "أخطأت المكان"، و لعلها أخطأت المكان فعلا، فتكون رغبتها الجنسية اللاشعورية؛ هي التي اقتادتها إلى غرفته، مما يجعل الخطأ اللاشعوري استجابة لرغبة مكبوتة أراد بها اللاشعور الاحتيال على الشعور، و الأنا الأعلى لإتاحة مجال إشباعها، وهكذا يغدو دخولها غرفته في منتصف الليل بمثابة إغراء جنسي مقنع، يحررها من الشعور بذنب الخيانة الزوجية، و ينم عن انحلال رابطتها العاطفية بزوجها. كما أن الليل يضعف فعالية الأنا الأعلى، و يلهب دوافع الليبدو، و ينقل مستوى اتصال المرأة بالرجل إلى مستوى الإشباع

---

[1] المرجع السابق : ص 10

الجنسي المتبادل، فضلا عن كون الليل ستاراً طبيعيا؛ يحجب نزوات الذات عن رقابة المجتمع، و قوانين ضبطه الاجتماعية .

يبدو أن إقدامها على السلوك الجنسي المنحرف، ينطوي على جملة من الـــدلالات النفســية والاجتماعية، منها عمق حاجتها الملحة إلى الإشباع العاطفي و الجنسي، بحكم كون زوجها عجـــوزا مريضا، فضلا عن فارق السن الكبير بينهما، كما أنها تعاني من شعور حاد بالدونية من جراء وعيـــها بكونها غير محبوبة، و لا مرغوبة، مما جعلها تعيش الزواج بوصفه علاقة صورية؛ تفتقر إلى مضمونهــــا الإنساني بكل عناصره النفسية، و الجنسية، و العلائقية. و هي -فوق ذلك كله- عاجزة عن ضبــــط دوافعها، و إرجاء إشباعها، فضلا عن عجزها عن التفكير المجرد، الذي يمكنها من السيطرة على ذاتها، و واقعها، و الخروج من قوقعة التمركز على الذات [1].

هكذا نجد صابر في علاقته الجنسية بزوجة صاحب الفندق؛ متنفسا للانفعالات السلبية؛ الـــتي كانت تعتمل في طوايا نفسه كالقلق، و اليأس، و الخوف، و الحرمان من جراء إخفاقه في العثور علــى أبيه، و تهديد شبح الإفلاس له .و لعل عشيقته كانت تعاني من هذه الانفعالات نفسها، بحكم حرمانها العاطفي، و الجنسي المدلل على عقم علاقتها الزوجية، لأنها لا تعدو كونها زيجة طمــــوح عصــابي؛ اتخذتها وسيلة تحقيق لتطلعاتها الاجتماعية. لذلك يغدو النشاط الجنسي صمام أمان للانفعالات الســلبية التي يكابدها الطرفان معا، حيث "يعتبر الإشباع الجنسي نوعا أساسيا، و بيولوجيا من أنواع اللــــذة، وقد تبدو الحياة اليومية للكثيرين قاتمة، و خالية من إشباعات كثيرة ذات معنى [2]"، و قـــد يغلــب عليهم الملل و الرتابة، و اليأس، و الإخفاق، مما يحملهم على العكوف على ممارسة الجنس من بــــاب التعويض، أو الترويح عن النفس.

ازدواجية الميول النفسية

يتمثل ذلك في موقف صابر من صديقته إلهام الموظفة بإدارة الإعلانات في إحدى الصحـــف، حيث كان "سمو عواطفه نحوها، يغريه بأن يجرب معها حيوانيته، و هو إغـــــراء يقترحـــه عقلـــه لا إحساسه، و هو إذ يتخيل ذلك، فإنما يتخيلها مذعورة من المباغتة، ثم تخيل نفسه مخـــذولا منـــهزما، وليس عقله وحده الذي يغريه بذلك، و لكن تقاليده في معاملة النساء، ورغبته الثابتة في العبـــث بمـــا

---

[1] كمال جندي أبو السعد: **انحراف الأحداث**، دار المعارف بمصر، 1971، ص 2، 3.

[2] جوارد ، سيدني : **الشخصية بين الصحة و المرض** ، ص 145.

يسمى بالأخلاق الفاضلة، و كما يغطي تلوثه بالقوة، فهو يغطيه أيضا بالاعتداء على الفضائل، ليجعل من ماضيه قاعدة، لا استثناء معيبا، لذلك فإن إلهام و أن قامت في حياته كالمنار؛ إلا أنها أقلقت مخاوفه و عقده، و زعزعت أركان العالم الذي بناه لنفسه، و اطمأن إليه.و في الحقيقة هو لا ينسى عذابه إلا في نار كريمة التي تشتعل في ظلام النصف الثاني من الليل"[1].

لعل عدم انجذابه الجنسي إليها؛ مرده أنها لا تمثل النموذج الأنثوي، الذي يستهويه، بحكم ارتباط الإثارة الجنسية لدى بعض الرجال بنموذج بعينه؛ كلما افتقدوه همدت دوافعهم الجنسية، وجنحوا إلى الفتور. كما أن التزام صديقته العفة الجنسية خلال تفاعلها العلائقي معه؛ يوقظ فيه عقدة الشعور بعار انتمائه إلى الأم الآثمة، مما يحدوه لانتهاك عفتها ليجردها من مقومات الاستعلاء عليه؛ بحيث يجعلها و أمه سواء؛ فيلطف بذلك توتره الانفعالي، الذي تتضاعف حدته بإدراكه عدم تجانس سلوك أمه مع النساء الأخريات، و لعل ذلك من الدوافع، التي عززت علاقته بزوجة صاحب الفندق، وارتفعت بها فوق مستوى الإشباع العاطفي، و الجنسي لتغدو علاقة عصابية؛ يعيشها كامتداد لميوله الأوديبية، و كوسيلة تخفيف من عقدة شعوره بعار انتمائه إلى أمه. و لذلك كانت علاقته بالهام مجلبة للقلق، و التوتر، بحكم التزامها بقيم العفة الجنسية، التي وصمت أمه بالإثم، و دمغته بالعار الاجتماعي، بينما تضفي عليه علاقته بكريمة -زوجة صاحب الفندق- الثقة بالذات، و الأمن النفسي، و تشعره بتجانس سلوكها و القيم السلبية، التي تتبناها أمه، لهذا كان يتفاعل مع كريمة أثناء الليل خفية عن الناس في غرفته بالفندق، لأن الليل و الغرفة المغلقة في الفندق يرمزان إلى طبيعة القيم السلبية؛ التي يتبناها المنحرفون سرا، و يمارسونها تحت جنح الظلام مخافة قوانين الضبط الاجتماعية الرسمية، وغير الرسمية.أما الهام، فيتفاعل معها خلال النهار، و في الأماكن العامة؛ لأنها تحتكم في سلوكها للقيم الاجتماعية المقبولة، التي يتبناها الناس في العلانية.

يشي ميله لهما معا بكون كلتيهما تضطلع بدور في حياته النفسية الواعية و اللاواعية، حيث كان يرى في كريمة صورة ذاته الرازحة تحت وطأة العار، و صورة أمه الآثمة، بينما كان يرى في إلهام صورة ذاته المثالية، التي يتوق إلى تحقيقها، مما جعل من المرأتين معا؛ تشتركان في إشباع حاجته النفسية، و الجنسية التي لا تستطيع إحداهما إشباعها بمفردها.كما أن علاقته بالمرأتين كانت تصدر عن اتكال طفلي عليهما باعتبارهما قادرتين على تزويده بالدعم، الذي يمكنه من السيطرة على الواقع، والمصير، حيث كانت إلهام تقوم بخدمته في الميدان الإعلامي تحقيقا لانتمائه الأسري المفقود، بينما

---

[1] **الطريق** ، ص 75 - 76.

كانت كريمة تمده بالإشباع العاطفي و الجنسي، و العلاج النفسي لانجراح اناه النرجسي، فضلا عن كون موقعها الطبقي بوصفها زوجة تاجر عجوز، يعد بتحقيق تطلعاته الاجتماعية.

الإيحاء بالجريمة

تمارس كريمة إيحاءها النفسي على صابر في مواقف ضعفه أمامها أثناء اتصالها الجنسي، مما يجعله مهيأ نفسيا للاستجابة لإيحائها بضرورة قتله لزوجها.و لعل ما شحذ دافعية سلوكه الإجرامي، تعلقه العاطفي بها، و إشباعها حاجاته النفسية و الجنسية،فضلا عن إيحائها له بقدرتها على إشباع حاجاته الاجتماعية، باعتبارها وريثة زوجها الوحيدة.كما أن نمو شعوره بالانتماء إليها، جعل إيحاءها أداة قوية ضابطة لسلوكه، و موجهة له وفق القيم، والأنماط السلوكية الانحرافية.وما جعله يتجاوب و إيحاءها ما كان يعانيه من توتر انفعالي ناجم عن إخفاقه في تحقيق المشروع الاجتماعي، الذي كان يعقد أملا كبيرا عليه، فضلا عن السقوط الاجتماعي، الذي كان يتهدده من جراء تناقص النقود التي ورثها عن أمه الراحلة.

هكذا يغدو التطلع البرجوازي عاملا من عوامل انحراف سلوكه، لاسيما في ظل اتجاهه الاجتماعي اللامعياري ، نتيجة صراع المعايير و القيم، و فشله في تبين معالم طريق الصعود الطبقي بحكم حرمانه من التعليم، والعمل، و الميراث، فضلا عن استيلاء الحيرة، و الغموض عليه؛ لانعدام ارتباطه العضوي بالمجتمع، بحكم عدم ممارسته دورا اجتماعيا مقبولا في شبكة العلاقات الاجتماعية[1].كما أنه كان بين موقفين اجتماعيين سلبيين، إما الاستسلام للسقوط الاجتماعي بكل ما يترتب عنه من حرمان و إحباط، أو قتل صاحب الفندق، و الاستئثار بزوجته،و ثروته معا.

هكذا يغدو الإجرام، و النهب من القيم الاجتماعية الموجهة لسلوك عشيقته من أجل إشباع ميولها الجنسية،و الاستهلاكية الترفية، والرغبة في التملك و الحيازة، لذلك تعبأ صابرا تعبئة نفسية، تزيل حواجز الخوف والإثم، و الشفقة التي قد تعوقه عن القيام بالسلوك الإجرامي.و من ثمة يغدو الإجرام ثمرة احتكاكه بعشيقته المنحرفة، التي مارست إغراءات جنسية، و مادية تحريضا له على الإجرام، و تكون المرأة بالتالي عنصرا محرضا على الانحراف، ضالعة فيه بصورة مقنعة، لكونها طرفا مستفيدا من نتائجه [2].

---

(1) محمد عاطف غيث: **المشاكل الاجتماعية و السلوك الانحرافي:** دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،ص57.

(2) سامية حسن الساعاتي: **جرائم النساء**. المركز العربي للدراسات الأمنية و التدريب. الرياض. 1986. ص 15.

لعله لولا استعداد صابر النفسي ما كان بمقدوره الاستجابة لاغرائها إياه بقتل زوجها، لأن بناءه النفسي -الذي تشكل خلال طفولته المضطربة بحكم انتمائه إلى أسرة مفككة-قد امتص القوى التدميرية الكامنة في المستوى اللاشعوري لأبويه اتجاه بعضهما البعض، و اصطبغت حالته الانفعالية "بمشاعر الذنب و الإخفاق، و توقع الشر، و روح الهزيمة، و المرارة التي تسود في كثير من حالات الطلاق أو الانفصال" [1].

هكذا يغدو زوج عشيقته يمثل صورة الأب الغائب الجافي، المتنكر لابنه، مما يفجر ميولـه العدوانية اللاواعية، التي تحمله على التفكير في قتله لإزاحته من مجال المنافسة للاستحواذ على بديل أمه المحبوبة، و الانتقام منه بسبب رفضه، وإهماله إياه.

يبدو أن للطمث دورا فعالا في دفع كريمة لتحريض صابر على القتل، لاسيما وأنه من العوامل الفيزيولوجية، التي تحدو المرأة إلى ارتكاب أعمال العنف لكونه "من قبيل الاضطراب العصبي الذي يمكن أن يؤدي إلى مشكلات زوجية وجنسية بالنسبة للنساء المصابات بالتوتر[2]."وتبدو الطبيعة المتخفية لإجرام المرأة في كونها هي التي خامرتها الرغبة في القتل قبل عشيقها، حيث لمحت إليها في بادئ الأمر، ثم كاشفته بها بعدئذ، فحرضته بإصرار على السلوك الإجرامي، و حددت له موعد القيام به، و أدواته، و مكانه، مما جعلها تشرف على وضع الخطة بكل مراحلها، و تفاصيلها، بحيث لم يكن صابر إلا أداة تنفيذ لإرادتها، و دوافعها الإجرامية.

الإجرام و الشعور بالذنب

يصاب صابر خلال ممارسته السلوك الإجرامي بالتبلد الوجداني؛ الذي يجعله لا يشعر بأي ارتباط عاطفي بالضحية، الذي يبدو له متجردا من طابعه الإنساني، و مشيأ، مما يمكنه من الإجهاز عليه بفتور انفعالي يقمع شعوره بالذنب، الذي ما يلبث أن تظهر بعض أعراضه المتمثلة في نسيانه الصابونة في المرحاض، و حافظة نقوده في غرفته على غير المعتاد، على الرغم من حرصه على إخفاء آثار الجريمة، مما جعله يتساءل بخوف : "الأخطاء التي اكتشفت كثيرة حقا، فما عدد الأخطاء التي لم تكتشف؟ و القوة العمياء التي تجردك من ملابسك قطعة وراء قطعة، سترمي بك في النهاية عاريا كما ولدتك أمك، و أمك هي القاتل الحقيقي لعم خليل أبو النجا، و ما أشبه شخيرها بشخيره في

---

[1] محمود حسن: **الأسرة و مشكلاتها**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 307.

[2] الساعاتي، سامية محمد : **جرائم النساء**، ص 72.73.

الليلة الأخيرة، أما الصوت الذي ند عنه عقب الضربة القاتلة؛ فقد مضى و انقضى. ضبط رجلا من الجالسين و هو يداري ابتسامة ابتسمها لدى ملاحظته، فأدرك أن شفتيه تفضحان أفكاره، فأربكه الحرج، و كره المكان فغادره" [1].

هكذا يبدو أن عقله الباطن حمله على نسيان الصابونة، و حافظه النقود ليدلل على ارتكابه الجريمة، بحيث يمكن الشرطة الجنائية من تعقب آثاره؛ لا نزال العقاب الرادع عليه، مما يحرره من عقدة الذنب الناجمة عن إجرامه. و اتهامه لأمه -في سياق حواره لذاته- بكونها القاتل الحقيقي لضحيته هي عملية إسقاط لشعوره بالذنب عليها. و اعتباره ابتسامة أحد الجالسين في الفندق بمثابة سخرية منه؛ هو نوع من الهوس الذي ينم عن اضطرابه الانفعالي، وليد شعوره بالذنب، لأنه ليس له دليل على ابتسام الآخر سخرية منه، و شعوره بالذنب، هو الذي جعله يتصور ذلك لكون هذا الشعور؛ يجعل المجرم يشعر بمطاردة الآخرين، و يتوقع اكتشافهم له و "لهذا غالبا ما يترك الجاني وراءه كل الدلائل المادية التي تقود المسئولين إلى القبض عليه، و محاكمته، و إدانته، و عقابه. هذا هو كل ما يصبو إليه وينشده، إذ هو يسعى إلى عقاب النفس و إيلامها، ليخفف عنها وطأة عقدة الذنب" [2].

يتملكه الشك في عفة عشيقته،و نزاهة النوايا التي حملتها على تحريضه على القتل إثر إشارة أحد خدم الفندق إلى علاقتها المشبوهة بابن خالتها، و لذلك يتهيأ له أنها حرضته على قتل زوجها، لترث ثروته، و تتزوج من ابن خالتها، و تلقى به إلى السجن المؤبد، أو الإعدام .

و لعل ما جعله يتقبل تلك الأقوال دون تمحيص، أو تحر حالته الانفعالية الناجمة عن سلوكه الإجرامي، و هي تتشكل من الشعور بالذنب، و القلق، و الخوف، و الشك، مما يفضي إلى الأرق، وضعف الشهية، و تنخفض بعدئذ طاقته العصبية؛ و تتمثل أعراضها في اختلال التوازن النفسي، الذي يولد شتى الهواجس، التي ما تلبث أن تغدو شكا مرضيا في الآخر المحبوب، يحدوه إلى قتله هو نفسه.

لعل تأثير المستوى اللاشعوري في علاقته بها؛ هو الذي هيأه نفسيا للشك في نزاهة نواياها؛ بحكم الرواسب اللاواعية لصورة الأم الآثمة، التي تشبه صورة العشيقة الخائنة، حيث كانت أمه في بادئ الأمر موضوع حبه، و مثله الأعلى؛ لكن صورتها ما لبثت أن ساءت باستهجان الآخرين لسلوكها المنحرف. لذلك ينساق إلى تصديق الخبر، الذي سمعه عن عشيقته، بحكم كونها امتدادا

---

[1] **الطريق** : ص 116.

[2] محمد سلامة غباري : **الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين** ، ص 62.

لصورة أمه الشائهة، و انطلق من شكه باعتباره يقينا، مما يدلل على أن المنطق الانفعالي اللاشعوري، هو الذي دفعه لاتهامها بالخيانة، و جعله لا يقتنع بدفاعها عن نفسها، و اعترافها بحبه، و تحذيرها له من الشرطة، و تسفيهها لشكوكه، لأن المنطق الانفعالي اللاشعوري لا يقتنع بالمنطق العقلي، بل يشوّهه، أو يختزله، أو يسخره لخدمة المنطق اللاشعوري [1].

يزيده رفضها دخوله غرفة نومها شكا في عفتها الجنسية، مما يضاعف ميوله العدوانية التدميرية، التي تحمله على قتلها ليتخفف من شعوره بالذنب من جراء قتل زوجها، و يعرض نفسه للوقوع تحت طائلة العقاب، و ينتقم من أمه المومس التي أشركت الآخرين في حبه، و جلبت له العار، و الاستهجان الاجتماعي، و من ثمة، فقد كان لا شعوره، يصوّر له أن قتل عشيقته بمثابة قتل لأمه، لكونها بديلتها التي أثارت فيه المكبوتات العاطفية، و الجنسية، و العدوانية الانتقامية، مما يدلل على خضوع سلوكه الإجرامي للانفعالات العدوانية شأن الغيرة، و الغضب، و الشك، و ينم عن عدم نضجه الانفعالي، و فضلا عن ذلك، فقد مارس بسلوكه الإجرامي ما كان يتوقع أن يمارسه رجال الشرطة الجنائية عند القبض عليه، لذلك تقمص أدوارهم كوسيلة من وسائل تجنب العقاب، إذ يجنح المعتدى غالبا إلى التماهي بشخصية المعتدين في بطشهم لتخفيف شعوره بالخوف من جراء توقع العقاب [2].

كما أن صابر قد أخفق خلال التنشئة الاجتماعية في ترويض دوافعه الأولية، و في إعلائها بأنماط سلوكية مقبولة، و لم يهتد إلى السلوك التعويضي، الذي يخفف الشعور بالدونية و الإحباط، مما ساقه إلى الإجرام؛ بوصفه "تعبيرا سلوكيا مباشرا عن دوافع غريزية كامنة حينا، أو هو تعبير رمزي عن رغبات مكبوتة ممنوعة حينا آخر"[3].

و فوق ذلك كله، فهو ضحية عامل الوراثة، الذي يتمثل في بنوته لأم منحرفة؛ عاشت في محيط اجتماعي متفسخ، انفصلت عن أبيه لأسباب غامضة، و تزوجت برئيس عصابة لصوص، ومارست البغاء في شبابها، و لما أدركتها الكهولة؛ أدارت بيوت الدعارة، و انتهت حياتها عقب الإفراج عنها من السجن، و انطبعت سمات شخصيتها المنحرفة في بنائه النفسي، و شكلت جهاز القيم الموجه لسلوكه، ليكون امتدادا وراثيا لصورة أمه الشائهة التكوين.

---

[1] يوسف مراد و آخرون: **الكتاب السنوي في علم النفس**، المجلد الأول ، دار المعارف، بمصر ، 1954 .

[2] ترافسيس هيرشي: **أسباب جنوح الأحداث**، ترجمة محمد سلامة غباري، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية 1987، ص 107.

[3] غباري ، محمد سلامة : **الانحراف الاجتماعي و رعاية المنحرفين** ، ص 114.

تتألق في رواية " اللص و الكلاب" شخصية سعيد مهران؛ بوصفه مجرما عائدا، تظافرت جملة من العوامل الاجتماعية، و الدوافع النفسية على سوقه إلى ممارسة السلوك الإجرامي. و ما دام للطفولة أثر عميق على شخصية الفرد في سوائه، و انحرافه، فلا بد من إضاءة بعض الجوانب الغامضة في هذه المرحلة التي تتشكل فيها أسس الشخصية، و معالم السلوك، و يتمثل ذلك؛ فيما بدا على الطفل سعيد مهران من ميول عدوانية كان يسلطها على زملائه في المدرسة، و أبناء الجيران، مما جعله يتسم بالنزوع إلى المشاكسة، و ممارسة الأدوار القيادية، في كل جماعات الأقران التي ينتمي إليها. و قد نمت فيه بذور سوء التكيف؛ منذ حداثة سنه، لكون انتمائه الاجتماعي إلى سفح الهرم الطبقي لم يكن يرضيه، لا سيما و أن الحي الذي يقيم أهله فيه معظم سكانه من الفئات الاجتماعية المترفة، مما غذى فيه الشعور بالقهر الاجتماعي و الحرمان؛ رديف الإحساس بالإحباط، و أفضى إلى سلوكه العدواني التدميري ضد رموز القهر الاجتماعي، و أدواته، و هم الأغنياء.

بدت عليه، و هو في سن العاشرة من عمره ملامح الجنوح المتمثلة في ممارسته سرقة أشياء زملائه، و اتسع ميدان سرقاته؛ فشمل منازل الجيران، و جلهم من الأغنياء، و لما شكاه أحدهم لأمه؛ وضعت يديه و قدميه في قيد حديدي، و أسرفت في عقابه، حيث كوته بالحديد المحمي بالنار، لكنه لم يرتدع؛ بل تعددت سرقاته بسبب إغراء أقرانه، و تشجيعهم [1] .

يبدو أن إسراف الأم في ممارسة أساليب العقاب البدني أشعر الطفل بالرفض، و أضعف ارتباطه العاطفي بأمه، و رغبته في تقبل المعايير الاجتماعية، التي كانت تسعى لفرضها عليه بالإكراه، والعقاب، و يخفق بالتالي التعيين الذاتي مع الوالدين، و يتشوه بناء الضمير[2]، و لعل ما جعل أثر عقابها سلبيا أنه أحدث اضطرابا مبكرا في علاقتها به، مما شكل في عقله الباطن صورة الأم الشريرة؛ التي تمثل الألم النفسي و البدني، لأن عقابها المتكرر، لم يشعره بأخطاء سلوكه؛ بقدر ما أشعره بكونه غير جدير بالحب[3]. و لذلك يحمله شعوره بالرفض إلى رفض تقمص سمات شخصية أمه، و قيمها الاجتماعية، بحكم ارتباط التقمص بالتعلق العاطفي، حيث يتعطل التقمص بفتور الحب، أو انعدامه.

---

[1] علي حسن فهمي: **قضية محمود أمين سليمان** "المجلة الجنائية القومية"،العدد 2، 1960،المجلد3،ص 153.

[2] رزق سند إبراهيم ليلة: **قراءات في علم النفس**، دار النهضة العربية، بيروت، 1995، ص 90 - 91.

[3] دانييل لاجاش: **المنشأ النفسي للجريمة**، ترجمة عبد الحليم السيد "المجلة الجنائية القومية"، العدد 1، مارس 1970 ، المجلد 13، مصر، ص 114.

كما أن جماعة الأقران؛ التي كان منتميا إليها أسهمت في تعزيز سلوكه السلبي عـــن طريـــق الإغراء و التشجيع، الذي كان يزيل أثر العقاب من ناحية، و يرسم له الاتجاه الواجب عليه ســـلوكه، لا سيما و أن الجماعة المرجعية تمارس دورا فعالا في تحديد الاتجاه السلوكي، و يتشكل مـــن ثـــلاث مستويات، تتفاعل معا على إحداث استجابة سلوكية متميزة، حيث يدرك الطفل السرقة باعتبارهـــا سلوكا مقبولا، نافعا، ينم عن الذكاء و القوة، و الشجاعة، و ينتقل بعدئذ إلى المســـتوى الوجـــداني المتمثل في الإعجاب بالسرقة و السارقين، و يغدو فيما بعد منتميا إليهم عن طريق المحاكاة، و يتمثـــل ذلك من الوجهة العملية في ممارسة مهاراته اليدوية، و حيله على ضحاياه .

هكذا تظافرت صرامة أساليب العقاب الأسرية، و جاذبية الاتجاهات السلبية لجماعة الأقـــران على سوقه إلى طريق الانحراف، و تمكنه استعداداته النفسية، و الجسمية من اكتساب مهارات عاليـــة في السطو.

الميول العدوانية الانتقامية

يزج به في السجن، حيث يقضي مدة العقوبة المقدرة بأربع سنين، و يخرج و ميوله العدوانيـــة الانتقامية في أعلى عتبات التوتر، تتطلب تدمير زوجته الخائنة، و صديقه الغادر، باعتبارهما صـــانعي مأساته. و ينم احتمار ميوله الانتقامية خلال فترة حبسه عن إخفاق السجن، بوصفه مؤسسة عقابيـــة في تكييف سلوكه وفق المعايير الاجتماعية المقبولة، بحكم التزامها سياسة عقابية؛ قوامها اعتبار العقوبـة جزاء، لا وسيلة إعداد المجرم للتكيف الاجتماعي غايتها إدماجه في شبكة العلاقات الاجتماعية[1] .

لذلك يعود إلى المجتمع كما تركه لدى القبض عليه، و هو خاضع للحالة الشعورية نفســـها، ويتمثل ذلك في اتجاهاته النفسية، و السلوكية التي يضيء بعض قسماتها حواره مع ذاته لدى مغادرتـــه السجن :" سيقف عما قريب أمام الجميع متحديا آن للغضب أن ينفجر و أن يحرق، و للخونـــة أن ييأسوا حتى الموت، و للخيانة أن تكفر عن سحنتها الشائهة، نبوية عليش، كيف انقلب الاسمان اسمـــا واحدا؟ أنتما تعملان لهذا اليوم ألف حساب، و قديما ظننتما أن باب السجن لن يفتـــح، و لعلكمـــا ترقبان في حذر، و لن أقع في الفخ، و لكنني سأنقض في الوقت المناسب كالقدر "[2].

---

[1] خ. فراكوتي: **دراسة المجرم من الناحية النفسية** "المجلة الجنائية القومية"، مارس، 1960،العدد 1،ص 124.

[2] نجيب محفوظ: **اللص و الكلاب**، مكتبة مصر ، 1977، ص 8.

يتصل ببيت زوجته -التي تزوجت بصديقه عليش عقب سجنه- ليسترد ابنته الصغيرة، لكنها تنكره، لأنها لم تره منذ ميلادها، و يبدو أن سعيه لاستردادها ينطوي على جملة من الحاجات، منها كونها تجسد الامتداد النفسي و الاجتماعي لهويته الذاتية، بحكم القرابة الدموية، و من ثمة، فهو يسترد بها ذاته، و يشبع حاجته المكبوتة للحب، و الانتماء، و يؤكد بها فحولته الجنسية التي اهتزت ثقته فيها بخيانة زوجته له مع صديقه، و يحرم زوجته بالتالي من تحقيق ذاتها، و أمومتها، مما يجعل من استرداد البنت سلوكا انتقاميا، يراد به فك الارتباط العاطفي، و الاجتماعي القائم بينهما.

يبدو أن نفور البنت منه يعزى لكونها لا تعرفه، مما جعلها تنظر إليه بوصفه شخصا غريبا غامضا؛ يوحي بالخطر، لا بالثقة، كما أن أمها قد تكون شحنتها بمشاعر سلبية اتجاهه، مما دفعها إلى سلوك التجنب، و التباعد، و الحذر، لا سيما و أن للاتجاه السلبي أثرا عميقا على السلوك، لكونه يشكل تصورا سلبيا عن شخص بعينه، يترتب عنه الإحساس بالنفور منه، و يعقبه سلوك الانسحاب عنه، أو التدمير له. و لعل ذلك ما جعلها تتجنبه، و تهتف بنداء "ماما" بحكم ما تزودها به أمها من إشباع حاجاتها النفسية إلى الأمن النفسي، و الحب، و الحماية، لا سيما و أنها في موقف ينطوي على خطر الاقتراب من شخص مجهول، يوّلد فيها القلق، و الخوف، و التهديد بالعدوان.

كانت زيارته مخيّبة للآمال، محبطة للحاجات، التي كان يتوخى إشباعها، فضلا عن شعوره بشماتة الآخرين، الذين وجدوا في موقف إخفاقه العاطفي متنفسا لمشاعر إحباطهم، و حسدهم، ودونيتهم، التي زرعها فيهم طيلة فترة رياسته عصابة اللصوص. و ينبع الشعور بالشماتة من النزعة السادية المتمثلة في الاستمتاع بآلام الآخرين، كما أن آلام الآخرين قد تزودنا بالشعور بالاستعلاء عليهم، أو بأننا بمنجى من الآلام، التي يكابدونها، مما يضفي راحة نفسية من جراء مشاهدة آلام الآخرين.

الصداقة و التغير الاجتماعي

يجد سعيد مهران صديقه الماركسي رؤوف علوان؛ قد طرأ على شخصيته تغير ثقافي؛ تمثل في تبنيه قيما اجتماعية لبيرالية، قوامها الإيمان بالحرية الفردية، و الخلاص الفردي، و التطلع للصعود الطبقي، فضلا عن انتقاله في سياق الحراك الاجتماعي من مستوى اجتماعي متدن، إلى الطبقة البرجوازية، حيث صار رئيس تحرير مجلة واسعة الانتشار، و امتلك قصرا منيفا .

زادته معاملته له شعورا باستعلائه الطبقي عليه، لكونه أشعره بالمسافة الاجتماعية، التي تفصلهما عن بعضهما البعض، مما جعله يرى تغيره الثقافي، و حراكه الاجتماعي، بمثابة خيانة

للايديولوجيا التي أقنعه بتبنيها في الماضي، و سوغ له بواسطتها سرقاته، و لذلك لم يتقبل حقيقة التغير الثقافي، و الحراك الاجتماعي، و خاطبه بينه و بين نفسه، بحكم عجزه عن مواجهتـه بقسـوة هـذا الخطاب: "تخلقني ثم ترتد، تغير بكل بساطة فكرك، بعد أن تجسد في شخصي كي أجد نفسي ضائعـا بلا أصل، و بلا قيمة، و بلا أمل، خيانة لئيمة لو اندك المقطم عليها دكا ما شفيت نفسـي .. تـرى أتقر بخيانتك و لو بينك و بين نفسك، أم خدعتها كما خدعتها كما تحاول خداع الآخرين؟ ألا يستيقظ ضمـيرك ولو في الظلام؟ أود أن أنفذ إلى ذاتك كما نفذت إلى بيت التحف، و المرايا بيتك، و لكني لن أجـد إلا الخيانة"[1].

على الرغم من الطابع الأخلاقي لهذه الإدانة؛ إلا أنها تكشف عن التوتر النفسي، الذي شـعر به سعيد مهران، عندما وجد نفسه لا يستطيع التماهي بشخصية صديقه المثقف الليـبرالي، المـترف، لكونه لم يعد يمت بصلة لسمات شخصيته، و مستواه الاجتماعي، كما أن صعوده الطبقـي أشـعره بسقوطه الاجتماعي مدموغا بوصمة العار الأخلاقي، مما ينم عن أن شعوره بالحسد هو الذي سبب له صعوبة في التكيف الاجتماعي مع ظروف واقعه، حيث أشعره استمتاع صديقه بالجاه، و النفوذ بعمق الحرمان، الذي يكابده من جراء تعذر إشباع حاجاته النفسية و الاجتماعية. فضلا عن امتناع صديقـه عن تزويده بالدعم المادي الكفيل بتحقيق ذلك، وفوق ذلك كله، فإدراكه لنجاح الآخر جعله يعـي إخفاقه الفاجع، و لذلك عملت آلية الدفاع عن الذات على تحويل نجاحه إلى خيانة ليفقد مقومـات الاستعلاء على الذات، و ينحدر إلى مستوى الخيانة، رديف الدونية، و بذلك تسترد الذات اعتبارهـا؛ بتهوينها من شأن الآخر، بعد أن هز نجاحه توازنها النفسي.

ما دام سعيد مهران مأزوما بصدمة غدر الصديق عليش سدره، و خيانة زوجته نبوية، فقـد اتجهت مشاعره السلبية نحو صديقه رؤوف علوان عن طريق آلية التحويل النفسي؛ التي تنقل المواقـف الشعورية من شخص إلى آخر؛ بحكم أوجه الشبه القائمة بينهما [2].

لعل ما عاق اتصالهما الإنساني عدم تماثلهما الثقافي و الاجتماعي، مما أحدث هـوة عميقـة بينهما، لأن الحاجة إلى التماثل بين المشتركين في التفاعل الاجتماعي قوية .. و تأثيرها عميق، فـهناك مثلا، تراكم للأدلة المشيرة إلى أن الناس يحبون من هم على شاكلتهم[3].

---

[1] **اللص و الكلاب** : ص 49.

[2] أسعد رزوق و عبد الله عبد الدائم: **موسوعة علم النفس**، ط2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1979، ص 71.

[3] وليم، و، لا مبرت، و و ولاس، أ، الأمبرت: **علم النفس الاجتماعي**، ص 168.

كما أن سعيد مهران؛ كان منظوره سكونيا لشخصية صديقه، باعتبارها حقيقة ثابتة لا تتغير، و لا يمكن لأحد أن يغيرها، و لذلك سلك اتجاهه سلوكا ثابتا، و رفــض مظــاهر التغــير الثقــافي والاجتماعي، و لم يرها بوصفها مظاهر سوية شائعة، بل أدانها، و جرمها لكونها مظهرا سلبيا جديــرا بالإدانة و العقاب. و يسوقه الحسد باعتباره تجربة انفعالية أليمة إلى تدمير صديقه عن طريق إطــلاق النار عليه في جنح الظلام، لكن عدم إصابته له تمنعه من معاودة التجربة مخافة ما يترتب عنها من آثــار سلبية، فضلا عن استقطاب زوجته الخائنة، و صديقه الغادر لكل دوافعه العدوانية الانتقامية، لكونهمـا يجسدان الخصاء الجنسي، و الإحباط، و الدونية، و بقاؤهما على قيد الحياة يذكي فيه هذه الانفعــالات الأليمة، لا سيما و أن خيانتهما له بمثابة تدمير لنسيج العلاقات الاجتماعيـــة، الــتي كــانت تمــده بالاشباعات الأساسية التي يحتاج إليها، لذلك اختمرت في وجدانه الرغبة في القتل المادي للشــخصين اللذين قتلاه قتلا معنويا.

تمهد حالته الانفعالية طريق الإجرام، لا سيما و انه كان رهينة الشــعور بــانحلال روابطــه العاطفية بالآخرين، التي حل محلها الشعور بالعداء اتجاههم، بحكم كون عقله الباطن قد ارتسمت فيــه آثار العقاب الأليم، الذي تلقاه على يد أمه، كلما وقع في الجنوح، لذلــك تقمــص -لا شــعوريا- صورة الأم الشريرة، و راح يمارس العقاب الأليم على الآخرين، لكونهم لم يسلكوا وفــق توقعاتــه، فضلا عن كون سلوكه الإجرامي؛ هو نتاج "مركزية الذات"، التي تتمثل في عجزه عن تكييف نفســه للواقع، وتقدير الأمور، و الحكم عليها من وجهة نظر الآخرين، مما يجعله يندفع إلى إشــباع دوافعــه العدوانية دون مراعاة عواقبها.

هكذا يتجه إلى بيت صديقه عليش سدره " و اخرج مسدسه و وجه منه ضربة إلى زجــاج الشراعة من خلال القضبان الملتوية، فتحطم و تناثر محدثا صوتا كالصراخ المبحوح في صمت الليــل، اقترب من الباب حتى كاد يلتصق به، و صوت مسدسه إلى الداخل، و انتظر بقلب خافق، و عــين غائصة في ظلمة الردهة، و ترامى صوت يصيح :"من؟" صوت رجل، صوت عليش سدرة، ميزه رغم نبض الصدغ المدوى، و فتح باب في الناحية اليسرى، فخرج منه ضوء خفيف، ثم لاح شبح رجــل يتقدم في حذر. ضغط سعيد على الزناد، فانطلقت الرصاصة كصرخة عفريت في الليــل، و صــرخ الرجل بدوره و تهاوى فأدركه بأخرى قبل أن يستقر فوق الأرض، و انطلق صراخ حــاد، مرتعــب مستغيث بائس، صوات نبوية فصاح بها "سيأتي دورك، لا مهرب مني، أنا الشيطان نفسه" و اســتدار ليهرب ...."[1].

---

[1] اللص و الكلاب : ص 79 - 80.

يبدو أنه اختار الليل كعامل طبيعي، و إطار زمني للتخفي من الرقابة الاجتماعية، و قوانين الضبط الاجتماعية، لكن الليل عرضه للخداع السمعي و البصري، مما شوه إدراكه لضحيته، لأنه لم يقتل غريمه؛ بل ساكنا جديدا؛ كان قد حل في تلك الشقة مع زوجته بعد رحيل عليش سدره وزوجته في اليوم، الذي زارهما فيه لاسترداد ابنته، و هكذا فهو لم ير الشخص المستهدف بوضوح، بحكم انتشار الظلام، بل رأى شبحا أدركه على ضوء خياله، الذي قام بتأويله بسبب غموض الموقف المدرك، فضلا عن حالته الانفعالية، التي عطلت فعالياته العقلية العليا كالإدراك، و التفكير، و التذكر مما جعله رهينة دوافعه العدوانية، التي لم يكن قادرا على ضبطها، أو أرجاء إشباعها على حد سواء، وهكذا يتبين أن القتل الخطأ؛ هو نتيجة التشويه الذي يصيب الإدراك؛ بسبب الحالة الانفعالية المصاحبة للسلوك الإجرامي.

صورة سعيد مهران الواقعية و الاعلامية

تتنازعه مشاعر ثلاثة اتجاه صورة ذاته الإعلامية، و هي القلق، و الإحساس بالعار، والإحساس بالعظمة، حيث ينبع القلق من صورته بوصفه مجرما، تستعدى الصحافة عليه السلطة للقضاء عليه، أما عاره؛ فهو وليد المقالات المسهبة، التي تعرضت لخيانة زوجته له مع أحد أصدقائه، أما شعوره بالعظمة ، فبسبب إشباع الصحافة حاجته لتوكيد الذات، و القوة، و البطولة، لأنه غدا محورها، و موضوعها السائد، و المتكرر، لا سيما و أن الإجرام من أهم الموضوعات، التي تستخدمها الصحافة جذبا لاهتمام الناس، و رفعا لمستوى الانتشار الجماهيري، و مستوى المبيعات أيضا.كما أن اهتمام الصحافة به أسبغ عليه دفئا عاطفيا، كان محروما منه خلال طفولته، و شبابه، لا سيما و أن المجرم غالبا ما يكون " شديد الرغبة في اجتذاب الأنظار، و في انتزاع الإعجاب من المجتمع، و لو أدى الأمر إلى استعمال طرق غير مشروعة "[1] .

كما أن سعيد مهران لم يكن ينظر إلى سلوكه المنحرف، بوصفه إجراما، لا يتوافق و القيم والمعايير الاجتماعية المقبولة، لأن اعتياده الإجرام؛ جعله يراه باعتباره دفاعا عن الذات، و ليس عدوانا على الآخرين. ما دام يتوخى بإجرامه تحقيق التوافق مع محيطه الاجتماعي، لأن سعيد مهران يرفض عن طريق سلوكه الإجرامي بعض القيم الاجتماعية السائدة في الجماعات، التي ينتمي إليها كالخيانة الزوجية، و غدر الصديق، و التغير في المبادئ و المثل. و يضع بدلها قيم العدوان، و الانتقام، و هي

---

[1] فراكوتي، خ : **دراسة المجرم من الناحية النفسية**، ص 130.

قيم فردية جعلته يعزل نفسه عن طريق الفعل الإجرامي عن أنساق القيم الاجتماعية السائدة، ويشارك فعليا الامتثال للقيم السلبية الهامشية، التي لا تعتبر سلوكه إجراما [1].

المومس الباحثة عن الحب و الزواج

لجأ سعيد مهران إلى سناء؛ فوفرت له الإشباع الحشوي، و الجنسي في بيتها البائس الواقع قرب المقابر في ضواحي القاهرة، لأنها كانت مرتبطة به عاطفيا قبل زواجه، لكنه لم يكن يبادلها العواطف، و يبدو أن عنايتها به؛ تعكس حاجتها النفسية إلى الحب، و الأمن، و الحماية، و الانتماء، لأنها كانت تتوق إلى تبني القيم، و المعايير السلوكية المقبولة؛ بحكم ما خبرته من قلق، و اضطهاد من جراء ممارستها البغاء.

هكذا يغدو الآخر المحبوب؛ هو الوسيلة التي تتصالح بها مع المجتمع بعد سلسلة من مواقف الإدانة، و التجريم، و المطاردة التي سلبتها الأمن النفسي، و الثقة بالذات، و دمغتها بالعار الاجتماعي، مما جعلها ضحية عملائها من المحتالين، و هدف رجال الشرطة على السواء، فضلا عن كونها غير راضية عن عملها، لأنه لا يمدها بالإشباعات النفسية، التي تحتاج إليها، بل يغذي حياتها النفسية بالتوتر، و المخاوف نتيجة المشاكسات، التي تنتج عن اتصالها بزبائنها، أو بسبب توقع العقاب من سلطة الضبط الاجتماعي، أو بسبب توقعها اللاشعوري للعقاب، و فوق ذلك كله؛ إدراكها أن بغاءها يعوقها عن ممارسة الدور الاجتماعي، الذي تتوق إلى تحقيقه بوصفها زوجة، و أما، لأنه يكرس صورتها السلبية كأنثى مانحة المتعة الجنسية مقابل أجر، و لا ترقى إلى مستوى قداسة الزوجة، بحكم وصمة عارها الاجتماعي.

لعل هذا التوتر النفسي جعلها تقول له "في حزن بالغ :

-قالت أمامك مستقبل كالورد ..

فتساءل متعجبا:

-من؟

-ضاربة الودع، و قالت سيجيء الأمان و الاطمئنان ..

فنظر إلى سواد الليل المتراكم خارج النافذة، و استطردت و هي تقول:

-متى يجئ ؟ .. الانتظار طال و لا فائدة..

و خيل إليه أن الصوت المتكلم نافذ من قبر فامتلأ شجنا، و لم يجد ما يقوله، و قالت هي:

---

[1] لاجاش، دانييل : **المنشأ النفسي للجريمة**، ص 119.

-ضاربة الودع متى تصدقين؟ أين الأمان، أريد نومة مطمئنة، و صحوة هنية، و جلسة وديعة، هل يتعذر ذلك على رافع السماوات السبع"[1].

يبدو أن ما جعلها تذكر نبوءة العرافة حاجتها للأمن النفسي، لكونها تعيش في جو اجتماعي حافل بالضغوط، و من ثمة تنم هذه الحاجة النفسية عن حاجتها إلى الزواج؛ رديف انسحابها من عالم البغاء، و يغدو الحديث عن الحاجة النفسية غير المشبعة بمثابة إشباع غير مباشر لها، و دعوة للآخر المحبوب للإسهام في تحقيق الحاجة المنوط به إشباعها. و لعل عدم تجاوب سعيد مهران معها مرده خضوعه للميول العدوانية الانتقامية، التي كانت تحدوه للقضاء على غرمائه، و لم يكن يشعر بالحاجة للحب، والزواج، لأن مشاعر الدونية، و الخصاء الجنسي، و الاضطهاد كانت قد استفزت عدوانيته التدميرية، و رفعتها إلى أعلى مستويات التوتر، مما أفضى إلى عدم اقتناعه بأهمية إشباع حاجاتها؛ بحكم اختلافها عن حاجاته و قيمة، و معاييره السلوكية .

القلق العصابي و القتل الخطأ

يكشف سلوك سعيد مهران الإجرامي عن القلق العصابي، الذي صاحب قيامه بمحاولة اغتيال زوجته، و صديقه عليش، حيث استهدف ضحيتين بريئتين، لا علاقة له بهما، مما يدلل على عمق توتره الانفعالي، الذي حداه لاتخاذ السلوك الإجرامي متنفسا يخلصه من القلق العصابي، لكونه أطلق النار، و قد شوّش قلقه إدراكه، و اندفعت بالتالي دوافعه العدوانية في جموح دون إدراك للأهداف المتوخاة.

عندما تعرض عليه عشيقته المومس الهرب معا للاختفاء، و ممارسة حياة جديدة، يصر على تصفية غرمائه، فتخوفه قائلة:

"-سمعت أن الجنود يملأون مخارج القاهرة، كأنك أول قاتل .. الجرائد ..الحرب الخفية! ..

و لكنه قال في هدوء مصطنع:

-سأهرب حين أقرر الهرب و سترين ..

و قبض على ضفيرتها كالغاضب و قال موبخا:

-ألا تعرفين من يكون سعيد مهران! الجرائد كلها تتحدث عنه و أنت لا تؤمنين به، أصغي إليّ، سنعيش معا إلى الأبد و ستصدق ضاربة الودع "[2].

---

[1] **اللص و الكلاب** ، ص 122 - 123.

[2] م.ن : ص 125.

هكذا يبدو واثقا بقوته، حتى مستوى جنون العظمة، واثقا بقدرته على تصفية غرمائه، وبقدرته على تغيير اتجاه حياته كما يريد، بحيث يبدو غير واع بعوائق المجال الاجتماعي المحيطة به، ولعل الصورة الإعلامية، التي رسمتها له الصحافة أسهمت في تضخيم شعوره بذاته، و قوته، مما جعله لا يصدر في سلوكاته عن ذاته، بل عن توقعات الآخرين، و عن الرأي العام كقوة إيحاء نفسية توجه السلوك الفردي و الجماعي. كما أن تمركزه على ذاته، يعوقه عن إدراك قدراته، و ضبط دوافعه، وعن التعلم من الخبرة، و العقاب، لكونه يتسم بالاندفاعية [1].

التبلد الوجداني أمام المصير المأساوي

عندما يدرك أنه محاصر من جميع الجهات، و مطالب بالاستسلام بحكم عدم جدوى المقاومة، و الفرار على حد سواء " لم يعد يرى شيئا، و لا أشباح القبور ...لا شيء يريد أن يرى .. و غاص في الأعماق بلا نهاية، و لم يعد يعرف لنفسه وضعا و لا موضوعا و لا غاية، و جاهد بكل قوة ليسيطر على شيء ما ليبذل مقاومة أخيرة، ليظفر بذكرى مستعصية، و أخيرا لم يجد بدا من الاستسلام، فاستسلم بلا مبالاة "(2).

هكذا يغدو أمام موقف الخطر متبلد المشاعر، عاجزا عن مواجهة التحدي، يائسا من المقاومة بحكم انخفاض نشاطه الجسمي و النفسي معا. و لم يكن التبلد الوجداني سوى آلية دفاع نفسية لا شعورية، مكنته من تجنب انفعالات سلبية حادة كالخوف، و القلق، و الذنب و هو في موقف حصار مهدد بالقتل، أو الإعدام [3].

كما أن تبلده الوجداني، قد يكون نتيجة شعوره بالذنب، مما شل حركته عن المقاومة لتمكين رجال الشرطة من القبض عليه؛ ليحرروه من وطأة عقدة الذنب بالعقاب المرصود له، لا سيما و أن بعض المجرمين " يقومون بأعمال، و يتورطون في أخطاء، و يضعون أنفسهم على الدوام في مواقف مؤلمة، و مآزق لا ينالهم منها إلا العنت، و التعب، أو الألم، و العذاب .. كأنهم يفتشون عن عقاب أنفسهم، أو كأنهم يجدون لذة في هذا العقاب، فهم يلتمسون أبدا" (4).

---

[1] عبد الرحمان العيسوي: **الارشاد النفسي**، دار الفكر الجامعي، مصر، ص 330.

(2) **اللص و الكلاب** : ص 181 - 182.

[3] أسعد رزق : **موسوعة علم النفس** : ص 47.

(4) أحمد عزت راجح: **سيكولوجية المجرم العائد** "المجلة الجنائية القومية"، بوليد ، 1958، العدد 2، مصر ص 78 .

لعل القرائن التي تدلل على ذلك، تردده على منزل رؤوف علوان مرتين، حيث حاول السطو على نفائسه في المرة الأولى، و حاول اغتياله في المرة الثانية، فأصاب خادمه خطأ، و المجرم في أغلب الأحيان لا يتردد على مسرح الجريمة مرتين دفعا للشبهات المترتبة عن ذلك، فضلا عن أنه قد نسي بذلة الشرطة في بيت عشيقته، و كان يلبسها من باب التمويه، و للتماهي بشخوص قاهريه، و ينم النسيان عن رغبته اللاشعورية في الوقوع في قبضة الشرطة.

خاتمـــــــــة

اختلفت اتجاهات تفسير السلوك الإنساني، و تعددت نظرياتها عبر مراحـــل تطـــور الفكـــر الإنساني قديمه و حديثه، و على الرغم من تعددها، فلم تسيطر سوى أربعة اتجاهات نفسيرية هامــــة، تغلغل أثرها المعرفي في معظم العلوم الاجتماعية التي تناولت الشخصية و السلوك الإنســـاني، و هـــي الاتجاه البيولوجي، و الاتجاه النفسي، و الاتجاه الاجتماعي، و الاتجاه الثقافي.

تبين لنا أن رؤية نجيب محفوظ لسلوك شخصياته الروائية تتداخل فيها الاتجاهات التفســـيرية المختلفة، حيث يحتفي بالغرائز بوصفها من أسس السلوك، و يسلط الأضواء على الدوافـــع النفســـية المختلفة في سياق بنية المجتمع الطبقية، و يخضع السلوك لانساق القيم و المعايير الاجتماعية و الثقافيـــة السائدة سواء أكانت إيجابية أو سلبية. و يتمثل ذلك في شتى أنمـــاط الســـلوك موضـــوع البحـــث، ويتصدرها السلوك السياسي الذي يمارسه الملوك و الأمراء الفراعنة حيث بدا خاضعا لجملة من الميـــول النفسية كالنرجسية و العدوانية و الميول التملكية الاستحواذية، فضلا عن المصالح الطبقية، مما يحدوهـــم لتسخير مقدرات المجتمع و إمكاناته من أجل إشباعها، أو في سبيل بلوغ السلطة، أو الاحتفاظ بهـــا، أوإيهام الذات بالخلود فيها، و لو نجمت عن ذلك أفدح الأضرار التي تطال عامة الشعب بحكم الرؤيـــة الشيئية التي تحكم علاقة الحكام بالمحكومين لكونهم مجرد أدوات يتوسلون بها لممارسة الســـلطة الـــتي تستمد من قداسة الدين شرعيتها، مما يخولهم تكريس النـــزعة الامتثالية الخضوعية في نفوس الآخرين.

تعد السلطة الأبوية من أبرز أنماط السلوك الإجتماعي باعتبارها سلطة قياديـــة، و مرجعيـــة أخلاقية للأبناء قوامها قمع رغباتهم و حاجاتهم النفسية التي تتعرض للكبـــت و الترســـب في طوايـــا الذات، أو تتجسد في ممارسة متسترة للرغبات تباركها قيم الحنان و التسامح التي تتسم بها ســـلطة الأم الإرشادية، و لذلك يخضع سلوك الأبناء للتجاذب القطبي الحاد بين أنساق القيم الأبوية وقيم الأمومـــة؛ تنجم عنه ثنائية نفسية تتمثل في اختلاف أنماط السلوك المقبولة المعلن عنها عن أنماط السلوك الممنوعـــة المسكوت عنها.

كما تخفق السلطة الأبوية القائمة على ازدواجية الشخصية في تحقيق أهدافها التربوية البعيـــدة المدى، حيث أن إسرافها في تبني قيم السيطرة و الحرمان و العنف يلجئ الأبناء إلى التمرد تنفيسا عـــن شحنات القهر الكامنة في نفوسهم، و توكيدا لذواتهم، مما يحدوهم للانحراف إمعانا في فك الارتبـــاط بقمع السلطة الأبوية .

يمثل الانحراف الجنسي بكل أنماطه ظاهرة أساسية متميزة، حيث تبرز الوســـاطة الجنســـية، والميول الجنسية المثلية، و البغاء، و العجز الجنسي، و الشبق الجنسي، و الاستطلاع الجنسي، باعتبـــاره

نتاج دوافع نفسية، و عوامل اجتماعية، و تتمثل الدوافع النفسية في الميول اللاشعورية، و الحرمان من الحنان، أو التفكك الأسري بطلاق الأبوين، أو وفاة أحدهما، و احتلال التنشئة الاجتماعية، أما العوامل الاجتماعية؛ فتتمثل في الفقر و الأمية باعتبارهما من أهم عوامل البغاء، و الوساطة الجنسية، والميول الجنسية المثلية، حيث يقوم السلوك الجنسي الشاذ بين طرفين أحدهما مُسْتَغِلٌ و الآخر مُسْتَغَلٌ يتقايضان الكسب المادي بالمتعة الجنسية في ظل أنساق القيم الاجتماعية السلبية التي تدعم الانحراف وتبرره معا، فضلا عن التطلع البرجوازي الذي يسبغ على الوجاهة الاجتماعية هالة تتضاءل أمامها القيم الاجتماعية الإيجابية، بحيث تبدو عقيمة معيقة للحراك الاجتماعي.

يبدو السلوك الإجرامي بكل أنماطه كالبغاء، و القتل، و الانتحار، و الخيانة الزوجية، والاتجار بالمخدرات باعتباره محكوما بدوافع نفسية، و عوامل اجتماعية تسوق الشخصيات الروائية للإجرام بوصفه نتاج الإحباط النفسي، و الشعور الحاد بالدونية و الذنب و العار و المعاناة من الفقر والبطالة، و الإخفاق في امتصاص و تمثل القيم و المعايير السلوكية المقبولة في ظل ضغوط التغير الاجتماعي، مما يجعل السلوك الإجرامي وسيلة من وسائل تحقيق التطلع البرجوازي بحكم انسداد آفاق الصعود الطبقي، أو عملية إعادة ترتيب العلاقات الاجتماعية بما يشفي انجراح الأنا النرجسي .

لا ترى الشخصيات الروائية سلوكها الجنسي و الإجرامي بوصفه سلوكا منبوذا و مستهجنا، بل باعتباره حلا لمشكلات نفسية و اجتماعية، و دفاعا مشروعا عن حقوقها الحقيقية أو الزائفة، ويكون شعورها بالذنب حالة نفسية لا شعورية؛ لا تمنعها عن انحرافها، بل تظل سادرة فيه، مما يسبغ على سلوكها الطابع السيكوباتي المرضي .

تتحكم في ديناميات السلوك الإنساني قوى اللاشعور بكل ما تنطوي عليها من الميول التعويضية و الميول التنافسية، و الميول السادية، و الميول المازوخية، و الميول النرجسية، و الميول العدوانية، و عقدة الذنب، و عقدة أوديب، و عقدة الخصاء، فضلا عن الحاجات النفسية الأخرى كالحاجة إلى الحب و الجنس، و الحاجة إلى الانتماء، و الحاجة إلى تحقيق الذات، والحاجة إلى الأمن، و الحاجة إلى المعرفة، و الحاجة إلى التملك، مما يسوق الفرد للوقوع في صراع نفسي أو اجتماعي بحكم انتشار العوائق المانعة من تحقيق الإشباع النفسي و المادي، و يعرضه لكل أشكال الإخفاق والقهر في سعيه لتحقيق ذاته، و إشباع حاجاته، وهو ينتقل من دور صانع الإحباط و القهر حينك إلى دور ضحية الإحباط و القهر أحيانا، بحسب موقعه الاجتماعي في شبكة العلاقات الاجتماعية التراتبية في السلم الطبقي

ولذلك تتسم الشخصيات بالتوتر بحكم طبيعة التفاعل الصراعي الصريح أو المستتر، الـــذي يتخذ أشكالا متعددة، فقد يبدو في صورة تنافس على تحقيق الذات، و إشباع الحاجـــات النفســية والاجتماعية المختلفة، و قد يتجسد في صورة صراع بين أفراد من طبقات اجتماعية متناقضة المصـــالح و المواقع، أو يتمثل في صورة صراع أفكار بين اتجاه اليمين و اليسار، و بين القيم التقليديـــة والقيـــم الحديثة، و بين الجيل الماضي و الجيل الجديد، و يتطور إيقاع الصراع من مستوى إلى آخر، ومن فـترة إلى أخرى حتى تتحقق الغلبة لطرف دون آخر، و تتغير أشكال الصراع الإنساني عن طريق التكيـــف النفسي و الاجتماعي، و تنتهي بالتلاشي بحكم تأثير المصالح المشـــتركة، أو المتجانســـة، ويتمخـــض الصراع النفسي و الاجتماعي عن ظهور التغير الثقافي رديف تغير أنماط السلوك الإنســـاني الســـوي والمنحرف معا.

يسوق التناول الروائي مواقف الجماعات و الفئات الاجتماعية من شتى أنماط السلوك الـــتي تقوم بها الشخصيات الروائية حيث تتفاعل معها، و تؤولها تأويلا يتأرجح بين سوء الفهم، أو ســـوء النية، أو ضيق الأفق، أو غلبة العواطف و الانفعالات التي تشوّه الإدراك العقلي، و مـــن ثمـــة يبـــدو السلوك الإنساني منظورا إليه من وجهات نظر متعددة تتيح الوقوف على أبعاده المختلفـــة اختـــلاف التكوين النفسي و الثقافي و الانتماء الاجتماعي، مما يعصم التناول الروائي من الوقوع في أحادية النظر إلى الشخصية بكل أنماطها السلوكية .

يربط التناول الروائي بين شتى العمليات العقلية و الفعاليات النفسية السائدة لـــدى ممارســـة الشخصية الروائية لأي نمط من أنماط السلوك، مما يجعلها خاضعة لعدسة التصوير الروائي التي تضـــئ أبعادها النفسية و الجسدية و العقلية و الاجتماعية بحكم كون السلوك الإنساني يحكمـــه الاســـتعداد النفسي، و الاقتناع الفكري، و النشاط الجسدي، و السياق الاجتماعي، فضلا عن الإطـــار الزمـــاني والمكاني الذي يحدث فيه السلوك، و من ثمة تقتضي الرؤية الواقعية الإلمام بالأبعاد السلوكية المتعـــددة معا.

يتطرق التناول الروائي لأنماط السلوك الداخلي المتمثل في العمليات العقليـــة العليـــا شـــأن التفكير، و التذكر، و الإدراك، و التخيل، فضلا عن الحالات الشعورية و اللاشعورية الـــتي تحياهـــا الشخصيات الروائية، كما يتناول أنماط سلوكها الخارجي المتمثل في حركات الجسم التعبيرية سواء ما تعلق بالوجه، و الرأس، و أطراف الجسد الأخرى، و يعرض صورة الوجه مجزأة حينـــا، و متكاملـــة أحيانا، و يركز على بريق العيون، و التعبير النفسي الذي يشف عنه، و تـــورد الوجـــه و شـــحوبه،

ووضعية الرأس لدى ارتفاعه و انخفاضه، و حركة الكتفين و اليدين و الرجلين، و طريقة المشية وإيقاعها، و ما تنم عنه من حالات شعورية، و لا شعورية محتدمة في طوايا الشخصيات الروائية .

كما يسهم السلوك اللفظي في إضاءة بعض جوانب الشخصية في مواقف القوة و السيطرة والندية مع الآخر، بحيث يكشف باطنها جليا، لكنه يداري مشاعرها و أفكارها في مواقف الضعف والخضوع، و الدونية اتجاه الآخر، مما يحملها على التملق و التمويه و المجاراة السلوكية، حيث قد تعبر الشخصية الروائية عن المودة و الطاعة و هي تضمر المقت و التمرد، أو تفصح عن الحب و الزواج وهي تداري الرغبة في المتعة و التسلية، أو تتظاهر بالإيمان و الاستقامة و تبطن الانحراف.

يقوم السلوك الكسائي بالتعبير عن الانتماء الاجتماعي الحقيقي، أو الانتماء الزائف، و يكون في بعض الحالات مجرد قناع براق لحقيقة الذات الشائهة، و وسيلة جذب للآخرين لاستغلالهم، و لا يبدو السلوك الكسائي في أكثر الحالات، بحيث لا تسند له مهمة رسم ملامح الشخصية تماما.

أما السلوك الغذائي، فيراد به غالبا ملء الأحشاء للتزود بالطاقة اللازمة للنشاط، و قد يكون تعويضا عن الحرمان العاطفي، أو ملأ لاوقات الفراغ، أو تخفيفا من الملل، و قد يكون الامتناع عنه ناجما عن التوتر النفسي، أو الإحباط العاطفي، أو خيبة أمل في تحقيق رغبة معينة.كما يعكس السلوك الغذائي المستوى الاجتماعي الذي تنتمي إليه الشخصية الروائية. ويغفله التناول الروائي غالبا أو يشير إليه إشارة مبتسرة غامضة.

يحتكم معظم الأفراد لنسق القيم النفعية المادية في علاقاتهم الاجتماعية العامة، التي تطالعنا خالية من المضمون الإنساني و الأخلاقي المتمثل في قيم الإخلاص، و التعاون، و الحب، و الخير، والتضحية، لأن القيم الاجتماعية السلبية حلت محلها، و تتمثل في الانتهازية، و الخيانة، و الاستغلال بكل أنماطه، و الأنانية المسرفة، و الحسد و الغيرة، و التملق و النفاق الذي انحدرت إليه العلاقات الاجتماعية في عالم نجيب محفوظ الروائي .

يصدر الروائي في تصويره للسلوك الإنساني عن الاستبطان بوصفه فعالية نفسية تمكنه من تفسير أبعاد السلوك النفسية و الجسمية و الاجتماعية، و استكناه الخبرات الانفعالية التي تخامر شخصياته الروائية في شتى المواقف و الملابسات التي تواجهها خلال اتصالها الإنساني الفعال بالآخرين، مما يجعله يتوحد بها نفسيا، و يتعاطف مع شذوذها و انحرافها، و يبرره و يستدر العطف عليه، بحيث تبدو بمثابة إسقاط لا شعوري لبعض خبراته الشعورية و اللاشعورية، و لعل القرائن المدللة على أهم ملامح شخصيته الإبداعية، تتمثل في جملة من السمات النفسية، و الأنماط السلوكية التي بلغت أعلى

درجات التكرار في الروايات- موضوع البحث- و تمثل الموقف الأوديبي المتأزم، المثبت على المرحلة الفمية السادية، و يظهر من خلال سمات شخصية الأب السلبية، حيث يتعرض للانتحار، و الاغتيال في رواية عبث الأقدار، و رادوبيس وكفاح طيبة، و يصاب بالشلل في رواية القاهرة الجديدة، ويكون مجهول الهوية في روايتي زقاق المدق و الطريق .و يتعرض للموت في رواية بداية و نهاية، و يظهر بصورة المدمن المفلس المريض في رواية السراب. و يكون مزدوج الشخصية طاغية فاسقا في ثلاثة بين القصرين، و تمثل هذه المواقف المأساوية المرتبطة بحياة الأب و موته قمة التعبير الدرامي عن الميول الأوديبية العدوانية بصورة رمزية إعلائية، حققها الروائي في سلوكه الإبداعي بحكم استحالة تحقيق ذلك في الواقع.

كما تكررت في معظم الروايات علاقة عاطفية ثلاثية الأطراف، تتمثل في تنافس رجلين على حب امرأة، تكون هي الطرف الفاعل فيها، حيث تتخلى عن الرجل الأول بمجرد أن يلوح في أفق حياتها رجل يفضله مالا و نفوذا أو وسامة و شبابا، لكن علاقتها ما تلبث أن تنتهي نهاية فاجعة، مما ينم عن الخلفية النفسية للتناول الروائي التي شكلها الموقف الأوديبي العدواني اتجاه الصورة الرمزية للأبوين لاتحادهما في نبذ الطفل و حرمانه من الحب و الحنان، و رمزه الدال عليه هو الرجل الأول وقد يكون تكرار تصوير هذه العلاقة العاطفية الثلاثية الأطراف في اثنتي عشر رواية انعكاسا لتجربة عاطفية خائبة عاشها الروائي في مرحلة من مراحل حياته، و تعرضت للكبت في العقل الباطن، وتسربت خلال ممارسته السلوك الإبداعي باعتباره حلم يقظة؛ ينفس عن رغباته الانتقامية التدميرية المكبوتة لإزاحة رواسب الإحباط العاطفي التي تشكل النواة الانفعالية المركزية لعالمه الروائي .

تنتمي معظم الشخصيات الروائية للطبقة البرجوازية الصغيرة التي هي ملتقى التيارات الفكرية، و الأنساق القيمية، و الهموم الاجتماعية بحكم ما يتيحه لها موقعها الوسط من اتصال بالطبقة العليا، و الطبقة الدنيا، حيث تدرك استغلال إحداهما للأخرى، و معاناة أحدهما من الأخرى بسبب الاستغلال لذلك يكون أبناء الطبقة الوسطى أكثر وعيا بما يدور حولهم من صراعات لكونهم طرفا فاعلا فيها، لا سيما و أن جذورهم الاجتماعية و الثقافية و التاريخية متغلغلة في أعماق الطبقات الدنيا، بينما تمتد تطلعاتهم الاجتماعية إلى الطبقات العليا، لذلك ينقسمون إلى فئات، و جماعات مختلفة الاتجاهات و المصالح، يتطلع بعضها إلى وراثة مواقع الطبقة العليا، و امتيازاتها، و يتعاطف بعضها الآخر مع الطبقة الاجتماعية الدنيا، و يتبنى في سبيل ذلك مشاريع سياسية كفيلة بانتشالها من القهر الاجتماعي. ولذلك تتأرجح بين السعي إلى الصعود الاجتماعي بكل الوسائل المتاحة، و لو تنافت وأخلاقيات المجتمع و قيمه المقبولة، أو محاولة تبني إيديولوجيا الخلاص الاجتماعي المتمثلة في الاشتراكية، أو إيديولوجيا الخلاص الروحي المتمثلة في الإسلام، و يصطدم كلا المشروعين بالإخفاق

بحكم عدم نضج الطاقات النضالية، و الوعي الاجتماعي، مما يفضي إلى العجز عـــن تســـيير حركـــة الصراع الاجتماعي، و تتعرض قوى التغيير الاجتماعي للاحتواء السياسي أو الاضطـــهاد، و يختـــار بعض عناصرها الفاعلة سبل الخلاص الفردي الذي يقطع صلتها الاجتماعية بالطبقة الدنيا.

يتكون منهج تفسير السلوك الإنساني من أمشاج من الاتجاهات الفلسفية المختلفة كالماركسية و الفرويدية، و الداروينية الاجتماعية، و الوجودية، فضلا عن بعض اللمحات المثاليـــة . و يتمثـــل الاتجاه الماركسي في عرض أنماط السلوك باعتبارها وليدة الواقع الاجتماعي، و المواقع الطبقيـــة، ممـــا يجعل لكل طبقة أنماطها السلوكية، و أنساقها القيمية و المعيارية. أما الاتجاه الفرويدي، فيرى الســـلوك محصلة الدوافع الجنسية و العدوانية اللاشعورية، بينما الاتجاه الدارويني الاجتماعي، فيعتـــبر الســـلوك الإنساني نتاج الدوافع الغريزية، و الواقع الاجتماعي المتغير، مما يؤثر على أنماط الســـلوك، و يجعلـــها تتدرج في سياق التطور الاجتماعي من مستوى إلى آخر بحيث تتلاشى القيم و المعايير السلوكية الـــتي لا تجاري إيقاع التغير الاجتماعي، و تحل محلها القيم و المعايير المواكبة للتطور الاجتماعي في ســيرورته الأبدية. أما الاتجاه الوجودي، فيرى السلوك محصلة للوعي بالذات، و الوعي بالوجود بحيث يكـــون عملية توكيد للذات، و الوجود، و الحرية، و القدرة على السيطرة على المصير، أما الاتجـــاه المثـــالي الميتافيزيقي، فيظهر في التفسير القدري لبعض المواقف و الأحداث عن طريق المصادفـــات القدريـــة والسلوكات التي لاتمت بصلة لطبيعة الشخصيات، مما يجعلها تتحرك من الخارج، لا مـــن الداخـــل، وتفتقر إلى مبدأ العلية و السببية الذي يسوّغ انتقالها من نمط سلوكي إلى آخر. و تظهر بعض ملامـــح الاتجاه المثالي في التفسير الذهني لبعض أنماط السلوك باعتبارها تجسد فكرة معينة تكون بمثابـــة القـــوة الفاعلة الموجهة للسلوك لكون الاتجاه المثالي يعتبر السلوك الإنساني نتاجا للفكر، لأن الفكـــر يســـبق السلوك، و يشكله بمعزل عن السياق النفسي و الثقافي و الاجتماعي.

هكذا تتبين ملامح الرؤية الفكرية السائدة في الأعمال الروائية موضوع البحـــث باعتبارهـــا رؤية تكاملية قوامها المفاهيم المعرفية العقلانية و الواقعية ، التي تحتفي بظاهرة السلوك الإنساني و آلياتها المختلفة في إطار التوفيق بين المعرفة العلمية، و الحدس الفني بحكم أهميتهما المشتركة في فهم الســـلوك الإنساني على ضوء التجربة الإبداعية التي تمتاح مادتها الفكرية ، من سمات شخصية الروائي النفســـية، و نظامه المعرفي، ومشكلات طبقته الاجتماعية المتوسطة، و قيم مجتمعه الثقافية و معاييره الســـلوكية، مما جعل إبداعه الفني يمثل شخصيته الإنسانية و الإبداعية المتعددة الأبعاد.

المصـــــادر و المراجـــــع

1. **محفوظ، نجيب** : بداية و نهاية، دار مصر للطباعة.
2. // ، // : بين القصرين، دار مصر للطباعة.
3. // ، // : رادوبيس، الطبعة السادسة، مكتبة مصر، 1967 .
4. // ، // : زقاق المدق، الطبعة الخامسة ، مكتبة مصر، 1963.
5. // ، // : السراب، الطبعة الأولى ، دار القلم، بيروت 1971.
6. // ، // : السكرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر 1989 .
7. // ، // : الطريق، مكتبة مصر.
8. // ، // : عبث الأقدار، الطبعة السادسة، مكتبة مصر، 1969.
9. // ، // : القاهرة الجديدة،الطبعة السادسة ، مكتبة مصر 1966.
10. // ، // : قصر الشوق، د.ت.ن.ط ، دار مصر للطباعة.
11. // ، // : كفاح طيبة، مكتبة مصر، 1962 .
12. // ، // : اللص و الكلاب، مكتبة مصر 1977 .
13. **إبراهيم، زكريا:** مشكلة الحب، مكتبة مصر، 1972 .
14. **إبراهيم، زكريا:** مشكلة الحياة، الطبعة الأولى ، مكتبة مصر ،1971 .
15. **أبو السعد، كمال جندي:** انحراف الأحداث، دار المعارف بمصر 1971 .
16. **أبو النيل، محمود السيد:** علم النفس الاجتماعي،الطبعة 04، دار النهضة العربيـــة، بـــيروت 1985، الجزء الثاني.
17. **أحمد، سمير نعيم:** الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي، مطبعة دار التأليف، مصر 1969.
18. **أسعد، يوسف ميخائيل:** سيكولوجية الغضب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987.
19. **أسعد، ميخائيل إبراهيم:** الحرية النفسية، مكتبة غريب، مصر 1993 .
20. **اسكندر، مكرم شاكر:** أدباء منتحرون دراسة نفسية، دار الراتب الجامعية بيروت 1993.
21. **اسكندر، نجيب إبراهيم:** الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي، الطبعـــة الثانيـــة، مؤسســـة المطبوعات الحديثة، مصر، 1961.
22. **إسماعيل، أحمد السيد أحمد:** مشكلات الأطفال اليومية، دار الفكر الجامعي، 1993، مصر.
23. **إسماعيل، قباري محمد:** علم الاجتماع الثقافي، منشأة المعارف بالإسكندرية مصر، 1982.
24. **بدري عثمان** : بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ،ط1 ،دار الحدثة، بـــيروت 1986

25. **بدوي، السيد محمد**: التطور في الحياة و في المجتمع، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية 1988.

26. **جابر، جابر عبد الحميد، و سلطان عماد الدين**: الفرد و سيكولوجية الجماعة، دار النهضة العربية مصر.

27. **جرجس، صبري**: الطب النفسي في الحياة العامة، دار النهضة العربية، مصر 1961 .

28. **حجازي، مصطفى**: الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية و الإدارة، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، 1982.

29. **حجازي، مصطفى**: التخلف الاجتماعي، الطبعة الثانية، معهد الإنماء العربي بيروت 1980.

30. **حسن، محمود**: الأسرة و مشكلاتها، دار النهضة العربية، 1980 بيروت .

31. **الحفني، عبد المنعم**: التحليل النفسي للأحلام،الطبعة الأولى، دار ابن زيدون، بيروت، 1992

32. **الحفني، عبد المنعم**: موسوعة علم النفس و التحليل النفسي، الجزء الثاني، مكتبة مدبولي بمصر، 1978.

33. **الدروبي، سامي**: علم النفس و الأدب، دار المعارف بمصر 1971 .

34. **دسوقي، كمال**: دينامية الجماعة في الاجتماع و علم النفس، دار النهضة العربية بيروت، 1961

35. **دسوقي، كمال**: علم النفس و دراسة التوافق، دار النهضة العربية، بيروت .

36. **دويدار، عبد الفتاح محمد**: في الطب النفسي و علم النفس المرضي و الإكلينيكي، دار النهضة العربية بيروت 1995.

37. **رزوق، أسعد و عبد الله عبد الدائم**: موسوعة علم النفس، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1979.

38. **رمضان، السيد**: الجريمة، و الانحراف من المنظور الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، إسكندرية، 1985.

39. **رمزي، إسحاق**: علم النفس الفردي، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر، 1981.

40. **الزلباني، محمد محمد**: القيم الاجتماعية، مطبعة الاستقلال الكبرى 1973 مصر .

41. **زهران، حامد عبد السلام**: علم النفس الاجتماعي، الطبعة الخامسة، عالم الكتب 1984، مصر.

42. **زيعور، علي** : قطاع البطولة و النرجسية في الذات العربية، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت 1982.

43. **الساعاتي، سامية حسن**: جرائم النساء، المركز العربي للدراسات الأمنية و التدريب، الرياض، 1986.

44. سمعان، مكرم: مشكلة الانتحار، دار المعارف، مصر 1964.
45. عاقل، فاخر : مدارس علم النفس، الطبعة السابعة ، دار العلم للملايين، بيروت 1987.
46. علي، علي أحمد : أسس العلوم السلوكية و النفسية، مكتبة عين شمس، القاهرة .
47. عوض، عباس محمود: القيادة و الإبداع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1985 .
48. العيسوي، عبد الرحمان: الإرشاد النفسي، دار الفكر الجامعي، مصر.
49. غالب، مصطفى: السلوك، دار و مكتبة الهلال، بيروت، 1983.
50. غباري، محمد سلامة: الانحراف الاجتماعي و رعاية المنحرفين، المكتب الجامعي الحديث مصر، 1986.
51. غيث، محمد عاطف: المشاكل الاجتماعية و السلوك الانحرافي، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية .
52. فراج، عثمان لبيب: أضواء على الشخصية و الصحة العقلية، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية 1970.
53. فراج، محمد فرغلي: السلوك الإنساني، دار الكتب الجامعية، مصر .
54. فرح، محمد سعيد: الشخصية القومية، منشأة المعارف، بالإسكندرية .
55. فهمي، مصطفى : علم النفس، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي 1975، مصر.
56. الفقي، حامد عبد العزيز: سيكولوجية الفرد في المجتمع، دار القلم، الكويت، 1984.
57. ليلة، رزق سند إبراهيم: قراءات في علم النفس، دار النهضة العربية، بيروت 1995.
58. مراد، يوسف: دراسات في التكامل النفسي،الطبعة الأولى ، مؤسسة الخانجي، 1958 مصر.
59. مراد، يوسف و آخرون: الكتاب السنوي في علم النفس، المجلد الأول.، دار المعارف بمصر 1954
60. المغربي، سعد: سيكولوجية تعاطي الحشيش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978 .
61. نايل، كمال الدين عبد الحميد: الغرضية في السلوك الإنساني، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر 1958.
62. وصفي، عاطف : الثقافة و الشخصية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

المراجع المترجمة:

63. أرمان، أدولف: ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، مكتبة البابي الحلبي بمصر .

64. **بوتول، جاستون:** الحرب و المجتمع، ترجمة عباس الشربيني، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1986.
65. **جارندر،سيرآلن:** مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1973.
66. **جاريت، انيت:** فن المقابلة، مبادئه و طرقه، ترجمة لجنة من المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، دار المعارف، بمصر 1958.
67. **جورارد، سيدني:** الشخصية بين الصحة و المرض، الطبعة الأولى، ترجمة حسن الفقي، و سيد خير الله، مكتبة الأنجلو المصرية، 1973.
68. **دافيز، هوارس:** القومية، الطبعة الأولى، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1980.
69. **دريوتون، اتينير**، و فانديه، حاك: مصر، ترجمة عباس بيومي، مكتبة النهضة المصرية.
70. **دوير ينكوف، ف:** الفرويديون الجدد، الطبعة الأولى، ترجمة محمد يونس، دار الفارابي بيروت، 1988.
71. **فروم، إيريك:** الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1974.
72. **فلوجل، ج،ل:** علم النفس في مائة عام، الطبعة الرابعة، ترجمة لطفي فطيم، دار الطليعة، بيروت 1988 .
73. **فيشر، ارنست:** ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1971.
74. **كونجر، جون، و موسن، بول** : سيكولوجية الطفولة و الشخصية، ترجمة عبد العزيز سلامة، جابر عبد الحميد جابر، دار النهضة العربية، مصر .
75. **لامبرت، وليم و ولاس لامبرت:** علم النس الاجتماعي، الطبعة الثانية، ترجمة سلوى الملا، دار الشروق مصر 1993.
76. **هادفيليد، ج، أ:** علم النفس و الأخلاق، ترجمة عبد الحميد أبو العزم، مكتبة مصر .
77. **هيرشي، ترافسيس:** أسباب جنوح الأحداث، ترجمة محمد سلامة غباري، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية 1987.
78. **و دورت، روبرت:** مدارس علم النفس المعاصرة، ترجمة كمال سوقي، دار النهضة العربية بيروت .

الدوريـــــــات :

79. **جورجي، أنطوانيت**: ديناميات التوافق في الحياة الزوجية "المجلة الاجتماعية القومية"، العـــــدد الأول، يناير 1967 المجلد 04، مصر .

80. **الدباغ، فخري** : علم النفس الوجودي "مجلة الفكر المعاصر"، العدد 20 أكتوبر 1966 مصر

81. **دياب، محمد حافظ**: النقد الأدبي و علم الاجتماع "مجلة فصول"، المجلد الرابع، العــــدد الأول أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، مصر 1983.

82. **راجح، أحمد عزت**: سيكولوجية المجرم العائد "المجلة الجنائية القومية"، يوليو 1958، العـــــدد 02، مصر .

83. **عبد القادر، محمود**: التنشئة الاجتماعية للطفل و تكوين الجناح، "المجلة الاجتماعية القوميــة"، العدد 02، يوليو 1970، مجلد 13، مصر.

84. **فهمي، علي حسن**: قضية محمود أمين سليمان "المجلة الجنائية القومية"، العـــدد 02، 1960، المجلد الثالث.

85. **محمد، محمود عبد القادر**: أساليب الرضاعة و الفطام الشائعة في الثقافـــة المصريـــة "المجلـــة الاجتماعية القومية"، العدد 02، المجلد 05، مايو 1968 مصر .

86. **ملحم، سامي محمد**: مشكلات التوافق لدى المرأة العاملة "المجلة العربية للتربية"، المجلـــد 13، العدد 02، ديسمبر 1993، تونس.

87. **9لاجاش، دانييل** : المنشأ النفسي للجريمة، ترجمة عبد الحليم السيد "المجلة الجنائية القوميــــة"، العدد 01، مارس ، 1970، المجلد 13، مصر .

88. **فراكوتي، خ**: دراسة المجرم من الناحية النفسية "المجلة الجنائية القومية"، مارس 1960، العـــدد 01، مصر.

المراجــع باللغــة الأجنبيـــــة :

89. **BAUDOUIN, Charles** : Psychanalyse de Victor Hugo, libraire Armand Colin, Paris 1972.

90. **BURNEY, Pierre**: L'amour, presses universitaires de France, 2ème Editions, Collection : Que -sais -je? 1977.

91. **DICHTER, Ernist** : La stratégie du désir, Fayard, France, 1961.

92. **DICHTER, Ernist** : Motivation et Comportement Humain, Publication UNION, Paris, 1972 .

93. **FILLOUX, Jean Claud** : La personnalité, presses universitaires de France, Que-sais-je ? 10ème Editions, 1980.

94. **SEVE, Lucien** : Marxisme et théorie de la personnalité, Editions Sociales, Paris, 1969.

95. **RESTENT, René**: Caractérologie du criminel, presses universitaires de France, 1959.

96. **TYTELL, Pamela**: La plume sur le divin : psychanalyse et littérature en France, Edition AUBIER MONTAGNE, Paris 1982.

الفهـــــــرس

الفهـــــرس التحليلي

الفصـــــل الثـــــالث

تفســير السلـــوك الإجتماعــــــي 73

الفصـــــل الرابــــــع
تفسيـــــر السلـــوك الجنســـي 131

الفصل الخامس

تفسير السلوك الإجرامي 179